

# خطوة لقدام

د. أوسم وصفي



الجزء 1

سنوات الطفولة

المادة العلمية للبرنامج التلفزيوني

خطوة لقدام



الدكتور أوسم وصفي يحملُ درجة  
البكالوريوس في الطبِّ والجراحة، ودرجة  
الماجستير في الأمراض النفسية والعصبية.

يُقيم في العاصمة المصرية القاهرة، وهو  
متزوِّج ولديه بنتٌ وولدٌ.

يعمل الدكتور أوسم منذ عام ١٩٩٢م في  
مجالات العلاج النفسي والإرشاد وإعادة  
تأهيل المدمنين، كما يحاضرُ في عددٍ من  
البلدان العربية في هذه المجالات أيضًا.

خطوة لقدام



# خطوة لقدام

الجزء الأول  
سنوات الطفولة

د. أوسم وصفي



ophir

## A Step Forward, Volume I: Childhood Years.

Arabic Edition Copyright © 2011 by **Ophir Printers & Publishers**.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.  
Second Print 2014.  
Third Print 2017.

### خطوة لقدام الجزء 1: سنوات الطفولة

الطبعة العربية الأولى ٢٠١١

الطبعة العربية الثانية ٢٠١٤

الطبعة العربية الثالثة ٢٠١٧

حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمان ١١١٨١، الأردن

هاتف: ٩٦٢ ٦ ٤٦٣٣ ٣٨١+

فاكس: ٩٦٢ ٦ ٤٦٣٣ ٣٨٥+

Email: info@ophir.com.jo

www.ophir.com.jo



رقم الإيداع: ٢٠١١/١٠/٣٧١٤

ISBN 978-90-5950-145-4

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

## المحتويات

٧	مقدّمة الكتاب
٩	مقدّمة الجزء الأوّل: سنواتُ الطفولة
١٣	الفصل الأوّل: حجرُ الأساس
٢٣	الفصل الثاني: الفطامُ والكيان
٣٣	الفصل الثالث: الأمُّ والأبُّ والطفل
٤٩	الفصل الرابع: سنُّ الحضّانة
٦٣	الفصل الخامس: التربية: عقابُ أمّ تأديب؟
٧٥	الفصل السادس: التربيةُ الوجدانيّة
٨٧	الفصل السابع: التربيةُ الجنسيّة
١٠٥	الفصل الثامن: التربيةُ الروحيّةُ والأخلاقيّة
١١٧	الفصل التاسع: التربيةُ في ثقافاتٍ مُتصارعة
١٢٩	الفصل العاشر: الأسرةُ ذاتُ العائل الواحد
١٣٧	الفصل الحادي عشر: أنواعُ الذكاء
١٥٥	الفصل الثاني عشر: الاضطراباتُ التطوّريّةُ وكيفيّةُ التعاملِ معها

- ١٧١ الفصل الثالث عشر: الاضطرابات السلوكية
- ١٨١ الفصل الرابع عشر: الأسرة المضطربة
- ١٩٧ الفصل الخامس عشر: الوقاية من الاعتداء الجنسي والجنسية المثلية



## مقدّمة الكتاب

إنّ مشوارَ الحياة، منذ لحظة الولادة إلى لحظة الممات، ملأَنُ بأحداثٍ ومشاعرٍ وتحدياتٍ واحتياجاتٍ. ونحن دائماً ما نمُرُّ بمراحل الحياة، حلوها ومرّها، دون أن نَقِفَ لكي نطرح أسئلةً ونفهم الأمور. في كثير من الأحيان، كُنَّا نتمنّى لو كان أباؤنا وأمّهاتنا قد توقّفوا قبل ولادتنا ليتساءلوا ويفهموا: ما تعريفُ الإنسان؟ ما الذي يحتاجُ إليه؟ وما الذي يؤثّر فيه؟ في الجزء الأوّل من ”خطوةً لقدام“، سنتناوّلُ مراحلَ الطفولة، وسنحاولُ أن نتعرّفَ كيف أنّ هذه المراحل وما يحدث فيها يشكّلُ شخصيّاتنا، ويحدّدُ ما نؤمنُ به وما يؤثّرُ في مشاعرنا وسلوكيّاتنا، ربّما على مرّ حياتنا القادمة. كما سنحاولُ كذلك أن نكتشِفَ كيف تُسهّمُ الأسرةُ حيثُ ينشأ الطفل في تشكيل نوعيّة علاقته بنفسه وبالناس وبالله.

هذا لا يعني أنّنا بعد الطفولة لا نستطيعُ أن نتغيّرَ ونتطوّرَ وتغلّبَ على ما في حياتنا من عيوبٍ تسبّبَت فيها التنشئة، لكنّ التغييرَ يبدأ دائماً بالفهم والمواجهة. قد نكتشفُ أخطاءً ارتكبنا في حقّنا عندما كُنّا أطفالاً، أو ارتكبناها نحن في حقّ الأطفال في مراحلهم المختلفة. قد ندهشُ أو نخافُ أو نطمئنُ، أو ربّما نفرحُ، أو نحزنُ. غير أنّنا في كلّ الأحوال سنعرّفُ شيئاً جديداً لنتقدّمَ خطوةً إلى الأمام في مشوار الأيام!



# مقدِّمةُ الجزء الأوَّل سنواتُ الطفولة

## مراحلُ العمر

يصفُ إريك إريكسون (١٩٥٦م) ثمانيةَ مراحلٍ في نظريته الشهيرة لمرحلة النمو النفسي للإنسان. وسنتناوُلُ في هذا الكتابِ بجزأيه هذه المراحل الثماني والتحدّيات المختلفة المتعلقة بها والمعاصرة لها. إنَّ كلَّ مرحلةٍ من هذه المراحل تحوي تحدّيًا أو "أزمة" نموّ معيّنة. وتظهرُ هذه الأزمةُ في صورةٍ احتياجٍ خاصٍّ إذا ما سُدِّدَ على نحوٍ سليم، فإنَّ الشخصَ يتجاوزُ الأزمة، فتتحقّقُ صفةٌ إيجابيّةٌ في الشخصية السويّة (أو "المتينة" باستخدام مفهوم المتانة النفسيّة<sup>١</sup>). وإذا لم يتحقّقِ الهدفُ في هذه المرحلة، فإنَّ ذلك يؤدي إلى صعوبةٍ تحقيقِ أهدافِ المراحل التالية، وقد يؤدي أيضًا إلى عيبٍ في الشخصية يحمله الإنسانُ طوال عمره. وعلى الرُّغم من أنَّ كلَّ مرحلةٍ من مراحل العمر تتميزُ بظهورٍ خاصٍّ لاحتياجٍ معيّن، فإنَّ الإنسانَ يظلُّ غير مسدّدٍ جميع أنواع الاحتياجات النفسيّة طوال عمره. لهذا السبب فإنَّه ليس من المستحيل في الوقت الحاضر تسديدُ احتياجِ مراحلٍ سابقة، ولكنَّ سيكوُنُ هذا بالتأكيد أصعبَ من تسديده في وقته.

١ كانت عالمةُ الطبِّ النفسيِّ التّصوّريِّ (Developmental Psychologist) الأميركيّةُ إيمي فَرَنر (Emmy E. Werner) أوَّلَ مَنْ عمل في هذا المجال في سبعينيّات القرن العشرين.

## الطفولة ما قبل المدرسة

تمتد هذه المرحلة من الولادة حتى سن الخامسة أو السادسة. تكون بيئة الطفل في هذه المرحلة هي الأسرة فقط خلال السنوات الثلاث الأولى، ثم تُضاف إليها الحضانة في السنتين أو الثلاث الأخيرة. إنَّ الطفل في هذه المرحلة صغيرٌ ومطالبه محدودة، ويستطيع الأب والأم أن يتحكَّما فيه بسهولة. غير أنَّ هذه المرحلة هي أهمُّ مراحل العمر على الإطلاق، وهي مهمَّةٌ تمامًا كما أنَّ مرحلةَ وَضْعِ حجرِ الأساس هي أهمُّ مراحل أيِّ بناء. تشيرُ العلوم العصبية إلى أنَّ ٩٠٪ من تكوين المخِّ ونُضجِه يحدثان خلال السنوات الثلاث الأولى، لذا فإنَّ هذه المرحلة هي المرحلة التي تُزرَعُ فيها أهمُّ المعتقدات والعادات رسوخًا. ويكتسبُ الطفلُ في هذه المرحلة معتقداته الأساسية عن نفسه وعن العالم والآخرين، ويتشكَّلُ أسلوبُه في التعامل مع جسده ومشاعره والآخرين. كما أنَّه في هذه السنوات يتشبعُ بالأمان أو عدم الأمان، كما يتعلَّمُ الثقة أو الشك. ويتعلَّمُ الطفلُ أيضًا أنَّه كائنٌ منفصلٌ ومستقلٌّ عن الآخرين، لكنَّه في الوقت نفسه يحتاجُ إلى الآخرين. يستطيعُ أن يديرَ جسده بنفسه، لكنَّ ينبغي أن يفعلَ ذلك في إطار حدودٍ يرسمُها له الأبوان والمجتمع فيما بعد. ومن الأمور التي يتعلَّمُها الطفل في هذه المرحلة الصوابُ والخطأ، وهو يشعرُ بالذنب عندما يرتكبُ خطأً، ويُساعدُه هذا الشعور أن يكتشفَ الخطأ ويُصلِّحُه. ويمكنُ للطفل في هذه المرحلة أن يعيَ مشاعره ويعبِّرَ عنها بالكلام، ويديرها بطريقةٍ مقبولةٍ مع من هم حوله. ويبدأ الطفلُ في هذه المرحلة أيضًا في تعرُّفِ جسده، ويكتشفُ أنَّ فيه مناطق أكثر حساسيةً من غيرها (المناطق الجنسية)، ومن ثمَّ يمكنُ لوأدبه أن يعلمها كيف يتعاملُ مع هذه المناطق باحترامٍ واجبٍ دون خوفٍ أو ذنبٍ مبالغ فيه. عندما يتعلَّمُ الطفلُ مبدأ الحدود الجسدية وحمايتها، فهذا يحميه من الوقوع فريسةً للانتهاك الجسدي والجنسي سواءً في هذه المرحلة أم في المراحل اللاحقة.

خلال هذه المرحلة المبكرة من حياة الطفل، كثيرًا ما يكونُ الآباء والأمهات مشغولين إمَّا بمستقبلهم المهني الذي يمرُّ أيضًا بسنوات التكوين، وإمَّا بحياتهم الزوجية التي تمرُّ بسنينها الأولى وكثيرًا ما تكون متقلبة وغير مستقرة، لذا فإنَّهم لا يهتمون كثيرًا بتربية أولادهم مع أنَّ هذه السنين الأولى تشكِّلُ حجرَ الأساس الأهمَّ في تشكيل شخصيات الأطفال. في الفصول التالية

سنتناول بالتفصيل هذه السنوات، وسنلقي الضوء عليها، وعلى ما يحدث فيها من تطورٍ وتغييرٍ في حياة الأطفال، وما يمكن أن يواجههم فيها من تحديات.





## الفصل 1

# السنة الأولى "حجر الأساس"

كان رامي يجلسُ إلى مكتبه منهمكًا بأداء واجبه المدرسيّ قبل أن يحينَ موعدُ نومِه، حتّى إنّه لم ينتبه إلى دخول والده الغرفة. دون أن يشعرَ، وَصَعَ مجدي يديه على كتف رامي، فانتبه ونظرَ نحو الأعلى والتقت عيناه عيني أبيه، فابتسم الأبُ بدوره.

- أتعرفُ يا رامي؟

- ماذا يا أبي؟

- أنا أحبُّكَ جدًّا.

- لماذا؟ ماذا حدث؟

- لا شيء. أحبُّكَ لأنك رامي!

انفجرت أساريرُ رامي وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

استدارَ مجدي ليُغادرَ الغرفة، بينما عاد رامي إلى كُرّاساته، لكنّ قلبه لم يُعدْ قَلِقًا كما كان، بل سرى في جسمه شعورٌ راسخٌ بالأمان.

إنّ الاحتياجَ إلى الأمان هو أعمقُ احتياجٍ للإنسان، وهو يبدأ مع الولادة؛ فنحن نولدُ صِغارًا وضعافًا وعاجزين. خلال المرحلة من وقت الولادة إلى سنِّ ١٨ شهرًا، يتميَّزُ الإنسان بالعجز التام عن تسديد احتياجاته الشخصية الأساسية. فالطفل الرضيع لا يستطيع أن يُطعمَ جسده

أو يسقيه أو ينظفه أو يحركه من مكانٍ إلى آخر، كما أنه لا يستطيع أن يعبرَ عما يشعر به أو يحتاج إليه، لذا فهو يكون معتمداً تماماً على الآخرين في أن يأتوا إليه بكل ما يحتاج إليه، بل إن عليهم أيضاً أن يستنجوا من صراخه ما يريدُه وما يشعر به.

عندما تسدُّ حاجاتُ الطفل بشكلٍ ثابتٍ ومستقرٍّ ومتوقَّع، فإنه يشعر بالأمان. وعندما يقدِّم إليه الحنان في صورة تلامسٍ لطيف، واحتضانٍ دافئ، ونظراتٍ تنقل القبول والفرح والاهتمام- فإنَّ شعوره بالأمان والطمأنينة يتأصل ويتأسس.

يظلُّ هذا الاحتياجُ إلى القبول غير المشروط كامناً في الإنسان في كلِّ مراحل عمره، ويظهر بشكلٍ خاصٍّ كلما تعرَّض الإنسان لموقفٍ يشعر فيه بالخوف والعجز.

تجدرُ الإشارةُ هنا إلى أنَّ الطفلَ، في بداية هذه المرحلة، يتعرَّضُ "للصدمة" الأولى في حياته، وأعني بها صدمة الولادة. إن كانت الولادة حدثاً سعيداً للأهل والأصدقاء، فهي بالنسبة إلى الجنين الذي يولد أشبه ما تكون بتردٍ من الجنة حيث الراحة الكاملة، والأمان التام، والاحتياجات المسددة بتلقائيةٍ حتى قبل أن يشعر بها. قبل أن

يجوع الجنين يكون الغذاء قد وصل إليه في دمه مباشرة دون حتى أن يحتاج لأن يأكل. ويجري الأكسجين في عروقه دون أن يتحمَّل حتى عناء التنفُّس بينما يسبح في سائلٍ يمتصُّ عنه الصدمات، ويضبط درجة الحرارة، سواء أحراراً كان الجو الخارجي أم بارداً. فجأةً "تنقلب الدنيا رأساً على عقب"، ويتردُّ من هذه "الجنة" إلى الأرض التي عليه فيها أن يتحمَّل الجوع القاسي، ويختبر للمرة الأولى الجوع والعطش والبرد والحر والألم، ويتعرَّض للقبول والرفض من المحيطين به. عندما يشعر الطفل بالعجز الشديد، فإنَّ احتياجه الأساسي في هذه المرحلة هو إلى القبول غير المشروط، أي أن يشعر بأنه محبوبٌ ومقبولٌ حتى وهو عاجزٌ تماماً ولا يستطيع أن يقدِّم أيَّ مقابلٍ لحصوله على الحب والاهتمام. يظلُّ هذا الاحتياجُ إلى القبول غير المشروط كامناً في الإنسان في كلِّ مراحل عمره، ويظهر بشكلٍ خاصٍّ كلما تعرَّض الإنسان لموقفٍ يشعر فيه بالخوف والعجز والضعف والتقصير والاحتياج إلى القبول والغفران.

عندما طلبتُ من إحدى عميلاتي أن تعودَ إلى مراحل الطفولة وتعبّر عما كانت تشعرُ به



من خلال الكتابة بيدها اليسرى (التي لا تكتب بها)، فوجئت أنها وصلت إلى تلك المرحلة السحيقة من تكوينها، وقالت عندئذٍ (بكلماتها العامية):

”أنا عندي إحساس فطيع بالألم لأنني كنت في رحم الست دي،  
واللي أنا فاكراه إنني كنت أشعر برفضها لي واكتئابها وحزنها وكراهيتها  
لي لأنني بنت! أول يوم لي في الحياة كان يوم حزين كئيب لأنهم ما  
فرحوش بي!“

## الثقة الأساسية

يحقق هذا القبول داخل الطفل ما يُطلق عليه  
”الثقة الأساسية“. ويعني هذا المصطلح شعور  
الطفل بالأمان الداخلي حتى إنه يستطيع أن  
يحتمل بدرجة ما غياب مصادر الأمان من الخارج،  
لذا تكون لديه قدرة معقولة على المخاطرة والمغامرة،

يحتاج برنامج القبول غير  
المشروط أيضًا إلى الحماية  
من فيروسات الحب المشروط  
والإساءات التي تؤدي إلى إضعافه.

وإحساس راسخ بأن ”الدنيا بخير“ وأن العالم يرحب به ويقبله، وأن البشر طيبون ومسالمون  
حتى يثبت عكس ذلك.

كثيرًا ما يمتحن القدر الذي لدي من الثقة الأساسية عندما أسافر إلى بلد غريب، ومنتظرني  
هناك في المطار شخص لا أعرفه ولا يعرفني يرفع لافتة عليها اسمي، فأراها وأتبعه وأركب برفقته  
سيارة ليأخذني إلى حيث لا أعرف في شوارع لا أعرفها إلى مكان لا أعلمه. في موقف مثل هذا  
يكون علي أن أتق بهذا الشخص وأركب برفقته السيارة قبل أن أعرف أنه مرسل من الشخص  
الذي أعرفه في هذا البلد. ثم في اليوم التالي مثلًا أخرج للتنزه في البلد فأستقل سيارة أجرة  
مفترضًا أنه لن يخطفني، وأنه شخص غير جاهل بأصول القيادة فلا يتسبب في حادث يودي  
بحياتي. نحن نحتاج إلى الثقة الأساسية بأن البنائة التي ندخلها لن تنهدم على رؤوسنا، وأن

الطائرة التي نستقلها لن تسقط على الأغلب، وأنَّ العربة التي نركبها في مدينة الملاهي، والتي ترتفع بنا عاليًا هي مؤمنةٌ جيّدًا.

إنَّ هذه الثقةَ الأساسيَّةَ ضروريَّةٌ للحياة. وعندما تهتزُّ هذه الثقةُ بسببِ خبرةٍ مخيفَةٍ- أو غير ذلك- في مرحلة الطفولة، يُصابُ الناسُ بأمراض القلق وأنواع الرهاب (Phobia) المختلفة. وإنَّ لم نُصبِ بالرهاب، فمن الممكن أن نكونَ قلقين أو متشائمين أو غير قادرين على تصديق الحبِّ واحتمال الغموض في الحياة، كما نكون غير مستعدين للمغامرة والمخاطرة اللّازمة لاختبار لُدَّة الحياة والنجاح فيها.

## الطفل الرضيع يظلُّ في الداخل

كان مجدي يعلمُ أنَّ رامي يحتاجُ بين الحين والآخر لأن تصلَ إليه رسالةٌ فحواها أنه محبوبٌ بلا شروط ودون أيِّ سبب- هو محبوبٌ فقط لأنَّه رامي. وإنَّ كان يظهرُ الاحتياجُ إلى القبول غير المشروط بصورةٍ خاصَّة في مرحلة الرضاعة، فإنَّه يستمرُّ في كلِّ مراحل الطفولة والمراهقة، بل طوال العمر أيضًا. وتكمنُ المشكلةُ في أنَّ الطفل عندما يبدأ في

عندما قال مجدي لرامي:  
"أحبُّكَ لأنَّك رامي"، فهذا  
معناه أن لا شيءَ يمكنُ أن  
يحدِّثَ لرامي أو من قبل رامي  
يمكنُ أن يمنعَ هذا الحبَّ أو  
يقلِّلَ منه.

النمو وتظهرُ قدراته المختلفة، فإنَّ عجزَه واحتياجه إلى الأمان عبر القبول يتوارى خلفَ قدراته المتنامية. لذا فإنَّنا نحتاجُ مثل مجدي لأن نتعلَّم كيف ننتهزُ الفرصَ حتَّى نعبرَ إلى الطفل الرضيع الكائن في أبنائنا، حتَّى لو كانوا شبابًا ومراهقين، كي نُشبعَ احتياجهم الدفين إلى الحبِّ والقبول دون شروط. عندما قال مجدي لرامي: "أحبُّكَ لأنَّك رامي"، فهذا معناه أن لا شيءَ يمكنُ أن يحدِّثَ لرامي أو من قبل رامي يمكنُ أن يمنعَ هذا الحبَّ أو يقلِّلَ منه؛ فهو رامي وسيظلُّ رامي مهما حدث. هذا هو أكثرُ أمرٍ يبعثُ على الظمأنينة والثقة في قلب الإنسان.

لا يمكن لأحدٍ إلا أن يقبلَ الطفلَ الرضيعَ كما هو ولا يطالبه بأن يفعلَ أيَّ شيءٍ، فعجزُ الطفلِ واضحٌ لكلِّ عينٍ. لكنَّ بعدَ أن يكبرَ قليلاً يبدأ الأداءُ الأخلاقيُّ والدراسيُّ والرياضيُّ يحجبُ عن العيونِ ذلكَ الرضيعِ الضعيفِ العاجزِ والخائفِ، الذي يظلُّ قابلاً في الداخلِ محتاجاً دائماً إلى القبولِ غيرِ المشروطِ. لذلك فإنَّ الطفلَ بعدَ هذه المرحلةِ يحتاجُ إلى الاتزانِ بين الثوابِ والعقابِ والتدريبِ على تحمُّلِ المسؤوليةِ من جهة، مع الاحتفاظِ بالحبِّ والقبولِ غيرِ المشروطِ من جهةٍ أخرى. وعندما يفشلُ الأبُ والأمُّ ومقدمو الرعايةِ عموماً في تحقيقِ هذا الاتزانِ- وغالباً ما يفشلون- فإنَّ الحبَّ يصيرُ مشروطاً، والقبولُ مقروناً بالأداءِ والإنجازِ، ومن ثمَّ يضعفُ الإحساسُ العامُّ بالثقةِ والأمانِ.

يمكنُ أن نشبِّهَ الأمرَ ببرنامِجِ حاسوبٍ. حيثُ يبدأ تنزيلُ برنامِجِ "الثقةِ الأساسيةِ" في هذه المرحلةِ المبكرةِ من العمرِ، لكنَّ ينبغي أن يُحدَّثَ دائماً ويُحمى من فيروساتِ الحبِّ المشروطِ التي توصلُ رسائلَ مثل: "أحبُّك إن كنتَ مُطيعاً، أو افعلْ هذا الأمرُ أو ذاكَ حتَّى أحبُّك". وهذا يُمارَسُ بالكلامِ والفعلِ على حدِّ سواءِ، وليس بالكلامِ فقط. فعندما لا ينتبهُ الآباءُ والأمهاتُ إلى أولادهم وبناتهم إلا عندما يمارسونَ أمراً إيجابياً، وكثيراً من الآباءِ والأمهاتِ لا ينطقونَ لأولادهم بكلماتِ الحبِّ والتشجيعِ إلا إذا فعلوا أمراً حسناً- في هذه الحالاتِ، يتكوَّن لدى الأطفالِ معتقداً محوريُّ لم يقصدِ الآباءُ تكوينه غيرَ أنه يتكوَّن. ويقول هذا المعتقد: "أنت محبوبٌ فقط إذا...".

لذا فإنَّ من المهمِّ لحمايةِ الأطفالِ من فيروساتِ الحبِّ المشروطِ ولتُنع تكوينِ مثلِ هذه المعتقداتِ، أن يُقدِّمَ الحبُّ والقبولُ دائماً في كلِّ الأوقاتِ، وليس فقط في مواقفِ النَّجاحِ أو الطاعةِ أو القيامِ بأعمالِ في البيتِ.

هناك مواقفٌ خاصَّةٌ يمكنُ أن تشكَّلَ "نافذة" يمكننا من خلالها أن ننفذَ إلى الطفلِ الرضيعِ الذي في أبنائنا، فنُعطيه جرعةً لازمةً من الحبِّ غيرِ المشروطِ. وهذه المواقفُ هي عند الخوفِ والعجزِ والفشلِ، إضافةً إلى مواقفِ الخطأِ والخزيِّ والخسارةِ، أو كما في حالةِ مجدي ورامي، في الأيامِ العاديةِ التي لا يحدثُ فيها شيءٌ يذكِّرُ، حيثُ يكونُ متوقِّعاً منهم الاستمرارُ في الأداءِ والدراسةِ والتزامِ روتينِ يوميِّ شاقِّ.

## العلاقة الآمنة

ذات مرة شاركني ابني برأيه في أحد أصدقائي، وكان رأيًا إيجابيًا. فسمحتُ لنفسي، لكونه رأيًا إيجابيًا، أن أشارك صديقي هذا، أمام ابني، الرأي الإيجابي الذي سمعته فيه دون أن أستأذن ابني. عندئذٍ نظر إليَّ ابني نظرة عتابٍ اخترقت قلبي، وكأنه يقول: ”مَن سمح لك بأن تشارك شخصًا آخر بما قلته لك سرًا؟“ في ذلك الوقت خشيتُ جدًّا من تأثر علاقتي بابني بعد هذا الموقف، وخشيتُ أنه قد يشعرُ بعدم الأمان أن يشاركني ما في قلبه. أولًا يجب أن أعتز أني بدأتُ أبررُ موقفِي بأن ما شاركني به كان أمرًا إيجابيًا ولا بأس من مشاركته، فلم يستجِب ابني لتبريراتي. وفهمتُ من عدم استجابته أن سببَ غضبه هو المبدأ- مبدأ أن أبوح لآخر بما لم يسمَح هو لي بالبوح به. عندئذٍ أدركتُ أن عليَّ أن أعتذر دون أي تبرير، وأن عليَّ أيضًا أن أوكد لولدي أنني لن أفعلَ هذا مجددًا.

قد تكونُ الصفة الأبرز التي يجب أن نحرصَ عليها في علاقتنا بأبنائنا هي أن تكونَ علاقتنا بهم آمنةً، وأن نكونَ بالنسبة إليهم أشخاصًا آمنين (Safe people)، وهذا معناه أن يشعرَ أبنائنا بأننا أشخاصٌ ذوو مبادئٍ ثابتةٍ يخضعون لها، وقوانينَ مستقرَّةٍ يعيشون وفقًا لها، لذا فإنه يمكنُ دائمًا توقعُ ردود أفعالهم. ينبغي ألا يكونَ الآباء والأمهاتُ كالبحار المضطربة التي تثور فجأةً وتتلاطمُ أمواجها دون سبب، ولا كالبراكين التي تنشطُ دون سابق إنذارٍ وتقذفُ حممًا ملتهبة. فعلى الرُّغم من قلوبهم العامرة بالمحبة، فإنَّ السلوكَ غير المستقرَّ لبعض الآباء والأمهات المحبِّين يجعلهم أشخاصًا غير آمنين ويأخذون بيد الثَّورة المفاجئة والعقاب المنفجر ما يعطونه بيد الحبِّ والحنان، بل ربَّما يكونُ الأخذُ أكثرَ مما يُعطون بكثيرٍ وهذا يفسرُ كيف أن آباءَ وأمَّهاتٍ كثيرين يتعجَّبون من عدم شعور أبنائهم بالأمان على الرُّغم مما يقدمونه لهم من حبِّ وحنان.

## كيف يمكنُ ”إصلاح البرنامج“

ماذا لو كُنَّا نحن الرُّاشدين فاقدين شعورَ الثقة والأمان؟ ماذا لو كانت خزانة قلوبنا خاويةً

لكي يشعُر الإنسان بأنه  
مقبولٌ "كما هو"، يحتاجُ إلى  
علاقاتٍ فرديةٍ وجماعيةٍ، يكونُ  
فيها "كما هو".

من الطمأنينة والاستقرار؟ وكيف يمكنُ تسديدُ  
"عجز" الأمان والقبول غير المشروط في قلوبنا  
الآن؟ لكي يشعُر الإنسان بأنه مقبولٌ "كما هو"،  
يحتاجُ إلى علاقاتٍ فرديةٍ وجماعيةٍ، يكونُ فيها  
"كما هو"، حيثُ يظهُرُ ضعفُهُ واحتياجه وفشلُهُ،

وعلى الرُغم من ذلك فهو يتلقَى الحبَّ والقبولَ والاحترام. إنَّ العلاقات الآمنة في الحاضر  
يمكنُها أن "تعيدَ تحمیل" برنامجِ الثقة والأمان كي ما يعملُ بشكلٍ أفضل. لذلك لكي تتمتَّعَ  
بالعلاقات الآمنة يجب أن نحاطِرَ ونفتحَ أنفسنا أمامَ مَنْ نتوسَّمُ فيهم قدرًا معقولًا من الحبِّ  
والنفهَم. عندما وجَّهتُ هذا السؤال إلى مجموعةٍ من الناس حول الصفاتِ التي تميِّزُ العلاقات  
الآمنة كانت الإجابات على النحو التالي:

- هي العلاقة التي أستطيعُ فيها أن أتحدَّثَ بما أحجَلُ منه وأبقى مقبولًا ومحترمًا.
- هي العلاقة التي أشعُرُ فيها بالقبول في أفضل حالاتي وفي أسوأها على حدِّ سواء.
- هي العلاقة التي أستطيعُ فيها أن أثقَ بأنَّ ما يُقالُ فيها هو غالبًا الصدقُ والصراحة.
- هي العلاقة التي أطمئنُ فيها إلى أنَّ ما سأقولُه لن يُستغلَّ ضدي في أيِّ وقتٍ من الأوقات.
- هي العلاقة التي لا أدفعُ فيها ثمنًا لكي تستمرَّ بالصورة نفسها من الحبِّ والقبول.
- هي العلاقة التي من الممكن أن أخطئُ فيها في حقِّ الطرف الآخر، فيُعَاتِبَنِي ثُمَّ يغفرُ لي.

هذا هو حجرُ الأساس لبِنَاية العمر، والخطوة الأولى من خطوات النموِّ السليم. وإذا لم  
يكنِ الأساسُ قد وُضِعَ جيّدًا، فإنَّه يمكنُنا أن نعودَ ونحقنَ الأساسَ بمزيدٍ من الأمان من خلال  
استغلالِ كلِّ فرصةٍ متاحةٍ لتقديمِ الحبِّ والقبول والحنان.



## نصائح ختامية

- لتّمية الشعور بالأمان والاستقرار يُفضّل في هذه المرحلة عدم تغيير مقدّمي الرعاية أكثر من اللازم.
- الرضاعة الطبيعيّة أفضل مرارًا كثيرةً من الرضاعة الصناعيّة؛ حيث تُرضع الأمّ مع حليها الحنان والأمان. إذا كانت الرضاعة الطبيعيّة متعذّرة، ينبغي للأمّ دائمًا أن تُرضع وليدها بنفسها، وتحتضنه وتنظر إلى عينيه في أثناء الرضاعة. يجب أن يكون التغيير في المرُضعين في أصيقي الحدود.
- إذا لم يُترك الطفل جائعًا أو مبتلًا لمُدّةٍ طويلة، يزدادُ شعوره بالأمان والثقة والهدوء، وهذا يظهر في استقرار شعوره بالجوع والنعاس ورتابته، إضافةً إلى انتظام إيقاعه الحيويّ بشكلٍ عامّ.
- من الخاطيء جدًّا وضع الطفل في أيّة حضانه أو ابتعاده عن أمّه خلال هذه السنة مهما كان السبب. لذا فإنّ على الأمّهات العاملات أن يتفرّغن لأطفالهنّ لمُدّةٍ أوّل سنتين ونصف من عمر الطفل. وإنّ تعذّر ذلك، فعلى الأقلّ خلال السنة الأولى. إنّ كسر هذه القاعدة يؤدّي لأن يكون الطفل خائفًا أو عصبياً، وهذا يؤثّر في شخصيّته عمومًا في ما بعد، ويعرّضه لاضطرابات نفسيّة وسلوكيّة كثيرة.
- كما سبقَ وأشرنا، يمكن استعادة الشعور بالأمان بالنسبة إلى الراشدين من خلال العلاقات الآمنة التي تُتيح لنا أن نعبر عن مخاوفنا وضعفنا، ونظّل مقبولين ومحترّمين.

## ١٤٤

يارب، أنت مصدر الأمان والحنان في كل الكون والجميع البشر.  
أتي إليك مثل طفلٍ رضيع. املاً قلبي بقبولك ومحبتك،  
وعلمني أن أقبل نفسي كما هي، وأقبل جميع الناس كما هم، وكما تقبلهم أنت.  
اجعل قلبي يفيض على أطفالٍ بالحب الذي تضعه أنت في قلبي،  
واملأني مجدداً حينما تفرغني متاعب الحياة وتحدياتها.

أمين







## الفصل ٢

# السنة الثانية ”الطعام والكيان“

هَمَّ الأبُّ بالقيام لِيَفْضَ المشاجرةَ التي نشَبَتْ ما بين ولدَيْه، فأسرَعَتْ زوجتهُ قائلةً: ”دعهما! لا تتدخَّلِ في الأمرِ الآن؛ فهذا ضارٌّ بنموِّ قدرتهما على إدارةِ نفسيهما (Not good for their autonomy)“.

لا أزالُ أذكرُ هذا المشهدَ من فيلمِ سينمائيٍّ أجنبيٍّ لا أذكرُ اسمَه. وعندما يستنَى لي أحياناً أن أكونَ موجوداً في صالةِ الطعامِ بفندقٍ من الفنادقِ السياحيَّةِ حيثُ يوجدُ المصريُّونَ والأجانبُ (الأوروبيُّونَ وغيرهم) ألاحظُ كيف يتعاملُ الغربيُّونَ مع أطفالهم في صالةِ الطعامِ، وأقارنُ ما بين طريقتهم وطريقةِ الأمَّهاتِ المصريَّاتِ (وربَّما العربيَّاتِ). في إحدى المرَّات، كان يجلسُ إلى إحدى طاولاتِ الأجانبِ طفلٌ لم يتعدَّ الثالثةَ من عمره يمسكُ الشوكَةَ ويأكلُ، بينما لوَّثَ فمَه وسقطَ الطعامُ على ملابسه، فكانت أمُّه بين الحين والآخر تمدُّ يدها ببطوطةٍ مبتلَّةٍ لَتَمسَحَ الطعامَ من على ملابسه. وعندما نظرتُ إلى طاولةٍ ”مصريَّةٍ“ مجاورةٍ، وجدتُ الأمَّ وقد وضعتُ طفلتها- التي ربَّما تجاوزَ عمرُها عمرَ الطفلِ الأجنبيِّ- على ”حضانها“ وأخذتُ تطعمُها بالمعلقةِ بينما البنتُ تبكي ولا تريدُ أن تأكلَ. عندئذٍ أيقنُتُ من أين يأتي الفرقُ بيننا وبينهم!

## الفطيم

المرحلة الثانية من مراحل النمو هي مرحلة الطفل الفطيم. وتمتد هذه المرحلة من فترة ما بعد الفطام (سنة ونصف) إلى سنّ الحضانة (ثلاث سنوات). تتميز هذه المرحلة بظفرة هائلة في النمو العضلي للطفل، إذ يستطيع الوقوف والمشي والانتقال من مكان إلى مكان تبعاً لإرادته الشخصية، فيتحوّل من "شيء" يتناقله الناس إلى "شخص" ينقل نفسه بنفسه. في هذه المرحلة أيضاً يصيرُ الطفل قادراً على التحكّم في التبوّل والتبرّز، ويكون قادراً على تعلّم بعض الكلمات للتعبير عن نفسه، كما أنه يُطعم نفسه بنفسه. كلُّ هذا يجعله يشعر بأنه كائنٌ مستقلٌ جسدياً، وقادرٌ على إدارة نفسه بنفسه. يحتاج الطفل في هذه المرحلة لأن يُمنَح حريّة التحرك واختبار قدرته الوليدة على إدارة نفسه، وفي الوقت نفسه، هو يحتاج إلى الروتين والثبات في التربية، فهذا يساعده على أن يَضَع حدوداً لرغبته الجامحة في الفردية والاستقلالية. إنَّ الطفل في هذه المرحلة يحتاج إلى التقويم دون توبيخ شديد؛ فالتوبيخ الشديد يعرّضه للشعور بالخزي والشك في نفسه.

## الإدارة الذاتية أم الخزي والشك

بحسب نظرية مارغرت مالر لتكوين الشخصية الفردية، فإنَّ الطفل يبدأ في هذه المرحلة يدرك بالتدريج أنه كائنٌ منفصلٌ عن أمّه، وهو يفعل ذلك من خلال الابتعاد عنها ثمَّ العودة إليها. خلال هذه "الرحلات" من الابتعاد والعودة، يختزنُ الطفل أمّه في وِعِيهِ الداخلي، حتّى يستطيع أن ينفصل عنها دون أن يشعر بالخوف. إنَّ للأم دوراً مهماً جداً

التحدي الذي يجب أن يواجهه الوالدان في هذه المرحلة هو أن يستوعبوا تمرده مذكرين أنه بهذا التمرد يؤكّد على فرديته واستقلاليته، وفي الوقت نفسه يضجّ الوالدان للطفل حدوداً للسلوك.

في هذه المرحلة، حيث يجب أن "تبارك" انفصاله عنها، وفي الوقت نفسه تكون متاحة وقريبةً كي ما يشعر بالأمان. والتحدّي الذي يجب أن يواجهه الوالدان في هذه المرحلة هو أن يستوعبا تمرّده مُدرّكين أنّه بهذا التمرد يؤكد على فرديته واستقلاليته، وفي الوقت نفسه يضع الوالدان للطفل حدود السلوك والكلام. إذا اجتازَ الطفل هذه المرحلة بسلام، فإنّه يشعر بكيانه المنفصل عن أمّه، وفي الوقت نفسه، يشعر بحبّه واحتياجه إليها وإلى الآخرين، ويشعر بالأمان في الحدود والقواعد ويطيعها بسهولة.

### كسر الإرادة أم تدريبها

كثيرٌ من الأهل ولا سيّما الأمّهات، لا يُدرّكون معنى هذا "التمرد" ويظنّونه تحدّيًا لهنّ. فإمّا يشعرن بأنّ كرامتهنّ الوالديّة تُهان، وإمّا يخفنّ على مستقبل الولد أو البنت حاسبين أنّه إذا كان الولد متمردًا هكذا في تلك السنّ الصغيرة، فكيف سيكون عندما يكبر؟ لا بدّ أنّه سيكون منحرفًا أو مجرمًا، فيعقدون العزم على "كسر شوكته" مبكرًا لكي يحموه من هذا المستقبل البغيض. إنّ هذه الطريقة في التفكير خطيرة؛ لأنّها تسيء فهم طبيعة التمرد في هذا العمر، فالطفل في هذا العمر لا يتحدّى والديه، بل هو لا يقوى على ذلك ولا يريد، فهما مصدر الأمان الأساسي بالنسبة إليه، ولا يمكن غالبًا أن يرغب في تحدّيهما. ومن جهة ثانية، يمكن القول إنّ هذا "التمرد" الجديد يكون شديدًا فقط لأنّه جديد. إنّ مثل مخالِب القطة الصغيرة الحادّة جدًّا لأنّها جديدة، لذا فإنّ فكرة أنّ تمرّده سيّزاد مع الوقت هي فكرة خاطئة. دون شكّ، سيّزاد تمرّده إنّ لم يُعلّمه أحدّ الحدود، ولكنّ هذا التعليم يجب أن يكون هادئًا حنونًا حتّى "تدرّب" إرادة الطفل بدلًا من القضاء عليها. أمّا "التدريب" المبالغ فيه، والذي يُقصد به "كسر شوكة إرادة الولد" فهو يؤدّي بالفعل إلى كسر الإرادة، ومن ثمّ كسر القدرة على التحكّم في الكيان المنفصل والإدارة الذاتيّة. إنّ إرادة الإنسان هي التي تمكّنه من أن يدير نفسه، لذا يجب أن نعطي أطفالنا قدرًا من الحرّيّة يكفي لنموّ الإرادة قبل أن نبدأ في تدريبها وتقليم فروعها. فمثلاً، يقولون إنّ الطفل ينبغي ألاّ يمارس

رَفَعَ الأثقال قبل عمرٍ معيّن، وإلّا صار قصيرَ القامة طوال عمره؛ لأنّ التدريب المبكر والمبالغ فيه يمكن أن يضع حدًا للتطور وسقفًا للنمو. للأسف، في ثقافتنا الشرقيّة، التي تدور حول الخوف من الخطأ أكثر من الرّغبة في النمو، يميل الآباء والأمّهات والمجتمع عمومًا - خوفًا من الخطأ - إلى استئصال ما يمكن أن يسبّب الخطأ. فلا يُستأصل فقط التمرد، بل يُستأصل أيضًا جزءٌ حيّ ومهمّ من الإرادة والكيان، تمامًا مثلما يُستأصل جزءٌ حيّ من جسد الأنثى في الختان المنتشر في أرجاء عديدةٍ من محيطنا العربيّ، وذلك أيضًا خوفًا على الأنثى من الخطأ.

يصف جون إلدردج<sup>2</sup> هذا الخلل في التربية، ولا سيّما تربية الأولاد فيقول:

”لقد لاحظتُ أنّ الكلمة التي كثيرًا ما نقولها للأولاد هي: «لا»،  
«لا تفعل ذلك». لا تتسلّق هذا. لا تكسر شيئًا. لا تكن عنيفًا. لا  
تكن مزعجًا. لا تتسبّب بالفوضى. لا تتخذ مخاطرًا مجنونة. غير أنّ  
التصميم الإلهي الذي وضعه الله في الأولاد لا يقول: «لا» بل «نعم».  
كن قويًا. كن حادًا. كن حماسيًا ومُفعمًا بالحياة!“

## الحرية والإبداع

كما ذكرتُ في بداية هذا الفصل أنّي عندما رأيتُ الفرق ما بين تربية الأمّهات الغربيات وتربية أمّهاتنا لأطفالهنّ أدركتُ الفرق بيننا وبينهم - كنتُ أقصدُ الفرق في القدرة على الخلق والإبداع. فنحن عادةً لا نبدع ولا نبتكر بل نستخدم إبداعات الآخرين. وأعتقدُ أنّ لهذا علاقةً مباشرةً بفقر الحرية الذي نعاني من جرّائه على نحوٍ متوطن، ويُضافُ إلى ذلك أنّ لدينا مقولاتٍ تستنكرُ التجديد وتستهجن الخلق والإبداع، فنقولُ مثلًا لمن يحاول أن يصنع شيئًا جديدًا: “العلك ستخترع؟” أو “عش كما عاش أهلك”، أو “رحم الله أبويك!” وغير ذلك من

2 J. Eldredge, *Wild at Heart. Discovering The Secret of A Man's Soul*, (Nashville: Thomas Nelson, 2001) p. 35.

العبارات التي تجعل التجديد في ثقافتنا مغامرةً محفوفةً بالمخاطر ومعرضةً للتهمك والسخرية، إن لم يكن أيضًا اتهام المرء بالكفر والفسوق.

عندما لا يحصل الطفل على القبول والحرية، فإن ضعف القدرة على الخلق والإبداع هو أقل إصابة قد يُصاب بها. أما الإصابة الأشد فهي الشعور بالخزي والخلج من الذات. ويختلف الخزي عن الذنب؛ فالذنب هو شعور الإنسان بأنه قد ارتكب خطأً، أما الخزي فهو أن يشعر الإنسان بأنه هو نفسه "خطأ". ويظل هذا الخزي مدفوناً في الإنسان ابتداءً من تلك المرحلة، ويتقوى في كل مرحلة تالية عندما لا يحصل الطفل على الحب والحرية على نحو متزن.

### الأسرة المؤسسة على الخزي (Shame-based family)

من ضمن التعبيرات التي يستخدمها تشارلز وايتفيلد<sup>3</sup> ليصف الأسرة المؤسسة على الخزي هي أنها أسرة تستخدم الكمال الأخلاقي الفوري أو التفوق الدراسي المستمر للبناء باعتبارهما وسيلة لإثبات النجاح وتحقيق الذات. ولأن الكمال الأخلاقي المطلق هو غاية لا تُبلغ، بل إن الاقتراب من هذه الغاية المطلقة هو أمر يتطلب وقتاً؛ ولأن التفوق الدراسي ليس من الطبيعي أن يكون مستمراً دائماً، فإن هذه الأسرة، في سبيل الوصول إلى هذه الأهداف المبالغ فيها، تضغط بشدة على الأبناء إلى درجة قد تصل إلى القهر والإساءة إلى هؤلاء الأبناء البنات، فيكبرون ليصيروا آباءً وأمّهات يشعرون بالخزي ويريدون تخفيف هذا الشعور من خلال تحقيق الكمال الأخلاقي التام، والتفوق المستمر في أبنائهم وبناتهم، وهكذا تستمر حلقة الخزي من جيل إلى جيل.

إنها أيضاً الأسرة التي عادةً ما يكون لديها سرٌّ، مثل مرضٍ أحد أفرادها، ولا سيّما المرض النفسي أو الإدمان أو الفشل الأخلاقي. قد يكون السرُّ أيضاً وجود عنفٍ أسريٍّ أو استغلالٍ جنسيٍّ أو طلاقٍ في الأسرة. يجعل هذا السرُّ الأسرة غير قادرة على التواصل الحرّ والتعبير عن المشاعر، وكذلك حتى لا ينفصح السرُّ.

3 C. L. Whitfield, M.D. *Healing the Child Within*. (Florida: HCI, 1987).

## الدفاعُ ضدَّ الخِزيِّ

إنَّنا نمارسُ دفاعاتٍ لاواعيةً  
مثل النرجسيَّة والرغبة في  
الشعور بالكمال لئلاَّ نعبرَ عن  
خِزينا أو نشعرَ به.

من السهل أن نعتزفَ بالشعور بالذنب، لكن ليس  
من السهل أن نعتزفَ بالشعور بالخِزيِّ والعار.  
لذلك نمارسُ دفاعاتٍ لاواعيةً مثل النرجسيَّة  
والرغبة في الشعور بالكمال لئلاَّ نعبرَ عن خِزينا،  
وحتى لا نشعرَ به. فيكون محتوى الرسالة التي

نحملها هو التالي: "أنا أخافُ أن أقولَ لك إنِّي أشعرُ بأنِّي سيئٌ لئلاَّ تظنَّ حقاً أنني سيئٌ، فأنا  
لا أحتملُ أن تراني على هذا النحو!" بالتأكيد نحن لا نعبرُ عن هذا الكلام بأفواهنا، وإنما نقوله  
من خلال التعبير عن مشاعر أخرى مثل الذنب أو الغضب أو الحزن أو الإحباط، أو من خلال  
التخفيف من شعورنا بالخِزيِّ من خلال النرجسيَّة والخيلاء أو لوم الآخرين أو الاستياء منهم،  
أو ربّما من خلال أفعالٍ أو أنشطةٍ نمارسها بصورةٍ قهريَّة ودون استمتاع أو سرور. ومن أهمِّ مظاهر  
الإحساس بالخِزيِّ هو مطالبةُ النفس والآخرين بالكمال، وهذه إساءةٌ نفسيَّة تتحوَّل بدورها إلى  
إساءةٍ رويَّةٍ عندما نتوهَّم أو نوهِّم الآخرين أن الله أيضاً يطالبنا بالكمال المطلق.

## ماذا نفعل الآن؟

ببساطةٍ شديدة لكي نُخرِجَ أطفالنا ومراهقيننا وأنفسنا أيضاً من دائرة الخِزيِّ، فإننا نحتاج إلى  
مجتمعٍ صحيٍّ من العلاقات يسمَحُ بالتعبير الحرِّ عن الآراء ويسمَحُ بالاختلاف مع السلطة، وفي  
الوقت نفسه يحترمُ هذه السلطة، ويحافظ على الحدود المرسومة، ويتحمَّلُ المسؤولية الشخصية.  
نحتاج إلى قوانين ثابتةٍ وواضحة يحترمها الكبيرُ قبل الصغير، ويتحمَّلُ عواقبَ كسرها الجميعُ  
على حدٍّ سواء. وفي الوقت نفسه الذي فيه نحافظ على القوانين ونحترمها تكونُ لدينا الحرِّيَّة  
لنناقشَ كلَّ شيءٍ ونُبدي رأينا في كلِّ شيءٍ.

لكي نكسرَ قيودَ الخِزيِّ فإننا نحتاجُ إلى القبول والحرِّيَّة. نحتاجُ لأنْ نخضعَ ونعتزفَ بالخطأ

ونصححه، ونشعر بأننا لا نزال مقبولين. نحتاج لأن نخرج من تحت الأتعة والأغطية ونحتمل أشعة شمس الحرّية وهي تُزيل من علينا أفتعة الكمال والنجسيّة، وتُذيب من على أجسادنا وشخصياتنا أدران الخوف والخزي وتعلّمنا الجرأة والجسارة بدلاً من الخوف والاختباء.



## نصائح ختامية

- يجبُ تعليمُ الأطفالِ حدودَ السلوكِ، لكنْ في إطارٍ من حرّيّة الاختيار. فمثلاً يمكنُ للأطفالِ أن يختاروا ما يريدون أكله شرطَ أن يكونَ نظيفاً وصحياً، ولا مانعَ من السماحِ ببعضِ الأكلِ غيرِ الصحّي من وقتٍ إلى آخر.
- يجبُ جعلُ المنزلِ مكاناً مهياً لِيُمارَسَ الأطفالُ فيه الاستكشافَ واستخدامَ طاقتهم الحركيّة، وذلك بتخزين الأشياء القابلة للكسر بعيداً عن الأطفال وعدم معاقبتهم عند كسرِ شيءٍ دون قصدٍ في أثناء لعبهم واستكشافهم.
- في الوقت نفسه الذي يُسمحُ فيه للأطفالِ بمساحةٍ حرّيّة، يجبُ وضعُ قوانينَ (قليلة وبسيطة) وتدريبهم على الخضوع لها، ومعاقبتهم عندما يكسرونها (يجبُ ألا يكونَ العقابُ مهيناً).
- ينبغي وضعُ قوانينِ لأوقاتِ تناولِ الطعامِ وأماكنه، لكنْ ينبغي ألا يُمنَعوا من إطعامِ أنفسهم، ويجبُ ألا يُجبروا على الأكلِ عندما لا تكون لديهم شهية.
- عندما لا يستطيعُ الأطفالُ في هذا العمر التحكّم في التبولِ أو التبرز، ينبغي ألا نشعرهم بالخزي، ولا أن نضربهم؛ لأنّ هذا يجعلُ شخصياتهم ميّالةً إلى الكمال والشعور بالذنب والحجل والارتباك عندما يكونون مع آخرين (Self-consciousness).





• يجب ألا يذهب الأطفال إلى الحضنة قبل عمر سنتين ونصف، كما ينبغي ألا يتجاوزوا سنَّ الثالثة دون الذهاب إلى الحضنة.

• في هذا العمر ينبغي بدايةً تدريب الأطفال على التعبير عن مشاعرهم بسؤالهم كيف يشعرون، وتعليمهم الكلمات الدالَّة على المشاعر، وستحسَّن استخدام الصور الدالَّة

على المشاعر. من المهم أيضاً أن يُعبِّر الوالدان عن مشاعرهما بطريقة مناسبة ومنضبطة أمام الأطفال ليكونوا قدوةً صالحةً تُتخذى.

## ١٤٤

يارب، يا مَنْ خَلَقْتَنِي حُرًّا وفَطَرْتَنِي عَلَى الحَرِيَّةِ  
وأعْطَيْتَنِي من جودك مَسَاحَةً لأكون.  
يا مَنْ أعْطَيْتَ آدَمَ وحوَاءَ جَنَّةَ مِثْرَامِيَّةِ الأَطْرَافِ  
من أشجارِ تَفِيضٍ بِالثَّمْرِ ولم تَمْنَعْ عَنْهُمَا إلا ثَمْرَةَ واحِدَةٍ.  
عَلَّمَنِي أنْ أحتفلَ بِالحَرِيَّةِ وأثبَتَ فِيهَا.  
عَلَّمَنِي أيضًا أنْ أتخلَّى عَنِ السَّيْطَرَةِ الشَّدِيدَةِ عَلَى أَطْفَالِي،  
فكَمَا أعْطَيْتَنِي مَسَاحَةً لأكون، عَلَّمَنِي أنْ أعْطِيَهُمْ مَسَاحَةً  
ليكونوا كَمَا أرْذَنَهُم أنْتِ، لا كَمَا أتصوِّرُ أنا بذهني المَحْدُودِ.

أَمِين

## السنة الثالثة

### ” الأمُّ والأبُّ والطفل ”

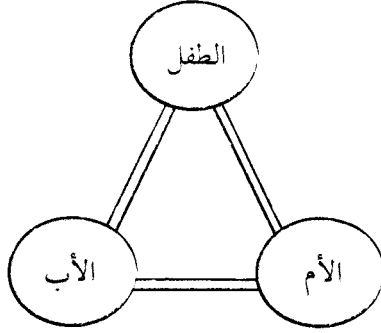
بعد أكثر من عشرين سنة، أعدتُ اكتشافَ أبي وعرفتُ أن جزءاً كبيراً من الصورة السلبيَّة التي تكوَّنت لديَّ عنه كان ناتجاً من الكلام السلبيِّ الذي كانت تقولهُ أمِّي بشأنه أمامي وأنا طفلٌ صغير. ما كنتُ أتصوِّرُ أن يأتيَ اليومُ الذي أستطيعُ فيه أن أحتضنَ أبي، ولكنِّي فعلتُ ذلك، ولكم كان ذلك شاقياً لي .

من مذكرات مثليِّ مُتَعافٍ

### العلاقة بين الأمِّ والأب

في سنِّ الثالثة، تبرزُ قضايا كثيرةٌ في التربية والحياة مثل تلك العلاقة المثلثة بين الأبِّ والأمِّ والطفل . وتظهرُ أيضاً شخصيَّاتُ الأطفال المختلفة وقضيَّة التربية والتأديب وتشكيل المعتقدات والثواب والعقاب وغيرها من القضايا المهمَّة في تربية الأطفال . مع الفطام وتناقص الاحتياج إلى الأمِّ بالتدرُّج؛ ومع النموِّ العضليِّ والحركة والرغبة في الاستقلال والإدارة الذاتِيَّة، يبدأ الطفل ينتبهُ إلى وجود الأبِّ وعلاقته بالأمِّ. أذكرُ مقطعاً في أحد الأفلام الكوميديَّة التي تضَعُ كلاماً

”مدبَلَجًا“ على ألسنة الأطفال الصغار وكأنهم كبار. وفي المقطع، يَصِفُ الطِفْلُ الصَغِيرُ الآبَاءَ قَائِلًا إِنَّهُمْ هُوَلاءِ الرِّجَالِ الكِبَارِ الذين يَقْضُونَ وَقْتًا كَثِيرًا مَعَ أُمَّهَاتِنَا.



هكذا عندما يبدأ الأطفال يَرَوْنَ أيَّ شخصٍ آخَرَ غيرِ الأمِّ، تبدأ تلك العلاقة المثلثة ما بين الأب والأم والطفل. وكما تؤثرُ علاقةُ الأب في الطفل من جهة، والأم في الطفل من جهةٍ أخرى، يتأثرُ الأطفالُ أيضًا بشدَّةٍ بالعلاقة التي تجمَعُ ما بين الأب والأمِّ معًا.

### العلاقة ما بين الأب والأم والإحساس بالأمان

عندما يستشعرُ الأطفالُ أنَّ الوالدين يحبَّان بعضهما بعضًا؛ وأنَّهما ملتزمانُ تجاه بعضهما بعضًا، فإنَّ الأطفالَ يشعرون بالأمان والضمانينة. يظنُّ الكثير من الآباء والأمهات أنه ما دامتْ خلفاتُهما باقيةً خلفَ الأبواب المغلقة فإنَّها لن تؤثرَ في الأطفال. هذا أمرٌ غيرُ حقيقي؛ فالأطفال يشعرون بالتوتر والجفاء حتَّى لو لم يُشاهدوا شجارًا ما بين الوالدين أو يسمِعوا تفاصيله. بل أكثر من ذلك، يشعرُ الأطفالُ بِضَعْفِ العلاقةِ الجنسيَّةِ ما بين

1 Look who's talking (1989) Directed by Amy Heckerling. With John Travolta. and Kirstie Alley.

الأبوين، وهو أمرٌ يؤثرُ فيهم. إنَّ الأُطفال يشعرون بالأمان عندما يرون تعبيراتٍ عن الحبِّ والحنان ما بين أبويهم. فإنَّ الابتساماتِ والأحضانَ وكلماتِ العَزَلِ والدعابةَ ما بين الزوجين هي أشبه ما تكون بالماء لتربة الأسرة التي ينمو فيها الأطفال. وإذا غابت مثل هذه الأمور، تكون أرضُ الأسرة جافَّةً مشقَّقة حتَّى إنَّ كانت تمتلك كلَّ العناصر الغذائية والأملاح المعدنية اللازمة.

لا أستطيعُ أن أنسى لقطَّةً شديدةَ الدلالة في فلمٍ "أسرار البنات"<sup>٢</sup>، وهو فلمٌ روائيٌّ مهمٌّ يلقي بكثيرٍ من الضوء على تأثير العلاقة ما بين الأب والأمِّ في تكوين شخصيات الأبناء والبنات وسلوكياتهم. كانت اللقطة للفتاة المراهقة بطة الفلم قبل أن تتورط في علاقة عاطفيَّة بابن الجيران، والتي تطوَّرت لاحقًا إلى علاقةٍ جنسيَّةٍ أدَّت إلى حملها. في ذلك الوقت التي بدأت تستشعرُ فيه الوحدة والخطر بسبب شجار والديها المتواصل، كانت ترغب في استعادة الشعور بالأمان من خلال تحسين العلاقة ما بين أبيها وأمها. وفي تلك اللقطة، كانت تجلس ما بين أبيها وأمها، وبحركة عفويَّة أمسكت بيد أحدهما ووضعتها على يد الآخر، وكأنَّها محاولةٌ سحريَّة تعملُ على رَأب الصدع الذي بينهما. إنَّ الجفافَ والجفاءَ بين الزوجين يجعلان الأطفال يشعرون بالتهديد؛ فالأسرة التي يعيشون فيها مبنيةٌ على العلاقة ما بين هذين "الكبيرين". وإنَّ ضعفَ هذه العلاقة واضطرابها لهُو نذيرٌ دائمٌ بانهيار "البيت" الذي يعيشون فيه وتعرضهم للمجهول. وعلى الرُغم من كلِّ شيء، فإنَّهم عادةً يحثون كلاً من الأب والأمِّ ويتعلَّقون بهما، ويشعرون بخوفٍ شديد من أن يصيروا مضطربين لأن يختاروا أحدهما في يومٍ من الأيام. تسكنُ كلُّ هذه الأفكار المخيفة عقولَ الأطفال عندما لا تكونُ العلاقة ما بين والديهم صحيَّةً ومستقرَّة. وهي أفكار تؤثِّرُ في نموِّهم العقليِّ والنفسيِّ والوجدانيِّ وربَّما الجسديِّ، مثلما تؤثِّرُ الحشائش الضارَّة في نموِّ المحاصيل. فحتَّى ينموَ أيُّ كائنٍ حيٍّ نموًّا سليماً، فهو يحتاجُ إلى قدرٍ كافٍ من الاستقرار.

٢ "أسرار البنات" بطولة محمود حميدة ودلان عبد العزيز، ومن إخراج مجدي أحمد علي سنة ٢٠٠١م.

## العلاقة ما بين الوالدين والإحساس بالقيمة

استكمالاً للحديث بشأن الأفلام السينمائية التي تصوّر تأثير العلاقة ما بين الوالدين في الأطفال، أتذكّر أيضاً مشهداً مهماً من فيلم درامي مؤثر بعنوان ”البحث عن السعادة“<sup>3</sup>، وهو مأخوذ عن قصة حقيقية لشاب أمريكي من أصل أفريقي، وقد كان

يميل الأطفال إلى التفسير الشخصي للأحداث، أي يظنون أنهم ضالعون بشكل أو بآخر فيما يحدث حولهم.

يعمل مندوب مبيعات لأحد الأجهزة الطبية. وحيث إنه لم يكن موفقاً في عمله، فقد غرق في الديون ولم يستطع تسديد أقساط منزله، فتركته زوجته وفي النهاية صار مشرداً هو وطفله البالغ من العمر نحو خمس سنوات. كان هذا المشهد ما بين الشاب وطفله الصغير وهما يمشيان معاً في الشارع بحثاً عن مأوى كما يفعلان كل ليلة. سأل الطفل أباه سؤالاً مفاجئاً: ”بابا، هل رحلت ماما بسببي؟“ إن هذا السؤال يكشف الطريقة التي يفكر بها الأطفال؛ فالأطفال منحصرين في أنفسهم- وهذا طبيعي- لأن وعيهم بشؤون الحياة وتعقيداتها لم يكتمل بعد، فلا يستطيعون إدراك أن هناك أسباباً متعدّدة ومتشابكة للأحداث، كما أنهم يميلون إلى التفسير الشخصي للأحداث، أي يظنون أنهم ضالعون بشكل أو بآخر فيما يحدث حولهم. وينح هذا التفكير السحري الأطفال أيضاً بعض التعلق بالأمل، فيقول الطفل في نفسه: ”إذا كنت أنا السبب في رحيل ماما، بسبب شقاوتي مثلاً، فأنا أستطيع أن أستعيدّها بأن أكون مؤدّباً“. وهذا يُعطي الطفل إحساساً سحرياً بالسيطرة على الموقف والقدرة على استعادة أمه!

أمّا ما فعله الأب في الفيلم السينمائي استجابةً لهذا السؤال فهو أنه أمسك بالولد ونظر إليه في عينيّه قائلاً: ”لا تفكّر بهذا الشكل أبداً. ماما رحلت بسبب ماما نفسها!“ هنا علم الأب ابنه درساً مهماً: لا أحد يتسبب بقرارات شخص آخر؛ فكل منا حرّ ومسؤول يتخذ قراراته بنفسه.

3 The Pursuit of Happiness, Will and Jaden Smith, Directed by Gabriele Muccino 2007.

مخلب القط<sup>٤</sup>

ويُفَاقِمُ هذه الطريقة في التفكير لدى الأطفال أن يُدخَلَ الآباءَ والأمهاتُ أطفالَهُم في صراعَتِهِم. ويحدُثُ هذا بطرقٍ متعدّدة، منها: أن يحاولَ كلُّ طرفٍ استِمالةَ الأطفالِ إلى جانبِهِ وتشويهَ صورةِ الطرفِ الآخرِ، أو أن يستخدِمَ الأطفالَ ليكونوا مثلَ مخلبِ قَطٍّ يضغطانَ بهِم على الطرفِ الآخرِ، أو أن يُدخَلَ الأبُ أو الأمُّ الأطفالَ ليكونوا شهودًا في صراعَتِهِمَا، أو لتوصيلِ رسائلٍ من طرفٍ إلى آخر. إنَّ كلَّ هذه الوسائلِ تقلبُ الأوضاعَ في الأسرة، وتجعلُ الأطفالَ الصغارَ - من الجنسينِ - يشعرونَ بأنَّهُم هم المسؤولون عن الكبار وليس العكس. وهكذا يستمدُّ الأطفالُ شعورَهُم بالقيمة من قدرتهم على حلِّ مشكلاتِ الأب والأمِّ وغالبًا ما يفشلون في ذلك، فينتابهم الشعور بالذنب وكأنَّ انفصالَ آبائِهِم وأمّهاتِهِم كان بسببِهِم. حتّى عندما ينجحون، فإنَّهُم يصيرون راشدين قبل الأوان، بل آباءَ وأمّهاتٍ مزيّفين. كثيرًا ما صادفتُ شابّاتٍ صغيراتٍ صرّنَ أمّهاتٍ في سنِّ الطفولة ليس فقط لإخوتهنَّ الأصغر سنًّا، بل أيضًا لأبائهنَّ وأمّهاتهنَّ. هذا الشعورُ المبكّرُ بالمسؤوليّة المفرطة يُعيقُ نموَّهُم وقدرتَهُم على الاستمتاع بالحياة، كما أنّهُنَّ يُكملنَ قصّةَ الاستشهاد هذه في زيجاتِهِنَّ، إذ يصرنَ أمّهاتٍ لأزواجهنَّ أيضًا، وهو ما يؤدي إلى علاقةٍ زوجيّةٍ مضطربة. وبالإضافة إلى ذلك، فهنَّ يورثنَ هذا النمطَ لأطفالهنَّ، ولا سيّما البناتِ وهكذا يستمرُّ هذا المرض من جيلٍ إلى آخر.

## النموذجُ الأوّل للعلاقات

من خلال العلاقة ما بين الوالدين، يتعلّمُ الأطفالُ الكثير عن طبيعَةِ العلاقات ما بين البشر. وما يتعلّمونه في هذه السنِّ المبكرة من خلال الانطباعات المباشرة والتقليد، يكونُ شديدَ الرُسوخ في أذهانِهِم، مثل اللغة الأمّ التي تتعلّمها بتلقائيّةٍ وتصيرُ طولَ العمر أقربَ اللغات

٤ تعبيرٌ دارجٌ المقصود به استخدام شخصٍ أو جماعةٍ للنيل من شخصٍ آخر، أو جماعةٍ أخرى.

إلينا. يتعلّم الأطفال من علاقة والديهم كيف يكونُ أحوارُ والكلامُ والاستماعُ والتحكّم في المشاعر، ويتعلّمون الغفرانَ والاحتمال، كما يتعلّمون أنّ البشرَ يمكنُ أن يختلفوا ويظلّوا ملتزمين تجاه بعضهم بعضاً، ومُنتمين إلى بعضهم بعضاً. لهذا السبب لستُ من أنصار الإخفاء التام لكلّ الخلافاتِ الزوجيّة، حتّى البسيطة منها، عن أعينِ الأطفال. فإنّ يُشاهدَ الأطفالُ أنّ الكبارَ يمكنُ أن يختلفوا ويتفقوا، وأن يدخلوا في صراعات ويحلّوها، فإنّهم يؤمنون بأنّ الخلافَ لا يعني بالضرورة انهيارَ العلاقات.

تؤثّرُ العلاقةُ ما بين الأب والأمّ أيضاً في مفهوم الأطفال عن العلاقة بالجنس الآخر. إنّنا نلتقي الجنس الآخرَ أوّل مرّة في الأسرة- الأب والأخ والأم والأخت. ودون أن ندرى، تضبّطُ العلاقة بالجنس الآخر في الأسرة إيقاعَ العلاقة بالجنس الآخر طوال الحياة، كما أنّها تطبعُ في وعينا "منظومات" ومعتقداتٍ محوريّةٍ راسخة عن الجنس الآخر.

- عندما لا يقترّبُ الأبُ من الأمّ إلّا لممارسة الجنس- وذلك أمام الأطفال الذين يستمعون كلّ ليلةٍ إلى شجارهم حول هذا الأمر- فإنّ الفتيات يكبرنَ وهنّ موقنات بأنّ الرجال لا يُردنَ من النساء إلّا الجنس، فيما يكبرُ الفتيان وهم لا يرون في المرأة إلى كونها "وعاءاً للجنس".

- عندما لا يحترمُ الرجلُ زوجته أمام أطفاله، يثبُّ أولاده فلا يحترمون أمهاتهم، وفي وقتٍ لاحقٍ زوجاتهم. والعكس بالعكس، فعندما لا تحترمُ الزوجة رجلها أمام بناتها، فإنّ هؤلاء البنات يرون في الزوج أنّه مجردُ "آلةٍ لجلب المال".

- عندما تشكو الأمّ لابنتها المراهقة من خيانة والدها، فإنّ المراهقة تشبُّ ولديها إيماناً بأنّ الرجال خائنون إلى أن يثبت العكس!

- عندما تكبرُ الطفلة بينما هي عرضةٌ لمشاهدِ ضربِ أبيها لأمها يومياً، فإنّها تعتقدُ أنّ من مهامّ الزوجة في البيت، أن تطبخَ وتنظّفَ وتغسلَ الملابس وتتلقّى الضرب من زوجها كلّ يوم!





وتؤثّر العلاقة ما بين الوالدين ليس فقط في مفهوم الجنس الآخر لدى الأطفال، بل أيضاً في مفهومهم عن مؤسسة الزواج بشكلٍ عام، وهي تؤدي إلى خوفٍ غير مبرّرٍ من الزواج والالتزام لدى الكثير من الشباب والفتيات. ذات مرّة

كنتُ مع أحد عملائي، والذي بلغ الأربعين من العمر ولم يكن متزوّجاً على الرُغم من رغبته في الزواج واستعداده له. طلبتُ من هذا العميل أن يرسم صورةً رمزيّةً لأسرته وهو طفل، فرسم الأب في جهة والأم في الجهة الأخرى، وكان أخوه الأكبر بجانب الأم وتخرج خطوطٌ متعرجةٌ ومتفرّقةٌ من أفواههم تعبيراً عن الصياح، بينما كان هو (الأخ الأصغر) واقفاً في المنتصف مُغمِضاً عينيه وواضعاً إصبعين في أذنيه محاولاً ألا يسمَع ما حوله من صراخ.

## العلاقة بالأم

بعد أن تناولنا العلاقة بين الوالدين وتأثيرها في الأطفال، نتناول الآن العلاقة الفردية لكلٍّ من الأب والأم بالأطفال. وسنبدأ بعلاقة الأطفال بالأم لأنها الأولى زمنياً.

تعدُّ العلاقة بالأم المصدرَ الأساسي للأمان كما أشرنا من قبل. وهي علاقة لا تبدأ فهي موجودة أصلاً؛ فالأم ليست "أخر" في حياة الإنسان، بل تبدأ تصير "أخر" في هذه المرحلة من العمر (السنوات الثلاثة الأولى)، وهذا ما يُسمّى الفطام النفسي. ويبدأ هذا الفطام النفسي مع الفطام الطبيعي من الرضاعة، لكنّه يتطلّب وقتاً أطول. وفي الحالات المثاليّة يجري هذا على نحوٍ تامٍّ في نهاية السنة الثالثة، لكنّه في الغالب يتأخّر وقد لا يتحقّق البتّة، أو يتحقّق بشكلٍ جزئي، فيصير هناك ضعفٌ في التّضح والإحساس بالهويّة المكتملة المستقلة، وقد يظلُّ ضوال العمر ويحتاج إلى علاج.

## علاقة البنت بأُمها:

إذا كانتِ الأمُّ مفتخرةً  
بأنوثتها وتهتمُّ بها، فإنها  
هي تورثُ ابنتها هذا الفخر  
والاحترامَ ذاته لأنوثتها  
والاهتمام بهذه الأنوثة.

بالإضافة إلى أهميّة العلاقة بالأُمّ في ما يتعلّق بقضيّة الأمان والقيمة، تكتسبُ العلاقة بالأُمّ بالنسبة إلى البنت بُعدًا آخر. فالأُمّ هي رمزُ الأنوثة في البيت. وإذا كانتِ الأمُّ مفتخرةً بأنوثتها وتهتمُّ بها، فإنها تورثُ ابنتها هذا الفخرَ والاحترامَ ذاته لأنوثتها والاهتمام بهذه الأنوثة. أمّا في حالة حدوث العكس، فإنّ

البنات ينشأنَ وهنّ يتعاملنَ مع أُنوثتهنَّ على نحوٍ غير طبيعيّ: إمّا بتجاهلها واحتقارها ومحاولة التشبُّه بالأولاد، ولا سيّما إذا صادفَ هذا تشجيعاً من الأمِّ والأب اللذين كانا يحملُمانَ بإنجابِ ولد، وإمّا أن تفرطَ البنتُ في إظهار أنوثتها بأشكالٍ مبالغ فيها من الملبس أو السلوك الإغوائي غير المتّزن، وذلك في ردِّ فعلها على عدم إيمانها العميق بأنوثتها. من ضمن الأخطأ المريضة التي صادفتها في حياتي العملية في علاقة الأمِّ بابنتها النماذج والديناميَّات التالية:

- الأمُّ التي تشوّه صورةَ الأبِ وصورةَ الذكور عموماً. وقد يجري ذلك من خلال انتقاداتها المستمرة للأب، أو من خلال مشاركة ابنتها بشكوكها في خيانة الأب للأُمّ مع نساءٍ أخريات. وكما أشرنا فإنّ هذا يؤسّس معتقداتٍ محوريّةً في أذهان البنات أنّ الرِّجال خائنون حتّى يثبت العكس، أو أنّ النساءَ مظلوماتٌ دائماً.

- هناك أيضاً نمطُ الأمِّ التي تدلّل الابنَ الذَّكَرَ (الأكبر أو الوحيد) وتفضّله وتركبه فوق رؤوس الجميع، ولا سيّما البنات، وذلك عندما يكونُ الأبُّ غائباً أو ضعيفاً. فترى البنتُ الناشئة صورةَ الذَّكَرِ إمّا أنّه سلبيّ ضعيفٌ (الأب)، وإمّا عنيفٌ متسلطٌ (الأخ الأكبر). بعض البنات، ولا سيّما من صاحباتِ الشخصياتِ القويّة، قد يكرهنَ الرِّجالَ ويتخذنَ موقفاً سلبياً منهم ومن الزواج ذاته، ومنهنَّ من تكونُ لديهنَّ ذكورةٌ نفسيّةٌ عالية، وعلاقةٌ ضعيفةٌ بالأُمّ، وربما يكننَّ قد تعرّضنَ لإساءة جنسيّة— كلُّ هذا قد يجعلهنَّ يكرهنَ الدَّورَ الأنثويّ في العلاقة ما بين الرجل والمرأة، وهذا قد يؤدي إلى نموّ الميول المثليّة لديهنّ.

• نطُ ثالثٌ في علاقة الأمِّ بابنتها، هو الأمُّ التي لم تنمُ نفسياً (هي نفسها) وتكاد تكون في عمر ابنتها نفسه وجدائياً، لذا نجدُها تغارُ من ابنتها وتتنافسُ معها في المظهر أو الإنجازات. تعجبتُ جدًّا عندما حكَّت لي إحدى عميلاتي - وقد بلغتِ الأربعين من العمر - كيف أن أمَّها التي تجاوزتِ الستين تتنافسُ معها. فبعد أن أعدتِ الوليمة معاً، وعندما أطرى كثيرٌ من الحضور على أحدِ الأطباق التي أعدتها البنت، كذبتِ الأمُّ وقالتُ إنَّ هذا الطبقَ من إعدادها هي!

• نطُ آخرٌ هو نطُ الأمِّ التي تتعاملُ مع ابنتها وكأنَّها "دميتها"، فتلبسُها أجملَ الثياب وتتغزلُ في جمالها وكأنَّها ملكة جمال الكون، فتصيبها بالخيلاء والنرجسيَّة، وهذا يؤثِّرُ بالتأكيد في حياتها وعلاقاتها وزواجها.

قد يكونُ القاسمُ المشتركُ الأعظم بين كلِّ هذه الأمَّهات هو عدمُ النضجِ الوجدانيِّ وضعفَ العلاقة بالزوج. إنَّ العلاقةَ العاطفيَّةَ والجنسيَّةَ المشبعةَ ما بين الزوجين هي من العناصرِ المهمَّةِ للنموِّ النفسيِّ للأطفال؛ لأنَّها أوَّلًا تساعدُ على تطويرِ العلاقة بين الأب والأمِّ، ومن ثمَّ الاستقرار في الأسرة، ولأنَّها أيضًا تجعلُ من العلاقة ما بين الأب والأمِّ هي الأساسيّة والأهمِّ، فيما العلاقة بين كلِّ من الأب والأمِّ وأحدِ الأطفالِ ثانويَّة، لذا تدفعُ الأطفالِ والمراهقين للتطور، وتجعلُهم قادرين (في وقت مناسب) على تكوينِ علاقةٍ مُشبعة بشريك الحياة، بمعنى ألاَّ يسمحَ الأبُّ لنفسه بأن يكونَ هو محلُّ التعلُّقِ العاطفيِّ لابنته، وكذا الأمُّ بالنسبة إلى ابنها؛ لأنَّ من شأنِ هذا إفسادَ العلاقة الزوجيَّة للأولاد والبنات، أو عدمِ حدوثها أصلاً.

### علاقةُ الولدِ بأمِّه:

إذا كان انفصالُ البنت عن أمِّها لتَحقيقِ كيانها المستقلَّ أمرًا مهمًّا، فانفصالُ الولد عن أمِّه هو أمرٌ أهمُّ كثيرًا لأنَّه الخطوةُ الأولى ليس فقط في تحقيقِ كيانه الفرديِّ المستقلَّ، بل أيضًا في تكوينِ

هُويته الجنسية بصفته ذكراً. فتكوين الهوية الذكورية يجب أن يبدأ برَفْضِ الأنوثة<sup>٥</sup> والانفصال عن الأم. من الأنماط المريضة في العلاقة بالأم، ذلك النمط الذي نطلق عليه في الثقافة الشعبية ”ابن أمه“، وهو الولد الذي لم يُفْطَم نفسياً عن أمه، لذا يصيرُ معتمداً عليها ويسمَح لها بالتدخل في كلِّ

من الأنماط المريضة أن  
”تتزوج“ الأم ابناً الأكبر نفسياً  
وتستبدله بأبيه، بحيث يصير  
الابن الأكبر هو مصدر السلطة  
في الأسرة.

تفاصيل حياته وقراراته حتى بعد أن يترك البيت ويتزوج. مثل هذا الولد يظل حتى عمر كبير يُصارعُ مع علاقةٍ بأمه تتراوح ما بين الغضب والثورة، ثم الشعور بالذنب والعودة وتقديم فروض الولاء والطاعة المبالغ فيها للأم. كثيرون في هذه الحال يخلطون ما بين تعاليم الدين التي توصي بإكرام الوالدين، والعلاقات الاعتمادية المريضة بالأم. عندما تحاول مثل هذه الأم مع أحد أولادها وتنجح في ذلك، فإنها تحوله إلى ”ابن أمه“، أي إلى رجلٍ مُنتقص الذكورة (وهذا الانتقال قد يصل إلى درجات عليا تؤدي إلى الميول المثلية). وعندما تحاول مع ولد آخر وتفشل، فإنها تحوله إلى رجلٍ ناقم على الإناث، فيمارس العنف ضدهم بدءاً من التحرش في الشارع، إلى ضرب الزوجات في البيوت. وقد تؤدي هذه النعمة من الإناث أيضاً إلى تطور الميول المثلية عندما تتوافر عوامل أخرى.

من الأنماط المريضة أن ”تتزوج“ الأم ابناً الأكبر نفسياً وتستبدله بأبيه، بحيث يصير الابن الأكبر هو مصدر السلطة في الأسرة، فيتسلط على الإخوة والأخوات، وتصير كلمته هي المسموعة في البيت كما أشرنا سابقاً في الحديث بشأن علاقة البنت بأمها. مثل هذا السلوك المريض من الأم يصنع طاغية في الأسرة، وكثيراً أيضاً ما يفشل هذا الطفل الطاغية في حياته العملية والأسرية في المستقبل.

٥ يظهر هذا في صورة رفض الأولاد الشديد أي شيء فيه ”شبهة“ أنوثة، ورفضهم أيضاً الحماية الزائدة والتدليل والتقبل من الأم بعد عمر معين وذلك لتوكيد ذكورتهم. ونلاحظ أن الأولاد يصرون على كل ما يجعلهم يبدون في صورة ”ذكورية“ أكثر من إصرار البنات على هويتهن الأنثوية؛ لأنهن يكن متأكدات منها أكثر، وهذا لأن تكوين الهوية الذكورية للولد أصعب من تكوين الهوية الأنثوية للأنثى. فكلنا نولد في رَجَمِ أنثى ونعيش سنواتنا الأولى ونحن جزء منها نفسياً- بعد أن كُنَّا جسدياً جزءاً منها.

## العلاقة بالأب

في الغالب، الأب الذي تربطه علاقة ضعيفة بابنه يكون هو الآخر ذا علاقة ضعيفة بأبيه، وهكذا تضعف العلاقة بالتدرج من جيل إلى جيل.

بالنسبة إلى علاقة الابن بأبيه، فهناك أزمة حقيقية في الذكورة في العالم الحديث، لأن هناك أزمة حقيقية في العلاقة بالأب، وهي أزمة كثيراً ما أراها متوارثة من جيل إلى جيل (Trans-generational). ففني الغالب، الأب الذي تربطه علاقة ضعيفة بابنه يكون هو الآخر ذا علاقة ضعيفة بأبيه، وهكذا تضعف العلاقة بالتدرج من جيل إلى جيل.

ويزداد هذا في رأيي في الثقافة الحديثة التي جعلت الناس يعيشون في وحدات سكنية صغيرة منعزلة، فيكون الأب هو الرمز الذكري الوحيد الذي يراه الولد. كان البشر في السابق يعيشون معيشة جماعية على شكل أسرٍ ممتدة وقبائل يصادف فيها الولد الصغير رموزاً متعددة للذكورة:

### الأب السلبي الضعيف:

يمكن لهذا الأب قوي الذكورة والميال إلى السلبية وعدم المواجهة أن يحتقر الولد الرقيق، الذي هو في واقع الأمر "طالع له" أي يشبهه ذلك لكونه يحتقر هذا في نفسه. قد يكون الأب في هذه الحال قد كَوَّن حالة من الدفاع ضد ذكورته الضعيفة، وذلك بالمبالغة في العنف لا سيما ضد هذا الولد على الرغم من تعامله العادي مع باقي إخوته.

### الأب غير المبالي:

يجب أن يكون الأب قوياً وجذاباً للطفل كي يترك الحنان والأمان التام الذي يوفره الانتصاق بالأم. يمكن للطفل أن يتوحد مع الأب الدافع الحنون، أو حتى الأب الذي يتميز ببعض العنف النابع من الحب والاهتمام (بطريقة التوحد مع المعتدي). أمّا الأصعب في التوحد معه فهو الأب غير المتاح وغير المبالي، لذلك فهذا النوع من الآباء هو الأخطر بالنسبة إلى تكوين الهوية الذكورية لدى

## الأب الغائب:

يتكرّر نط الأب الغائب كثيرًا في أَسْرِنَا سواءً بسبب الطلاق أم السفر للعمل في ”الدول العربية“، أم الأب الضابط الذي يأتي فقط وقت إجازاته من الجيش. أحيانًا يكون الأب الغائب أبا يعيش في المنزل نفسه، لكنّه ينزلُ إلى عمله في الصباح قبل أن يستيقظَ الولد، ويعودُ بعد أن ينامَ، وهكذا كلَّ يوم. وفي يوم الإجازة يكون متعبًا أو مستغرِقًا في قراءة الصُّحف أو مشاهدة التلفاز، أو أنّه يجلسُ في أحد المقاهي برفقة أصدقائه وهو مُقتنعٌ أنّ الأولادَ هم مسؤوليّة الأمّ، وليس عليه إلا أن يوفرَ لهم المأكَل والمشرب والملبس. ربّما يخجُّ الأب الضعيفُ ضعفه النفسيّ وعدم قدرته على المواجهة بانغماسه في العمل، فيصير ”مش فاضي“ بدلًا من أن يكون ”مش قادر“.

## الأب الغامض:

كثيرًا ما يصفُ الشبابُ والرجالُ آبَاءَهم بالغموض. أبي لم يكن يتكلّم، ولم يكن يعبرُ عن مشاعره، ولا عن رضاه أو حتّى غضبه. لم يكن ضعيفًا، لكنّه كان غامضًا. قال لي أحدُ العملاء ذات مرّة: ”عندما توفّي أبي، لم أحزن ولم أفرح، ولم أشعر بشيء وكأنيّ أحضرُ جنازة شخص لا أعرفه“.

## أمّا الآن فننتقل إلى علاقة البنت بأبيها:

بكل تأكيد، علاقةُ البنت بأبيها هي أقلُّ أهميّة من علاقتها بأمّها، لكنّها أيضًا مهمّة. فالأب بالنسبة إلى البنت يشكّلُ أنموذجًا للذكورة، وربّما يكونُ الأنموذج الوحيد لفترةٍ طويلة، ولا سيّما في ثقافتنا التي تصعُق قيودًا على حركة البنت خارج الأسرة. يعتمدُ كثيرًا قبول البنت لنوعها (جنسها بصفتها أنثى) وثقتها بنفسها على الكلمات ورسائل الموافقة والفخر التي تحصلُ عليها من أبيها. في مجتمع يمجّدُ الذكورة ويتعاملُ مع الأنوثة باحتقار، أو على الأقلّ، بحذرٍ وخوف، فإنّ من النادر أن تنشأ امرأة فخورةٌ بكونها أنثى. في الواقع، عندما أصادفُ نساءً يتمتّعنَ بقوةٍ شخصيّةٍ حقيقيّةٍ أصيلةٍ (غير عنيفة)، فكثيرًا ما أكتشفُ أنّ ذلك يعودُ إلى علاقةٍ

حُبِّ واحترامٍ وافتخارٍ كانت لها بأبيها، وأكتشفُ أيضًا أنَّ الأبَ لم يُكنُ يفرِّقُ قطُّ بينها وبين إخوتها الذُّكور.

- الأبُ الذي لا يفرقُ البتَّةَ ما بين البنتِ والولدِ، ينقلُ إلى البنتِ احترامًا. ويجبُ على الآباءِ أن ينتبهوا لذلك بشكلٍ خاصٍّ في ثقافتنا التي تنقلُ إلى الإناثِ دائمًا رسالةً أنَّهنَّ أقلُّ. لذا فعلى الأبِ - الذي هو رمزُ الذُّكورةِ في الأسرةِ - أن يعملَ جاهدًا على نفيِ هذه الرسالة. وللأسف، فإنَّ الأمَّ التي عاشتْ في إطارِ ثقافةٍ أُسريَّةٍ تفضِّلُ الولدَ على البنتِ، ربَّما تكون هي التي تضطهدُ البنتِ، لذا يكونُ على الأبِ أن يحميَ ابنته من هذا التفضيلِ.
- الأبُ الذي يقضي وقتًا طويلًا يتكلَّمُ فيه مع ابنته المراهقةِ في أمورِ الحياة والعلم والفنِّ والسياسة والأمرِ الروحيَّةِ (وليس فقط أمورِها الخاصَّة) ينقلُ إلى ابنته احترامًا، ولا سيَّما إذا خصَّص لها وقتًا للخروجِ معًا بأن يدعُوها إلى تناولِ وجبةٍ معًا وحدهما.
- والأبُ الذي يُثني على جمالِ ابنته ومظهرها ولا ينتقدها في هذا المجال، يرفعُ من روحها المعنويَّةِ ويؤكدُ على أنوثتها، وأنها يمكنُ أن تنالَ إعجابَ الرِّجالِ. غير أنَّ الصورةَ ليستْ رديَّةً دائمًا؛ فهناك أنماطٌ مريضةٌ في علاقةِ الأبِ بابنته تتراوحُ أيضًا من الاحتقارِ والتجاهلِ، أو المبالغةِ في التَّدليلِ والإفسادِ، إلى إدخالها في مشكلاته الزوجيَّةِ مع أمِّها، أو إدخالها في منافسةٍ مع أمِّها بطريقةٍ قد تجعلُها تنحسرُ علاقتها بأمِّها. وكما تفعلُ الأمُّ، قد يتزوَّجُ الأبُ ابنته (نفسياً) كذلك، فيمنعُ زواجها بطريقةٍ: "لا يوجدُ أحدٌ كفاءٌ لابنتي!" وقد يحدثُ العكسُ أيضًا عندما ترفضُ الفتاةُ كلَّ مَنْ يتقدَّمون إليها؛ لأنَّ "لا أحدَ فيهم مثلُ أبي!"



## نصائح ختامية

- أوّل بناءٍ في حياة الأبناء والبنات هو بناءُ العلاقة الزوجيّة ما بين الأبوين، وصيانة هذه العلاقة وإصلاحها أوّلاً بأوّل.
- يجبُ إخراج الأطفال تمامًا من خلافات الوالدين؛ لأنّ خلافاتهما- في حدّ ذاتها ودون أن يدخَلَ الأطفال فيها- هي عبءٌ عليهم، فكم باخريّ إذا أدخَلَ الأولادُ فيها.
- للعلاقة بالأمّ أهميّةٌ قصوى في شعور الأطفال بالأمان. وللاب أيضاً أهميّةٌ قصوى في شعورهم بالقيمة والكيان. لذا يجب على الآباء والأمّهات مراعاة ذلك.
- علاقة البنت بأُمّها هي مصدرُ توكيد أُنوثتها، وعلاقة الولد بأبيه هي مصدرُ توكيد ذكوريته. لذا يجب على الوالدين مراعاة ذلك.
- تقدّمُ العلاقة الزوجيّة ما بين الوالدين أمّودجاً أمام الأبناء عن العلاقة الزوجيّة. وعن العلاقة ما بين الجنسين والاحترام المتبادل بينهما، بل إنّها تقدّمُ أيضاً أمّودجاً عن العلاقات الإنسانيّة عموماً لكونها أوّل علاقة يشاهدونها. الأطفال يتعلّمون من خلال هذه العلاقة القبول والتسامح والعطاء والتضحية والقدرة على مواجهة الصعاب وحلّ النزاعات.



## دعاء

يا رب، يا مَنْ ائْتَمَنْتَنِي لِأَكُونَ أُمَّ (أَبًا)،  
عَلِّمْنِي أَنْ أَحِبَّ لِأَنْ أَمْتَلِكَ،  
أَنْ أُعْطِيَ أَوْلَادِي لِأَنْ أَخَذَ مِنْهُمْ،  
أَنْ أُرْعَى لِأَنْ أُسَيِّطِرَ،  
أَنْ أَعْلَمَ لِأَنْ أَلُومَ،  
أَنْ أُصَحِّحَ لِأَنْ أُحْتَقِرَ.  
أَنْ أُصَاحِبَ لِأَنْ أُصَادِرَ.  
عَلِّمْنِي أَنْ أُرْعَى الْأَمَانَةَ عَالِمًا أَنْ أَوْلَادِي  
لَيْسُوا لِي، فَهَمْ مِنْكَ وَلَكَ.  
أَمِينَ



## من السنة الثالثة إلى الخامسة ”سن الحضانة“

لا أستطيع أن أنسى نظرات الإحباط على وجه طفلي الصغير عندما ذهبت لأخذه من تمرين كرة القدم. لقد ذهبتُ به إلى مكانِ التَّدريب وانصرفتُ أنا إلى مكانٍ آخر في النادي لأجلس وأطبِّع على حاسوبِي الشخصيِّ. كان ابني سعيداً ومُتَمِنِي النفسَ بأنِّي سأشاهده وأتابعه في أثناء التدريب. عندما ذهبتُ لكي أخذه لم ينظرُ في وجهي ولم يتكلَّم معي طوال الطريق. وبعد بُرهة بدأ يعبِّر لي عن إحباطه المشوب ببعض الغضب. شعرتُ بالكثير من الذَّنْب وبعيَض من الرضا أيضاً لأنَّه استطاعَ أن يُعبِّر عن إحباطه. بالتَّأكيد، اعتذرتُ وفي التدريب التالي استمتعتنا كلينا بالتَّدريب، حيث كنتُ أنا على المدرِّجات أتابعه وهو يلعب. كم كان شاقياً لكلينا من الموقف السابق! في كلِّ مرَّة كان يلعبُ كرةً جميلةً أو يحرزُ هدفاً، كان يتطلَّعُ إلى المدرِّجات بعينين باحثتين عني ليتأكَّد من أنَّي قد رأيتُه، وسرعان ما تُعانقُ ابتسامَةٌ إعجابي وتشجيعي ابتسامته الواثقة المتواضعة.

المرحلةُ الثالثة هي مرحلة الحضانة، أي ما قبل المدرسة (Preschool)، وهي من سنِّ الثالثة إلى الخامسة. في هذه المرحلة، تتطوَّر قدراتٌ جديدةٌ لدى الطفل أهمُّها القدرةُ على فهمِ المشاعر والأفكار واللغة، إضافةً إلى قدرته على التخيل، لذلك يستطيعُ الطفلُ إقامةَ علاقاتٍ والحفاظ عليها. في المرحلة السابقة، كان من الممكن أن يتحرَّكَ الطفلُ حركاتٍ غيرٍ منضبطة، أمَّا الآن

فيسْتَطِيعُ القيام بحركات منضبطة ومقصودة. غير أنَّ الطفل قد يكون عنيفاً ومُندفعاً. يكون الأطفال في هذه المرحلة متشوّقين إلى القيام بأمرٍ بأنفسهم، وإلى تحمُّل المسؤولية وتلقّي الإعجاب والتشجيع الذي يؤسّس فيهم ثقةً بالنفس سيستندون إلى جميعها طوال حياتهم القادمة.

في بداية هذه المرحلة، أو ربّما حتّى منتصفها، من المفترض أن يكتمل التحكّم في التبول والتبرز. والتعنيف والتأنيب الشديد بشأن هذا الأمر هما من الأسباب الرئيسيّة للشعور بالخزي والقذارة والرغبة المحمومة في الكمال بكلّ أنواعه.

## التأديب والتأنيب

في أثناء هذه المرحلة يتكوّن لدى الطفل الضمير والشعورُ بالصواب والخطأ، ومن ثمّ الشعور بالذنب. قد يكون الشعور بالذنب أمرًا إيجابيًا إذا كان يدفعنا للتعامل مع أخطائنا وعيوبنا والاعتذار عن إساءتنا في حقّ الآخرين. وهنا يمكنُ أن نسمّيهِ الذنبُ

الصحّيّ أو الإيجابي. وهذا الذنبُ الصحّيّ ينتهي تمامًا إذا اعترفَ المخطئُ بغلظه واعتذرَ عنه. أمّا إذا استمرّ الذنبُ ولم يزلْ حتّى بعد الاعتراف بالخطأ وتصحيحه مثل البقعة التي تستعصي على كلّ مساحيق الغسيل، فهو عندئذٍ ذنبٌ مرّضيّ.

يحتاجُ الطفل في هذه المرحلة لأن يراه الوالدان ويشجّعاه على ما يفعله من أنشطة وما يتقنه من مهارات، كما أنّه يحتاجُ لأن يُسمح له بتحمُّل مسؤولية القيام بأمرٍ معيّنة بالكامل دون تدخلٍ من الأهل إلّا إذا طلبَ الطفلُ المساعدة. ويحتاجُ الطفل أيضًا إلى التأديب والتدريب الصحّي بمعنى الثواب والعقاب وتحمل المسؤولية دون تأنيب أو إهانة. ويمكنُ للوم والتأنيب الشديدين أن يسبّبا له ميلاً شديداً إلى الشعور بالذنب. في الوقت نفسه، يجعلُ غيابَ التأديب الطفلَ غيرَ قادرٍ على التحكّم في نزعاته، لذا يجبُ على الوالدين التفريق جيّداً ما بين التأنيب والتأديب.

## إحنا وولاد مؤدّبين!

المبادرة تحمل دائماً احتمال الصواب والخطأ. لذلك فإن كان الإنسان يخشى الخطأ بصورةٍ مبالغ فيها؛ ويشعر بالذنب الشديد عند أيّ خطأ، فإنه يخشى المبادرة والقيام بأمرٍ جديد قد يحتمل الخطأ. يتجلى فقدان روح المبادرة في أشكالٍ عديدة، منها ما يظهر في مجال العمل أو في مجال الصداقات والعلاقات الحميمة، كالخوف من تغيير العمل أو القيام بمشاريعٍ جديدةٍ أو الإقدام على الزواج، وقد يظهر أيضاً في عدم التعبير عن الآراء خوفاً من رُفض الآخرين.

عندما يُسمح للطفل بأن يكون حراً مبادراً، فإنه يشبُّ قادراً على الإبداع والاختراع. فالإبداع والاختراع لا يأتيان إلا من نفوسٍ حرةٍ قادرةٍ على هدم القديم لبناء الجديد. أتذكّر رسماً كاريكاتورياً مبدعاً للرّسام المفكّر حلمي التّوني في مساحته اليوميّة "مناظر" في صحيفة الأهرام القاهريّة منذ نحو سنة أو أكثر. وقد رسم فيه طفلاً وطفلةً مصريّين مذعورين يقولان لشخصٍ راشد: "يا أنكل! إحنا وولاد مؤدّبين عمرنا ما اخترعنا طيارةً أو كومبيوتراً... إحنا أولاد مؤدّبين!" كم كان هذا "المنظر" المصريّ والعربيّ مُعبّراً عن حقيقةٍ تراجمديّةٍ في مجتمعاتنا. فنحن في سبيل ما نحسب أنه "الأدب" نقتلُ حرّيّة الأطفال وفرديتهم، ونعقمُ فيهم "جرثومة" المبادرة والتغيير ليصيروا "مؤدّبين" و"متديّنين" يستخدمون إبداعات الآخرين دون أن يكونوا هم مبدعين أو مُغيّرين. لا يفكّرون ولا يحتارون ولا يقلقون ولا يغيّرون ولا يحزنون، ولا حتّى يفرحون!

## الطّباع والسّمات (Temperaments and Characters)

الطّبع (Temperament) هو الصفات الشخصية التي نولد بها. يولّد الأطفال بهذه الطّباع مهما كانت البيئة التي يولدون فيها، وهي مثل لون شعورهم وعيونهم وبشرتهم. توجد

١ تحت عنوان "قليلاً من الأمانة مع الناس" وُضِع الكاتب الصحفي سليمان جودة الحقائق المقلبة التالية أمام قراء صحيفة "المصريّ اليوم" في عددها ٢٠١٥ بتاريخ ١٩/١٢/٢٠٠٩م. فقال: إن تقرير منظمة الملكيّة الفكرية العالميّة عن سنة ٢٠٠٨م برصد ٣٦٧ اختراعاً مسجلاً لدولة مثل تركيا، في مقابل ١٧٣ اختراعاً للدول العربيّة مجتمعة! وإن الدولة العربيّة تخصصّ ٦ مليار دولار سنويّاً لنبحث العلمي، في مقابل ١,٥ مليار دولار تخصصّها الدول العربيّة مجتمعة!

أيضاً تأثيرات أخرى في مخّ الطفل (ومن ثمّ في شخصيته) قبل الولادة، وهي التأثيرات التي تحدث من خلال دم الأمّ الذي يدخل الجنين طوال فترة وجوده في الرحم، لذلك تؤثر الاضطرابات الهرمونيّة والنفسية والموادّ التي تتعاطاها الأمّ، من أدوية أو مخدرات أو منبهات، في تكوين المخّ، ومن ثمّ تؤدي إلى تغييراتٍ شبه ثابتة. على الرّغم من كون هذه التأثيرات تأثيرات بيئية، فإنّها تكاد تكون وراثية غير قابلة للتغيير؛ لأنّ هذه البيئة هي البيئة الأولى لتكوين الجنين.

يمكننا أيضاً أن نقول إنّ الجينات الوراثية نفسها هي أيضاً تأثير للبيئة، ولكنها تأثير لبيئات تكررّت جيلاً بعد جيل لمئات السنين، وربما آلاف السنين، حتّى إنّها- من فرط التكرار- كتبت في الجينات الوراثية في الخلايا، ممّا دعا

الأمراض الوراثية ليست ابتلاء من الله، بل هي نتائج لبيئة ملوثة مادياً وروحياً عبر أجيالٍ سحيقة.

علماء الوراثة إلى البوح بمقولة شهيرة في علم الوراثة هي: ”إنّ جينات اليوم هي بيئات الأجداد وسلوكياتهم“، لذلك لا يمكننا أن نقول إنّ الأمراض الوراثية هي ابتلاء من الله، بل هي نتائج لبيئة ملوثة مادياً وروحياً عبر أجيالٍ سحيقة.<sup>٢</sup> وقد لا نعرف كيف نشأ كلّ مريض بالتّحديد، لكننا إذا قلنا إنّ الأمراض ناتجة من ابتعاد الإنسان عن الله وأنماط حياته الخاطئة المتوارثة جيلاً بعد جيل، فإنّ هذا الكلام (اللاهوتي) ليس بعيداً كثيراً عن علم الوراثة.

أمّا العامل الرئيسيّ الثاني الذي يؤثر في شخصيات الأطفال فهو عامل التربية. التربية ليست فقط التعليم والتدريب والثواب والعقاب، بل هي العلاقات الحميمة بالوالدين والأسرة المباشرة والمجتمع خلال سنوات الطفولة والمراهقة. أيضاً ليست

٢ لعلّ السلوكيات الخاطئة المتكررة بالتّحديد تكون مرتبطة بالأمراض النفسية المتوارثة، وكأنّ توارث الخوف والحزني والذنب والتمرد عبر السنين قد أدى إلى ميلٍ وراثيٍّ عندنا كلنا، وإن بدرجاتٍ متفاوتة، إلى القلق والاكتئاب والإدمان وغيرها من الأمراض والاضطرابات النفسية والسلوكية.

التربية ليست فقط التعليم والتدريب والثواب والعقاب، بل هي العلاقات الحميمة والأنماط السلوكية التي تتكرر أمام الأطفال وتُسكَلُ رِدودُ فعلهم المباشرة.

التربية مجردة التعليم والتدريب بل هي الأنماط السلوكية التي تتكرر أمام الأطفال ويقلدونها، وتصير في داخلهم برامج تلقائية وتُسكَلُ رِدودُ فعلهم المباشرة. كل هذه تؤثر أيضًا في تكوين شخصية الإنسان التي يكتمل تطورها بعد الولادة وحتى سن الثامنة عشرة. إنَّ هذا الجزء المتغيّر والمعتمد على التربية هو ما يُسمّى سمات الشخصية (Character traits).

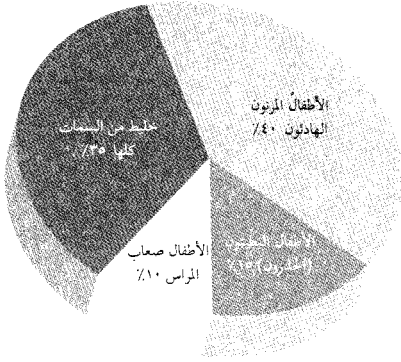
### اللهم أعطني السكينة لأقبل نفسي وأولادي

إننا نحتاج إلى السكينة والهدوء لكي نقبل، في أنفسنا وفي أولادنا، الطباع التي لا يمكن تغييرها. أما السمات التي يمكن تغييرها، فنحن نحتاج إلى شجاعة المواجهة وجهد العمل المثابر لتغييرها. نحتاج أيضًا إلى الحكمة والبصيرة لكي نتعرف شخصياتنا بعمق وندرك من أين جاءت الأنماط المتكررة التي نعيشها فكريًا ووجدانيًا وسلوكيًا. نحتاج لأن نعرف ما يلي: ما المكتوب بيولوجيًا في جيناتنا الوراثية؟ فهذا لا نستطيع تغييره. وما البرامج السلوكية التي جرى "تنزيلها"؟ فهذه نستطيع حذفها وتنزيل غيرها. وبلغة الكمبيوتر، نحن نحتاج إلى الحكمة لنعرف الفرق بين ما هو "Software" وما هو "Hardware". وأحيانًا يكون الأمر صعبًا جدًا؛ فهناك برامج "Software" جرى تنزيلها مبكرًا جدًا حتى إنه قد يختلط علينا الأمر ونظن أنها جاءت إلينا مكتوبة بشكل بيولوجي في خلايانا، أي أنها "Hardware"، وهذا قد يدفعنا لأن ندعو دعاء السكينة المشهور:

"اللهم أعطني السكينة لكي أقبل الأمور التي لا أستطيع أن أغيرها،  
والشجاعة لكي أغير الأمور التي أستطيع أن أغيرها. والحكمة لكي أعرف  
الفرق بينهما".

## الطباع

في إحدى الدراسات المهمة<sup>3</sup>، حُدِّدَتِ الطَّبَاعُ بناءً على تشكيلةٍ من تسعة محدداتٍ وهي:



١. مستوى النشاط والحركة (نشط-هادئ).
٢. الإيقاع (منتظم-متغير).
٣. الاقتراب والابتعاد (اجتماعي-منعزل).
٤. القدرة على التكيف (جامد-مرن).
٥. شدة ردِّ الفعل (شديد-هادئ).
٦. المزاج العام (اكتئابي-انبساطي).
٧. الصبر والمثابرة (مُثابِر-سريع الملل).
٨. القدرة على الانتباه (لوقتٍ طويل-لوقتٍ قصير).
٩. القابلية للتشتيت (كبيرة-قليلة).

أشارت نتائج الدراسة إلى أن الأطفال عادةً ما يقعون في واحدةٍ من المجموعات التالية:

١. الأطفال المرنون الهادئون (٤٠٪):

ويتميز هؤلاء بمستوى نشاطٍ يتراوح ما بين المتوسط إلى الهادئ، ويميل إيقاعهم إلى الانتظام، وهم يمتلكون قدرةً كبيرةً على الاقتراب من الآخرين والتكيف مع الأوضاع المتغيرة، وهم ذوو ردِّ فعلٍ هادئ غير منفعل. مزاجهم العام يميل إلى الإيجابية، وهم قادرون أكثر من غيرهم على المثابرة والتركيز.

٢. الأطفال صعب المراس (١٠٪):

لدى هؤلاء مستوى نشاطٍ مرتفع، مع إيقاع سريع ومضطرب. يُظهر هؤلاء الأطفال ميلاً إلى التهور من الآخرين، وحساسيةً كبيرةً تعرّضهم أكثر من غيرهم للجروح النفسية،

3 Stella Chess, Alexander Thomas, *Temperament: Theory and Practice*. (Brunner: New York, Brunner/Mazel, 1996).



فَيَشْعُرُونَ بِالْأَلَمِ الشَّدِيدِ وَالْجَرْحِ مِنْ أَفْعَالٍ وَكَلِمَاتٍ غَالِبًا مَا لَا تَجْرَحُ الْأَطْفَالَ الْهَادِثِينَ الْمُرِينِ. لَا يَسْتَطِيعُ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالَ التَّكْيِيفَ بِسُرْعَةٍ مَعَ تَغْيِيرَاتِ الْبِيئَةِ وَالْأَشْخَاصِ، لِذَلِكَ فَهَمُّ يَنْفِرُونَ وَمَزَاجُهُمُ الْعَامُّ يَمِيلُ إِلَى السَّلْبِيَّةِ، كَمَا أَنَّهُمْ سَرِيعُو النَّشْطِ وَالْمَلَلِ وَقَلِيلُو الصَّبْرِ وَالْمَثَابَةِ.

٣. الأطفالُ البَطِيئُونَ أو الحذرون (١٥٪):

هم الأطفالُ الذين يميلون إلى الكسل والتذمُّ ووردود الفعل السلبِيَّةِ، لكنَّهُم يَخْتَلِفُونَ عَنِ الْأَطْفَالِ صِعَابِ الْمِرَاسِ فِي أَنَّ رَدُودَ أَفْعَالِهِمْ تَتَحَوَّلُ مَعَ الْوَقْتِ نَحْوَ الْإِيجَابِيَّةِ، كَمَا يَتَحَوَّلُ نَفْسُهُمْ إِلَى اقْتِرَابِ، وَمَزَاجُهُمُ السَّيِّئُ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الْإِيجَابِيَّةِ وَالتَّرْكِيزِ.

٤. وفي النهاية هناك مجموعة يمكن أن تُعدَّ خَلِيطًا مِنَ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ (٣٥٪):

ولدى هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالِ خَلِيطٌ مِنَ السَّمَاتِ كُلِّهَا، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمِيلُ إِلَى الصَّعُوبَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمِيلُ إِلَى الْهَدُوءِ. وَتَتَغَيَّرُ الْأُمُورُ بِتَغْيِيرِ الْأَوْضَاعِ وَالْبِيئَاتِ الْمَادِّيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ فِي الْأُسْرَةِ.

## كَيْفَ نَتَعَامَلُ؟

لَعَلَّ هَذِهِ الدَّرَاسَةَ تُلْقِي أَضْوَاءً شَدِيدَةً الْأَهْمِيَّةِ عَلَى عَمَلِيَّةِ التَّرْبِيَةِ؛ فَهِيَ أَوْلَا تَجَلُّنَا لَا نَلْقِي بِاللُّومِ كُلَّهُ عَلَى الْأُسْرَةِ وَالْوَالِدِينَ حَيْثُ إِنَّ هُنَاكَ أَطْفَالَ صِعَابِ الْمِرَاسِ بِطَبِيعَتِهِمْ، وَهُنَاكَ أَطْفَالَ أُسْهَلِ. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ بَعْضَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ يَنْجَحُونَ فِي تَرْبِيَةِ أَوْلَادِهِمْ لَيْسَ لِكُونِهِمْ يَبْذُلُونَ مَجْهُودًا كَبِيرًا، بَلْ لِأَنَّ أَطْفَالَهُمْ كَانُوا أُسْهَلًا مِنْ غَيْرِهِمْ. وَهُنَاكَ آبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ يَفْشَلُونَ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ بَذْلِهِمْ مَجْهُودًا أَكْبَرَ مِمَّا يَبْذُلُهُ غَيْرِهِمْ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ "خَامَةَ" أَوْلَادِهِمْ بِطَبِيعَتِهَا صَعْبَةٌ. فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ تُلْقِي هَذِهِ الدَّرَاسَةُ عَلَى الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ مَسْئُولِيَّةَ اكْتِشَافِ طَبَاعِ أَطْفَالِهِمْ وَالتَّعَامُلِ مَعَهُمْ بِالطَّرِيقَةِ الْمُنَاسِبَةِ.

كيف نتعامل مع الأنواع المختلفة من الأطفال؟

أولاً يجب أن ندرك أن التعامل مع الأطفال بطريقة واحدة ليس عدلاً، وإنما هو أمر غاية في الظلم، فيجب على الآباء والأمهات أن يبذلوا المجهود الكافي في تعرف شخصيات أبنائهم وبناتهم، حتى يتعاملوا مع كل شخصية بالطريقة التي تناسبها. كما ينبغي أن ندرك أن الإيذاء أمر ذاتي تماماً. فما لا يسبب إيذاءً أو جرحاً للأطفال المرين، يجرح الأطفال الحساسين.

#### • أولاً: الأطفال المرنون (الهادئون):

يجب على الآباء أن يحدّدوا وقتاً لهؤلاء الأطفال للحديث بشأن مشكلاتهم وإحباطاتهم؛ لأنهم غالباً ما سيتأقلمون ولا يتكلّمون من تلقاء أنفسهم عمّا يُضايقهم. من هؤلاء الأطفال ما يمكن أن نسمّيه "الطفل المنسي"، وهو الطفل الهادئ المرن الذي يعيش في أسرة مضطربة فيها إهمال وإساءات وعدم تقدير لاحتياجات الأطفال. ولأنّ لدى الأسرة المضطربة ما يكفيها من الآلام والاحتياجات، فإنّ الذي لا يسبب المشكلات، يُنسى تماماً، بل تصير النقطة الإيجابية الوحيدة التي فيه هو أنّ لا أحد يشعر به! لذا فإنّه عندما يُعاني هذا الطفل بسبب مشكلة أو احتياج ما، فإنّه يميل إلى حلّها بنفسه، أو يتجاهلها ليظلّ محافظاً على دور من لا يسبب المشكلات. غالباً ما يكون مثل هذا الطفل قادراً على تسليّة نفسه بنفسه دون الاحتياج إلى أحد. وعادةً ما يغرق في سلوكيات قهرية خاصّة كأحلام اليقظة أو الشفقة على الذات، أو ربّما العادة السريّة التي يستخدم فيها نفسه بنفسه للحصول على اللذة والهروب من الألم. أحياناً يستخدم البعض سلوكيات لها جانب بناء مثل الكمبيوتر أو الدراسة، وقد تجعلهم هذه السلوكيات أحياناً يتنقّلون إلى لعب دور البطولة. على أية حال، إن لم يحصلوا على دور البطولة فهم على الأقلّ يحصلون على النجاة من مواجهة الفوضى التي في البيت.

في لقاء صحفيّ مع بيل غيتس، صاحب شركة مايكروسوفت وأحد أغنى رجال العالم، قال: لقد تفوّقتُ في مجال الحاسوب لأنّ طفولتي لم

تُكُنْ طفولةً سعيدةً، وبسبب ذلك كنتُ أهربُ من واقعي المؤلم بقضاء ساعاتٍ طويلةٍ أمام جهاز الكمبيوتر. وكلّما حققتُ نجاحًا، كنتُ أسعى إلى نجاح أكبر لكي أهربَ من ألمي. وهكذا حققتُ كلَّ هذه الثروة.

لقد كان من حسن حظّ غيتس أنّه لجأ إلى أمرٍ إيجابيٍّ للهروب ونجح فيه. للأسف يلجأ أطفالٌ ومراهقون كثيرون إلى أمورٍ سلبيةٍ مثل المخدرات أو إدمان الصور الإباحية أو غيرها بسبب تعرّضهم للإهمال في طفولتهم.

#### • ثانيًا: الأطفال صعبُ المراس :

هؤلاء يحتاجون إلى السّماح باللّعب العنيف لإخراج الطاقة العالية ومزيد من الحرّيّة مع وُضْع حدود، ولكن ليست ضيّقة. هذا قد يكون صعبًا في ظلّ أوضاعٍ سَكِينِيَّةٍ واقتصاديّةٍ صعبةٍ حيث تكونُ البيوت ضيّقةً ولا توجدُ فرصةٌ للاشتراك في أنشطةٍ رياضيّةٍ منظمّة، لكن قد تُتاحُ بعض الفرص من خلال المتنزّهات العامّة وشواطئ البحر وغيرها. يجبُ إعدادُ مثل هؤلاء الأطفال للتغيّر لأنّهم غير مُرنين، ويجبُ إعطاؤهم وقتًا ليفهموا أنّهم لن يطيعوا بسهولة وسرعة. لا يمكنُ أن نتوقّع من هؤلاء الأطفال مثلاً أن يُطفثوا التلفاز بمجرد أن نُعطِيهم أمرًا بذلك، أو أن يتوقّفوا عن ممارسة ألعابهم الإلكترونيّة بمجرد أن نلاحظ أنّهم قضوا وقتًا طويلًا في ذلك، بل يجبُ إعطاؤهم فرصةً من خلال عدّة إنداراتٍ لكي يُعدّوا أنفسهم للتّنفيد. وينطبّقُ هذا الكلامُ بشكلٍ خاصّ أيضًا على الأطفال البطينين الذين يحتاجون إلى وقتٍ "للإحماء" قبل أن يكونوا مستعدّين للتّجاوُب، وذلك عند الاستيقاظ مثلاً أو عند البدء في الدراسة وحلّ الفروض البيئيّة. إنّهم مثل آلة تصوير المستنّدات التي تحتاجُ إلى بضع دقائق من "الإحماء"، بعدها تؤدّي وظائفها بكلّ كفاءة. إنّ مثل هؤلاء الأطفال يحتاجون لأن نصبرَ عليهم قليلاً حتّى يستطيعوا التّجاوُب.

لقد كانت بنتنا الأولى من النوع المرن الهادئ. كُنّا نأخذها معنا عند زيارة الأصدقاء وكانت تلعبُ مع أطفالهم. حينما يأتي وقتُ الرّحيل كُنّا نقول لها إنّنا سنرحل، فكانت في لحظاتٍ قليلة تنهَضُ وتستعدُّ للرحيل

مهما كانت منهيكةً في اللعب. بعدها وُلِدَ ابْنُنا الأصغر وهو يميلُ قليلاً نحو الأطفالِ صِعبِ المراس. عندما كُنَّا نفعَلُ الأمرَ ذاته معه، كان يماطلُ ويلُحُ ويضعُطُ كي يستمرَّ في اللعب، وكان أحياناً يبكي وينفعل. بعد عدَّةِ مواجهاتٍ صعبةٍ معه، أيقنَّا بأنَّه يحتاجُ فقط لأن يُعِدَّ نفسه قبلَ المغادرةِ بوقت. فكُنَّا نمنحه مهلةَ نصفِ ساعةٍ مثلاً ليستعدَّ، وكُنَّا خلالَ هذه المدَّةِ نعطيه إنذاراً، ثُمَّ بعده بعشرِ دقائقٍ إنذاراً ثانياً، ثُمَّ ثالثاً. وبعد ذلك نلزمه بالتحرك. وحتىَّ إذا اعترضَ في هذه الحال، فإنَّه لا يُطيلُ الاعتراضَ؛ لأنَّه يدركُ بأنَّنا قد سبقَ وأنذرناه أكثرَ من مرَّة، وسمَّحنا له بأن يُعِدَّ نفسه للرحيلِ ويفصلَ نفسه بالتدرُّجِ عن اللعب.

في كثيرٍ من الأحيان، عندما نُرزِقُ طفلاً من النوعِ الهادئِ المرن- وهذا احتمالٌ كبيرٌ لأنَّهم يشكِّلون النسبةَ الأكبرَ (٤٠٪) - ثُمَّ يأتي الطفلُ الثاني من النوعِ الصَّعبِ المراس أو من النوعِ الذي هو مزيجٌ بين الصَّعبِ والسهلِ، فإنَّنا حينئذٍ نكونُ مُعرَّضينَ لأنَّ نتعجَّبَ، أو ربَّما نقارنُ بين الطفلينِ أو نتدمرُّ بسببهما؛ لأنَّنا كُنَّا نتوقَّعُ أن يكونَ أطفالنا متشابهينَ فهُم من أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدة. كيف تطيعُ البنتُ أمراً ما من المرَّةِ الأولى أمَّا الولدُ فنحتاجُ لأن نكرِّرَ له الأمرَ مرَّاتٍ ومرَّاتٍ حتىَّ يبدأ يتجاوَبُ؟ لماذا لا نحتاجُ هي إلى الشَّرحِ بينما هو يُطلبُ أن يفهمَ السببَ وراءَ كلِّ ما يُقالُ؟ لماذا يبكي هذا الولدُ عندما نُعنِّفه بينما لا يبكي الولدُ الآخرُ؟ لماذا يظلُّ هذا الولدُ مجروحاً إذا لم ننفذْ وعداً، بينما ينسى الآخرُ ويغفرُ بسهولة؟ لماذا تتعرَّضُ هذه البنتُ لعقوباتٍ كثيرة، بينما تمرُّ سنواتٌ على أختها دون أن يوجَّهَ لها أحدٌ أيَّة ملاحظة؟ هل من الظلم أن يُعاقَبَ طفلٌ ولا يُعاقَبَ أخوه؟ هل من العدل أن نحرِّمَ الجميعَ من التلفازِ إذا أخطأَ واحدٌ فقط؟

عندما قدِّمتُ هذه المحاضرةَ في إحدى الدُّولِ، اعترضَ أحدُ الآباءِ قائلاً: ”كيف يفعلُ طفلاي الأمرَ نفسه، فأعاقبُ واحداً لأنَّه يحتملُ ولا أعاقبُ الآخرَ لأنَّه حسَّاسٌ؟ أليسَ هذا ظلماً؟“ بالتأكيدِ هو ظلُّمٌ. لكن، ودون شكٍّ، لم يكنْ هذا هو القصدُ من المعاملةِ المختلفةِ؛ فالطفلُ الحسَّاسُ سيستجيبُ من الملاحظةِ الأولى، فلا يتعرَّضُ للعقاب. أمَّا الطفلُ صعبُ

المراس فلن يستجيب، فيتعرض للعقاب. وعندما يعترض من تعرض للعقاب بالقول إن أخاه لم يعاقب، فينبغي أن نكون مستعدين لأن نجأوبه لافتين انتباهه إلى أنه- أي الطفل صعب المراس- قد حذر ولم يستجب، فتعرض للعقاب، بينما استجاب أخوه للتحذير. هذا بالتأكيد يستلزم أن يُعطي الوالدان مساحةً حريةً للتعبير والاعتراض على الأحكام والعقوبات، كما يجب أن يكونا مستعدين أن يشرحا الأمر ويبرراه بالمنطق، وفي الوقت نفسه يتحلًا بالتواضع الذي يسمح لهما بالاعتذار والتراجع إذا لم يكن المنطق في صفهما.

هذا بالنسبة إلى العقاب. وعلى الجانب الآخر يجب أن تكون هناك مساواة في تكريس وقتٍ خاص، وفي التلامس وكلام المحبة والتشجيع والعطايا المادية، مع مراعاة أن يعرف الوالدان لغات المحبة الخاصة بكل طفل، ويستخدمانها بحكمة مع كل منهم. إن الظلم هو أن نحب واحداً أكثر من الآخر، أمّا أن نحب كل واحدٍ بطريقته، فهذا ليس ظلماً بل على العكس؛ فإن استخدام طريقة واحدة للأطفال المختلفين هو الظلم بعينه. يجب أن نبذل الجهد لنعرف كل طفلٍ من أطفالنا- ذكورا وإناثا على حدٍ سواء- ونقبلهم كما هم، بل نجتهد لكي نتعرف السمات الجميلة المختلفة في كل منهم، ونحتفل أيضاً بهم.



## نصائح ختامية

- التَّشجيعُ هو غذاءٌ مهمٌّ لنفسيةِ الأطفالِ يؤكِّدُ لهم قيمةَ أنفسهم، ويُنمِّي ثقتهم بأنفسهم، ويربطُ بينهم وبين الوالدين.
- التأديبُ ضروريٌّ لتنميةِ الشعورِ الصحيِّ بالمسؤوليةِ، أمَّا التأنيبُ فيُنمِّي الشعورَ المفرطَ بالذَّنْبِ.
- السماحُ بمساحةٍ من الحرِّيَّةِ والمبادرةِ يُنمِّي قدرةَ الأطفالِ على الإبداعِ والتَّجديدِ، أمَّا التأديبُ المفرطُ فيُخنقُ هذه القدراتِ ويجعلُ الأطفالِ يخشون التَّجريبَ والمبادرةَ والخروجَ بأيِّ شيءٍ جديدٍ خوفًا من العقابِ والشعورِ المفرطِ بالذَّنْبِ.
- أطفالنا مختلفون في شخصياتهم، وهذا الاختلافُ لا يعني أنَّ "التَّوع" الذي نفضِّله هو أفضلُ من "الأنواع" الأخرى.
- يجبُ أن ندركَ أنَّ بعضًا من "عدم الانسجام" يمكنُ أن ينشأ بين الوالدين والأطفالِ بسببِ اختلافِ الشخصياتِ. إنَّ علينا أن ندركَ هذا ونتجاوزَه؛ لأنَّه ينبغي لأولادنا ألا يكونوا نُسخًا عنَّا، وهم ليسوا "لنا" بمعنى "امتدادهم" لنا فقط، بل هم أولادُ الحياةِ وخليقةُ الله، وهو من خلَقهم كما يريدُ هو ولسنا نحن الذين "صنَعناهم" بحسبِ ما نريدُ نحن.

## دعاء السكينة

اللهم امنحني السكينة لكي أقبل الأشياء التي لا أستطيع أن أغيرها،  
والشجاعة لكي أغير الأشياء التي أستطيع أن أغيرها،  
والحكمة لأعرف الفرق بينهما.  
ساعدني أن أحيأ يوماً بيوم، وأستمع لحظة بلحظة.  
ساعدني أن أقبل الصعاب وأجتاز فيها لأصل إلى السلام.  
ساعدني أن أقبل العالم والناس كما هم وليس كما أريدهم أن يكونوا.  
ساعدني أن أغير أنا واثقاً بأنك صاحب السلطان،  
وبأنك ستصنع كل شيء حسناً  
إن سلمت قلبي وحياتي لمشيئتك.  
أمين





## الفصل الخامس

# التربية: عقاب أم تدريب؟

- ”ماما! بابا قال لي: «يا غبي!» ولم يُرد أن يعتذر!“
- ”بابا! اعتذر من فضلك“ قالتها ماما لبابا بحزم بعد أن هدأ.
- ”حسناً! أنا أسف. لقد كانت أعصابي متوترة. لن أقول هذا مرة أخرى.“ قال بابا هذا وهو يحتضن الابن ويُقبله، ثم يغمره بوابل من الدغدغة. وضحك ثلاثتهم معاً بينما كانت ابنتهم تقف من بعيد مبتسمة وموافقة، ثم جاءت وقالت لوالدها: ”برافو يا بابا لأنك اعتذرت!“

التربية ليست عقاباً يستهدف القمع والإخضاع، وهي ليست مجرّد المنع من الخطأ وإنما هي تدريب على إخراج أفضل ما في الإنسان.

في الفصل السابق تحدّثنا بشأن التأديب الصحيّ من خلال التدريب على تحمّل المسؤولية والثواب والعقاب دون تأنيب. والمقصود أن يكون توجّهنا في التربية توجّهاً إيجابياً. والآن حان الوقت لننظر إلى التربية من منظورٍ أوسع. فإن كان لابد أن يتمّ التّأديب دون تأنيب (أو بالحدّ الأدنى منه) فالتربية

بشكلٍ عامٍّ أكثر من مجردّ التأديب. وفي ثقافتنا الشرقيّة لدينا ميلٌ إلى اختزال التربية بمجردّ التأديب، بمعنى المنع من فعل الخطأ والتأكيد على فعل الصواب، بل في بعض الأحيان تكون

التربية مُرادفًا للعقاب. فعندما يهدد أحدهم شخصًا آخر فإنه يقول له: ”سوف أربيك!“، وهو يقصد أنه سيعاقبه أو ينتقم منه انتقامًا عنيفًا.

إن التربية في مفهومها الصحيّ الإيجابي هي أوسع بكثير من مجرد منع الأخطاء، فهي تعني التّدريب والتّرويض الذي يتيح للطفل أن يستخرج أفضل ما فيه، ثمّ يستخدمه. فكما يُدرّب الرياضي ليؤدّي في الملعب بكامل طاقاته الكامنة، كذلك يجب تدريب الأطفال لإخراج أفضل ما فيهم في الحياة، ليس فقط في الفترة التي يعيشونها مع أهلهم، ولكن في باقي حياتهم. التربية كونها تدريبيًا هي:

- أن يحاول الأهل أن يروا الدّنيا من منظور الأبناء والبنات، على أن يساعدهم في الوقت نفسه على أن يروا الدّنيا من منظورٍ آخرٍ أكثر نضجًا.
- أن يستطيع الأهل أن يعلموا أولادهم ويُدرّبوهم بالطريقة التي تسمح بنموهم والتي تفتح طاقاتهم الكامنة، وليس بطريقة تستفزهم وتعيقهم وتكسر أرواحهم وتخنق حريّتهم وقدرتهم على الاختيار الحرّ وعلى الخلق والإبداع.
- أن يقود الآباء والأمّهات أولادهم وبناتهم لكي يعلموهم أن يقودوا هم أنفسهم بأنفسهم بعد ذلك.
- أن يعيش الآباء والأمّهات ما يحاولون أن يعلموه لأولادهم. وإن فشلوا في ذلك في وقتٍ من الأوقات، فإنّهم يعتذرون ويسمحون لأبناءهم وبناتهم بأن يواجهوهم بفشلهم في التقيّد بما يعلمونهم إيّاه كما حدث في المشهد الذي بدأت به هذا الفصل.
- أن تكون التربية في إطار علاقةٍ دفيّةٍ ومحبةٍ وانتماء، ممّا يجعل الأبناء يحبّون والديهم ويستمتعون بأن يطيعوهم حتّى لا يخسروا- ولو للحظات- حالة الانسجام والمتعة المشتركة كونهم أسرة.

## الاحتياجُ إلى التَّدريب

منذ شهرين، قررنا شراء كلبٍ يبلغ من العمر أكثر قليلاً من سنة. وقبل إتمام الشراء، اقترح علينا أصحابه أن نأخذه ليقضي معنا بعض الوقت في أثناء سفرهم لنرى إن كنا سنستطيع التأقلم معه أم لا. لقد كان الكلبُ جميلَ المنظر جداً وشديدَ الذكاء والحيوية. وبالفعل استطاع، كما يقولون، أن يخطفَ قلوبنا ويملاً حياتنا ببعض المتعة والإثارة. لكنَّ بمرور الوقت ظهرت الحقيقةُ المؤلمة: أنَّ هذا الكلبَ غيرُ مدرَّب. عندما كنتُ أخذه للتمشي في الشارع لم يكن يستجيب، وبدلاً من أن أقوده كان هو الذي يقودني ويجرني خلفه. وإذا شاهدَ قططاً في الشارع - وهذا كثير الحدوث جداً - كان يندفع نحوهم وعبثاً كنتُ أحاولُ إيقافه. وقد غافلني عدَّة مرَّاتٍ وأفلتَ مني وانطلقَ وراء القطط كالسهم، وفي إحدى المرَّات كادت تنتهي حياته تحت عجلات السيَّارات المسرِّعة في الشارع الرئيسي.

لم يكن الجمالُ أو الذكاء أو خفةُ الدَّم أو ”الشقاوة“ هي ما كان ينقصُ هذا الكلب، بل كانتِ التربية. ذكّرني هذا الموقف بما كتبه الكاتب والفيلسوف سي. أس. لويس عاقداً مقارنةً بين تأديب الله للبشر، وتدريب البشر للحيوانات الأليفة مثل الكلب.

”بالنسبة إلى الجرو الصغير، إن كانت لديه ميولٌ «لاهوئية»، أي أنه يحاول أن يتفكّر في طبيعة هذا «الإله» المسمّى الإنسان، ربّما تُعدُّ العمليةُ كلها نوعاً من القسوة، وقد تُلقني بالكثير من الشكوك حول «صلاح» هذا الإنسان ومحبّته. أمّا الكلبُ الكبيرُ الذي صار بفعل التربية والتدريب أكبر حجماً وأقوى صحّة وأطول بقاءً من الكلب الضالّ، فهو لا يستطيع في نهاية حياته إلا أن يعترفَ بنعمة الإنسان الذي درّبه وأسبغَ عليه عالماً من المشاعر والانتماء والاهتمام والراحة لم يكن متاحاً له في عالمه الحيواني، لذا لن تكونَ لديه مثل تلك الشكوك التي لدى الجرو. وأنا لسْتُ أتكلّمُ هنا بشأن أيّ إنسان، بل بشأن الإنسان الصالح الذي يرتضي أن يتسبّب في إيلام الكلب قليلاً في أثناء التدريب، ويحملُ الألم معه حتّى يصنَع منه كلباً أفضل. ذلك بالتأكيد لأنَّ الكلبَ ينتمي إلى نوعيّةٍ راقيةٍ ومحبوبةٍ

من الحيوانات تستأهل التدريب حتى تصل إلى كمال شخصيتها المحبوبة<sup>1</sup>.

يمكن أن ينطبق هذا الكلام نفسه على تربية الأطفال، لكن دون شك بوجود فوارق: فالأطفال ليسوا كلابًا بل هم مساوون لوالديهم في القيمة. كما أن الوالدين ليسوا بأهية للأطفال ولم يخلقوهم ولا يعرفون كل شيء عنهم كما يعرف الله كل شيء<sup>2</sup>. إن وجه الشبه الوحيد هو أن الآباء يعرفون الحياة أكثر من الأطفال، ومن المفترض أيضًا أن يكونوا قادرين أكثر منهم على قيادة أنفسهم في الحياة، ومن ثم يستطيعون تدريب الأطفال على القيام بالأمر نفسه.

## التدريب والعقاب

تستخدم العقوبات للتدريب،  
وليس لإخضاع الطفل وقمعه  
إرادته.

قدم العالم النفسي المشهور وليم غلاسر (William Glasser)<sup>3</sup> هذا الفرق ما بين التدريب (Discipline) والعقاب (Punishment). ويوضح أن الفرق يكمن في أن التأديب موجه نحو السلوك

المرفوض، أما العقاب فموجه نحو الشخص<sup>4</sup>. يستهدف العقاب فقط أن يكون الطفل خاضعًا ومطيعًا، أما الهدف من التدريب فهو تعليم الطفل أن يسلك سلوكًا مسؤولًا ويكون قادرًا على ضبط نفسه. لذا فإن كان أسلوب التربية الوحيد هو العقاب، فهو بالفعل يدرّب الأطفال، لكنه يدرّبهم على الكذب والخداع لئلا يوقع بهم أحد. قد تستخدم عقوبات في إطار التدريب، لكن حتى تكون هذه العقوبات تدريبًا وليس مجرد عقاب للقمع والإخضاع، فإنها يجب أن تتميز بالصفات التالية:

1 C.S. Lewis, *The Problem of Pain* (London: Harper Collins 1940-1996) p. 36.

2 لذلك يجب أن تكون مجهوداتنا في التربية مقرونة بالصلاة والدعاء إلى الله الذي خلق هؤلاء الأطفال ويعرفهم أكثر من أي إنسان.

3 مؤسس مدرسة العلاج من خلال إدراك الواقع والتعامل معه (Reality Therapy).

4 J. Dobson, *The New Dare to Discipline* (Wheaton: Tyndale, 1996).

- أن يكون العقاب مناسباً للفعل، فليس هو أقل قدرًا ولا أكثر. عندما يكون العقاب مبالغًا فيه فإنه يوصل إلى الطفل أن المقصود هو قمعه وكسر إرادته. فعندما يضرب الطفل ضربًا مبرحًا، أو يحزم من شيء مهم جدًا بالنسبة إليه في حياته مثل رحلة كان ينتظرها لأسابيع، بسبب خطأ بسيط مثل كلمة قالها في حالة من التوتر العصبي، أو لإغلاقه الباب بعنف- فهذا يوصل رسالة فحواها أن ليس هدف العقاب هو تقويم الخطأ، وإنما قمع الشخص المخطئ.
- أن يكون العقاب مصحوبًا بشرح لأهمية السلوك الإيجابي وفوائده من جهة، وعيوب السلوك السلبي ومضاره من جهة أخرى، كما يجب أن يكون مصحوبًا بإعلان الأب أن هذا العقاب مدفوع برغبة الأب في تنمية شخصية أبنائه وبناته.
- أن يكون مصحوبًا بتعبيرات عن الحب والاهتمام بالكلام وبنظرات العين الحانية المبتسمة، لا المتجهمة المملنة بالكراهية والوعيد.

#### بين السماح بالاستكشاف والحماية من الخطر:

يتميز الأطفال حول سن الثانية بالنشاط الحركي الزائد، والرغبة في استكشاف العالم، واستكشاف أجسادهم- فيلمسون ويتحسسون كل شيء حولهم، ويتلمسون أيضًا أعضاءهم التناسلية (وهذا يكثر في المرحلة ما بين سن الثالثة والخامسة). أتذكر أن جهاز الفيديو القديم لدينا تعطل لأسابيع ونحن لم نعرف سبب تعطله. وفي أحد الأيام اكتشفنا أن ابنتنا قد وضعت "شوكة طعام" فيه بدلًا من الشريط.

من المهم أن يفهم الوالدان أن ما يفعله الأطفال في هذا العمر هو ليس تحديًا للسلطة، وإنما هو مجرد محاولات لاستكشاف العالم وتحقيق الإدارة الذاتية، وهو المصطلح الذي شرحناه من قبل.

في هذه الأحيان ينبغي للآباء والأمهات تجهيز منزلهم بحيث يكون محميًا من عبث الأطفال (Child proof)، وذلك للسماح لهؤلاء المستكشفين الجدد بممارسة هوايتهم دون أن يتعرضوا للخطر، أو أن يفسدوا الأشياء الثمينة.

## بين عدم النَّضج والتمرُّد:

كثيرًا ما يتصرَّف الأطفال والمراهقون برعونةٍ واندفاع. وهم غالبًا ما لا يحسبون العواقب، ويخطئون في تقدير المسافات ويكسرون الأشياء. إنَّ هذا ناتجٌ في الغالب من عدم نضجهم العضلي والوجداني والذهني. وهذا أمرٌ ينبغي ألاَّ يحسبه الوالدان تمرُّدًا أو تحدِّيًا للسلطة الأُسريَّة. إنَّ التحدِّي والتمرُّد هما أن يستمرَّ ذلك على الرُّغم من التنبيه المتكرَّر، ويستطيع الوالدان أن يستشعرا فيه الانتقام والتصرُّف العمد. عادةً ما يُفترَض وجود التحدِّي والتمرُّد من قِبَل الآباء غير الناضجين والأُمهات غير الناضجات، اللَّاتي يشعُرْنَ بعدم الأمان لأنَّهنَّ تربيَنَ أيضًا بطريقةٍ خاطئة، مع أن ذلك لا يكون موجودًا بالفعل. على الجانب الآخر، ثَمَّة أيضًا آباءٌ وأُمهاتٌ ضعفاءُ الشخصية لا يستطيعون مواجهة أبنائهم وبناتهم، فيخرجون من التحدِّي مهزومين. ولهذا أيضًا عواقبٌ سيئةٌ جدًّا تُلقِي أوزارها على الأبناء والبنات الذين يعتادون تحدِّي السلطة وعدم احترام الحدود والقواعد، كما قد تنمو لديهم شخصيَّاتٌ مُعاديَّةٌ للمجتمع.

## الضَّرْب

أثارت هذه القضية - ولا تزال تثير - الكثير من الجدل في مجتمعاتنا على الرُّغم من أنَّها قد حُسمت في مجتمعاتٍ أخرى. على العموم، لا ينصح أحدٌ مطلقًا بضرب أيِّ طفلٍ دون سنِّ السنة والنصف، حيث يمكنُ لأية هزَّةٍ عنيفةٍ للطفل أن تؤثر تأثيرًا خطيرًا في المخ، وقد تؤدي إلى الوفاة. أمَّا بعد سنِّ السنة والنصف، فيرى البعض أنَّه يمكنُ استخدام الضَّرْب على أماكن مثل المؤخِّرة أو ظهرَ اليد لإحداث رِبَطٍ بين السلوك الخطِر أو المرفوض وألمٍ جسديٍّ يساعدُ الطفلَ على تذكُّر أن مثلَ هذا السلوك خاطئ.

يتفقُ الكلُّ أيضًا على أن هناك سنًّا لا يجوزُ بعدها استخدام العقاب البدنيِّ البتَّة. غير أنَّ هناك خلافًا على هذه السنِّ. كما يتفقُ الكلُّ أيضًا على أن العقابَ البدنيِّ ينبغي أن يكون آخرَ الحلول بعد أن تفشَّل كلُّ المحاولات بالكلام أو بالحرمان أو خلافه.

في الواقع أنا أُنتمِّي إلى المدرسة التي يمكنُ للبعض أن يحسبها متطرّفة، وهي التي ترفضُ الضَّرْبَ تمامًا. وأقصدُ بالضَّرْبِ أن يرفعَ أحدُ الوالدين يده ثمَّ ينزلُها على جسد الطفل. هذا العمل - في رأبي - يمكن أن يوصلَ رسالةً عنفٍ للطفل، مهما كانت الطريقة ومهما كانت الأحوال.



أنا أرى أنَّ العقابَ المقبولَ هو حرمانُ الطفل من أشياءَ معيَّنة، والإصرار على ذلك حتَّى يتعلَّم الطفلُ أنَّ السلوكَ مرفوض. أمَّا في السنِّ التي تسبقُ قدرةَ الطفل على استيعاب العقاب بالحرمان، فيمكن استخدامُ المنع الجسديّ (Physical restraint). وهذا الشكل يختلفُ عن الضرب، إذ لا توجدُ مسافةً ما بين يد الأب أو الأم تجعل اليدَ "تنزل" على جسد الطفل بالضرب. يمكنُ في حالاتِ التمردِّ

الشديد أن يمسكَ الوالدُ بالطفل ويضمه بشدَّة بحيث يثقلُ حركته ويمنعه من الاستمرار في ما يفعله. إنَّ هذا العملَ يوصلُ أكثرَ من رسالةٍ إيجابية للطفل. أوَّلًا رَفُضُ ما يحدث. ثانيًا إدراكُ عنصرِ السُّلطة لدى الوالد وإدراكِ الطفل محدوديته. ثالثًا تعرُّفُ مفهومِ القانون وقوَّة تطبيقه (ربَّما للمرَّة الأولى). رابعًا الحنان والاحتضان ولو بقوة.

يحدثُ هذا مثلًا عندما يتمردُّ الطفلُ ويرفضُ الخضوع للأب أو الأم ويرتجى في نوبة صراخ وتمرد (Tantrum) في الشارع أو في أحد المحالِّ أو في "السوبرماركت". في مثل هذه المواقف، أنا لا أفضلُ الضربَ بل أن يُحمَلَ الطفل بقوةً ويوضع في عربته أو في كرسيِّ السيَّارة المخصَّص للأطفال، لكنَّ دونما ضرب.

تكمُنُ المشكلة لدينا في أنَّ الضربَ يُعدُّ علاجًا فعلاً وسريعاً للتمردِّ، لكنَّه، على المدى البعيد، يضرُّ بتكوينِ شخصيَّة الطفل. يُشبه الأمرُ في نظري العلاج بالهرمونات والكورتيزون؛ فهو قد يؤدي إلى نتائج باهرة في شفاء الالتهابات، لكن إذا أُفرِطَ في تناوله - وهذا عادةً ما يحدثُ لأننا نميلُ لأن نفرطَ في استخدام أيِّ شيءٍ يُثبتُ فاعليَّةً سريعة - فإنَّ هذا يدمِّرُ مناعةَ الجسم تمامًا.

وأقصد بالمناعة هنا قدرة الطفل على قيادة نفسه. إنَّ الضربَ، ولا سيَّما الضربَ المفرطَ، يكسِّرُ روحَ الطفل<sup>٥</sup> (أي إرادته) وسلطانه على جسده، وهذا عكس هدف التربية؛ لأنَّ التربية ينبغي ألاَّ تهدفَ إلى كَسْرِ إرادة الطفل وإخضاعه للقوانين والسلطة، بل إلى تدريب الطفل أن يُخضع، هو بنفسه، عقله ومشاعره وجسده لسلطان إرادته، أي أن يتعلَّم هو أن يقودَ نفسه.<sup>٦</sup>

قد يؤدِّي الإفراطُ في الضرب أيضًا إلى إحداث نوع من الفصل بين الطفل وجسده، فتضعف قدرته على إدارة جسده في الفراغ (في الأماكن التي يوجد فيها)، وهذا يؤدِّي بدوره إلى المزيد من الرُّعونة في السلوك، فيتخبَّط في الأشياء ويوقعها ويكسرها، ومن ثمَّ يتسبَّب هذا في تلقِّيه للمزيد من العقاب الجسديِّ، وهكذا تنشأ دائرة مفرغة تكسر قلب الإنسان.

### أسباب فشَلِ العقاب:

من الأسباب الشائعة التي تؤدِّي إلى اللُّجوء إلى الضرب كونه الطريقة الأسهل للتربية، أن أنواع العقاب الأخرى كثيرًا ما تفسلُ ولا تؤدِّي إلى النتائج المرجوة في تقويم السلوك. ثمَّة ثلاثة أسبابٍ أساسية لفشل العقاب<sup>٧</sup>: السببُ الأوَّلُ هو العقوبات المندفعة والقوانين المتغيِّرة. إنَّ هذا يُغري الأطفال بمحاولة كَسْرِ القوانين أو، على الأقلِّ، البحث عن ثغرات فيها، وهي الحال في المجتمع بصفة عامَّة. فعندما تكون الدولة رخوة والنظام القانوني فيها مبنياً على هوى من هم في السلطة وعلى ونزواتهم، فإنَّ الشعب عادةً ما لا يطيع القوانين. السبب الثاني هو أن تكون إرادة الطفل أقوى من الوالدين. كثيرٌ من الأحيان عندما أقترحُ على الوالدين أن يبحثا عمَّا يحبه الأطفال لِحرامتهم منه إذا ارتكبوا أخطاء، يقول لي الآباء والأمهات إنَّ أبناءهم لا يهتمون، بل أحياناً يُظهرون أنَّ العقاب لا يؤثِّر فيهم. في واقع الأمر هم يتظاهرون بعدم التأثر لئلاَّ يمنحوا

٥ يصفُ دالاس وبلارد القلبَ في كتابه "تجديد القلب" (*Renovation of the Heart*) بأنَّه المركز المتحكِّم في الإنسان، وهو الذي يُشارُ إليه أيضًا بالروح أو النفس، وهذا المركزُ تحديدًا هو الإرادة. وبعدُ وبلارد التدريبات الروحيَّة وأيّ نوع من التربية والتدريب، تدريبات هدفها جعلُ الكيان الإنسانيَّ كلَّه يدورُ حول الإرادة بدلًا من أن يدورَ حول المشاعر والرغبات الجسديَّة.

٦ لو كان الله يريدُ أن يُخضعنا له بالقوَّة لكان فعل ذلك. غير أنَّه اختارَ أن يُبقي على إرادتنا الحرَّة، واختارَ أيضًا أن يطلبَ منَّا أن نخضعنا له بأنفسنا.



الوالدين نصرًا سهلًا عليهم، وأحيانًا لكي يصرفوا نظرَ الوالدين عن هذا العقاب فلا يطبقونه في مرّةٍ أخرى. عادةً ما أقول للوالدين إن عليهم ألا يصدّقوا هذه المناورة، ويستمرّوا في العقاب بكلّ حزم وإصرار. في أحيان كثيرة تكون مسألة العقاب هذه مباراةً في النّفس الطويل. يجب أن يكون نّفسُ الوالدين أطولَ، ويجب أن ينتصرا، أي أن ينتصر الصوابُ في النهاية. السبب الثالث هو ضعفُ العقاب. فالعقاب يجب أن يكونَ كافيًا ومؤثّرًا وإلا فلا داعي له.

### الطفل قويّ الإرادة (The Strong Willed Child):

يتمتع بعض الأطفال بقوة الإرادة، لذا يكون تشكيل هذه الإرادة وتدريبها أصعب ممّا هي الحال عليه مع أطفال آخرين.<sup>٨</sup> يُشبه الأمرُ صناعة تماثيل من الغرانيت مقارنةً بالصلصال. قد يكون الأمرُ صعبًا بل شديد الصعوبة أحيانًا، غير أنّ المكافأة الوحيدة هي أنّ تماثيل الغرانيت أثنى وأبقى كثيرًا من تماثيل الصلصال. فإذا رُوّضَ مثل هذا الفرس الجامح، فإنّه يصيرُ قائدًا مؤثّرًا يمكنه أن يكونَ قاطرةً للتغيير في مجتمعه. يقدّم د. جيمس دوسون بعض النصائح إلى أهلٍ مثل هؤلاء الأطفال<sup>٩</sup>:

١. ينبغي ألاّ تلومَ نفسك أو تلومَ طفلك بسبب الطبيعة الصّعبة التي خلقَ عليها.
٢. تشكّل الإرادة القويّة في الطفل خطرًا عليه إذا لم تدرّب وتروّض.
٣. يجب أن تفهم أنّ هذا الطفل يشتهي القوّة والسيطرة ويسعى لأن تكون له اليد العليا، لذا فإنّ من المهمّ ألاّ يُسمَح له بأن ينتصرَ في صراع القوى.
٤. لا تنزعج! فعلى الرّغم من صعوبة هذه المرحلة، فإنّ أمامك الكثير من المتعة في العلاقة والحياة. إنّ الطفل قويّ الإرادة هو مثلُ سيّارةٍ سباقٍ سريعة من الممكن إن لم تُحسّن قيادتها أن تؤدّي إلى حوادث مميتة. لكنّ إن قادتها بكفاءة، فهناك الكثير من المتعة والفوز في سباقات الحياة.

٨ في بعض الأحيان تستفّر هذه الإرادة القويّة الوالدين، وتُغريهما بأن يكسراها مبكرًا؛ لأنهم يخشون عدم القدرة على السيطرة عليها لاحقًا.

٩ James Dobson, *The Complete Marriage and Family Home Reference Guide* (Wheaton: Tyndale, 2000).

٥. لا تدع ابنك أو ابنتك من قوِيَّ الإرادة يبتعدون عنك عاطفياً. كُن قريباً حتَّى عند أشدَّ لحظاتِ التمرد؛ فابنك يحتاجُ إليك في هذا الوقت أكثر من أيِّ وقتٍ آخر.
٦. أعطه الوقتَ بمفرده حتَّى يعودَ ويجدَ نفسه، وسيطرَ على أعصابه حتَّى لو لم يبدُ عليه أنَّه يحاولُ فعَل ذلك.
٧. وأحد أهمَّ الأشياء هو أن تدعو الله من أجل طفلك؛ إذ لا توجدُ معرفةٌ كافيةٌ في الكتب ولا في عقول البشر لتقوم الإنسان دون معونة الله خالق الإنسان.

### التربية وتكوين المعتقدات

تتكوَّن المعتقدات من أحداث الحياة المهمَّة والمتكرِّرة ومن كلام الأشخاص المهمِّين، مثل الآباء والأمَّهات وطريقة تعاملهم مع الأطفال وأمام الأطفال، ثمَّ تتأكَّد المعتقدات من خلال تصديقها وتطبيقها لسنين عديدة، فتصيرُ مثل النبوات التي تتحقَّق عندما نصدِّقها. فعندما أصدِّقُ مثلاً أنني سأفشلُ دائماً، فإنِّي لن أبذلَ مجهوداً كافياً فتكونُ النتيجةُ أنْ أفشلَ دائماً، وهذا يؤكِّدُ المعتقدَ ليس لأنَّه صحيح، ولكن لأنِّي صدَّقته فجعلته بذلك صحيحاً (Self-fulfilling prophecy). لذا يجب على الوالدين أن يُدركا أنَّ اقوالهما وسلوكياتهما المتكرِّرة ستشكِّل شخصياتِ أبنائهما من خلال تأسيس معتقداتٍ<sup>١٠</sup> فيهم عن أنفسهم وعن الحياة وعن الناس.

١٠ للمزيد عن هذا الموضوع، يمكن قراءة كتاب "مهارات الحياة". وكذلك يمكنكم الاطلاع على كتاب "تطوير الذات" للمؤلف من منشورات أوفير للطباعة والنشر (عمان، ٢٠١١م)، وهو أحد كتب سلسلة ١٨٠ درجة.



## نصائح ختامية

- التربية تدريب على اتباع القوانين، بشرحها والتأكيد عليها ومعاقبة الخروج عنها دون المساس بالأشخاص سواء بالتأنيب أم بالإهانة.
- ممارسة الآباء والأمهات لضبط النفس واحترام القوانين ذاتها التي يضعونها للأطفال تساعد الأطفال أن يقتنعوا بهذه القوانين ويطيعونها. يجب أن يكون الآباء والأمهات قدوة في تطبيق القوانين الأسرية وليس في خرقها.
- التربية هي مساعدة الأطفال على إخراج أفضل ما فيهم. ويجب أن نقول لهم هذا مرارًا وتكرارًا عند كل مرة نتدخل فيها لتعليمهم شيئًا، وإكسابهم مهارة أو لمنعهم من اكتساب سلوكٍ خاطئ.
- التربية السليمة هي في نهاية الأمر تأسيس معتقداتٍ محوريةٍ إيجابيةٍ راسخة في أذهان الأطفال بحيث تشكل سلوكهم التلقائي. أما التربية الخاطئة فهي تأسيس لمعتقداتٍ سلبيةٍ خاطئة.
- الضرب غالبًا ما ينقل رسائل سلبية. قد تكون الرسالة السلبية رسالة إهانة أو رسالة تشجيع غير مباشر على استخدام العنف.
- الضرب المبرح يسبب اضطرابات في إحساس الأطفال بأجسادهم وعلاقتهم بها لاحقًا، مما قد يمتد على طول الحياة، وهو أمرٌ يحتاج إلى علاج.

## دعاء

أشكركُ يا ربُّ لأنَّك استأمنتني على جيلٍ قادم .  
لقد خلقتهم واستودعتهم بيتي وقلبي  
لكي أراهم من أجلك .  
هم أبناؤك وبناتك أنت .  
أنا لا أملكهم بل أنا مؤتمنٌ على رعايتهم  
على مدى فترةٍ محدَّدةٍ ومهمَّةٍ في حياتهم .  
ساعدني أن أؤديَ هذه المهمَّةَ الشاقَّةَ والكريمةَ .  
أمين



## الفصل السادس

# التربية الوجدانية

عندما عدتُ لأخذ ابنتي من الحضانة في نهاية النهار، وجدتها ترحبُ بي ولكن ليس كما اعتادتُ أن تفعل، وقد جلستُ أيضًا صامتةً بجانبها في السيّارة. عندما سألتها: ”هنا! ما بك؟“ لم تردّ. ”هل أنت غاضبةٌ منّي؟“ لم ترد. ”ما الذي يضايقك؟“ لم ترد أيضًا. راح ذهني يبحثُ عما يمكن أن يكون قد تسبّب في ضيقها وتغيّرها. ”هل...؟“ تهزُّ رأسها بالنفي. ”هل...؟“ تهزُّ رأسها بالنفي أيضًا. ”الأنّي لم أدخلْ معك هذا الصباح غرفة الصفّ الداخليّة في الحضانة؟ الأنّي لم أقبلك مثلما أفعلُ كلَّ يوم قبل أن أذهب؟“ أخيرًا هزّت رأسها بالإيجاب. يومها حدثَ بيننا اتصالٌ سمحَ لها في ما بعد أن تشاركني مشاعرَها.

التربية الوجدانية هي تدريبُ الأطفال على تنمية ذكائهم الوجداني (Emotional Intelligence). والذكاء الوجداني عموماً هو أن يستطيع الشخص أن يقودَ مشاعره بدلاً من أن تقوده مشاعره، وهو يتكوّن من خمسة مكونات هي:

١. القدرة على تعرّف المشاعر والتعبير عنها.

٢. القدرة على تعرّف مشاعر الآخرين والتّفاعلِ معها.
٣. القدرة على التّحكّم في المشاعر.
٤. القدرة على تحفيز الذات.
٥. القدرة على إقامة علاقات اجتماعيّة سليمة، أي الذكاء الاجتماعيّ.

## كيف نساعدُ الطفلَ أن يَعِيَّ مشاعره؟



منذ سنّ مبكرة (سنّ الحضانة) التي يبدأ فيها الأطفال في تعلّم الكلام، ينبغي تدريبهم على فهم حالتهم النفسيّة والتعبير عنها بالكلام. يحدثُ هذا أحياناً من خلال لوحاتٍ تحوي تعبيراتٍ وجهٍ مختلفةً وتحت كلّ تعبيرٍ الكلمةُ الوجدانيّة التي تصفُ هذا التعبير، وذلك لتعليمهم مفردات المشاعر (Emotional vocabulary)، ثمّ يجري سؤال الأطفال: كيف تشعر؟ ما أقرب شعورٍ من هذه المشاعر إلى ما تحسُّ به الآن؟ لماذا؟

أن يكونَ الآباءُ والأمّهاتُ أيضاً متمتّعين بدرجةٍ من الذكاء الوجدانيّ يُساعدُهم على أن يفعلوا ذلك مع أبنائهم. فمن خلال إدراك الوالدين لمشاعرهما في أثناء تعاملهما مع أطفالهما يمكنُ أن يتعرّفوا مشاعرَ الأطفال.

- فمثلاً، إذا شعرتَ بالضيق وأنت تتعاملُ مع الطفل، فغالباً ما يكونُ هدفُ الطفل هو أن يحوزَ انتباهك لكنّه لا يستطيع ذلك، فيبدأ يجذبُ انتباهك بطريقةٍ مُلحّة تُشعركَ بالضيق. ربّما يطلبُ أشياءً سخيفةً، لكنّ ما يحتاجُ إليه بالفعل هو أن ينتميَ ويرتبطَ - أن يُرى ويُقدّرَ ويشعَرَ بقيمته.

• وإذا شعرت بالغضب وفقدان السيطرة وأنت تتعامل مع الطفل، فهذا معناه أن الطفل يحاول أن يسيطر عليك. الاحتياج إلى السيطرة هو أمرٌ طبيعيٌّ في الطفولة يجب أن يُدرَّبَ الطفلُ حتَّى يتخلَّى عنه بالتدرّج.

اسأل نفسك: "ثريه كيف يشعر هذا الطفل؟ كيف أشعر أنا في أثناء التعامل معه؟" ومن ذلك تستنتج ما يحدث تمامًا داخل الطفل، وتبدأ تتعامل معه من جذوره.

• أيضًا عندما تشعرُ بالإهانة أو جرح الكرامة من الطفل، فغالبًا ما يكونُ الطفلُ يحاولُ استفزازك أو الانتقام منك بسبب أمرٍ فعلته أو كلمةٍ قلتهَا وقد استقبلَهَا الطفلُ على أنها إهانةٌ أو تهديد. في هذه الحال، ينبغي للأهل قبل أن يتركوا العنان لغضبهم وانتقامهم، أو حتَّى قمعهم

لتمرد هذا الطفل، أن يسألوا أنفسهم: "ما الذي يجعلُ هذا الطفلَ يتصرفُ على هذه الشاكلة؟" الأساس في الأطفال هو أنهم يحبون آباءهم وأمهاتهم، ويشعرون بالأمان عندما يكونون في سلام معهم. قد يشعرُ هذا الطفلُ بإحباطٍ أو رفضٍ بسبب سلوك ارتكبه الأهل دون أن يشعروا به. للأسف نحن الآباء والأمهات نادرًا ما نتقدُّ أنفسنا في تعاملنا مع أطفالنا، بل نتقدُّ أطفالنا ونتقدُّ هذا "الجيل الملعون" كما قال لي أحد العاملين مع الشباب الصغار ودفعني لأن أتساءل: كيف يمكنه أن يخدمَ هذا الجيل وهو يراه- ولو على مستوى الدُعاة- ملعونًا؟

أتذكّرُ أن ابني، الذي يقتربُ من سنِّ المراهقة، قد صار عصبياً ويتكلّمُ بطريقة غير مناسبةٍ وغير معتادةٍ بالنسبة إليه. عندما لاحظتُ ذلك، كان أوّل ما فكرت فيه وعبرتُ له عنه هو أنني لُمتهُ وأشرتُ إلى صداقةٍ جديدةٍ في حياته، قد يكون يتعلّمُ منها طريقةً غيرَ مناسبةٍ في الكلام. لكن بعد أن فكرتُ مليًا بدأت أخطُ أمرين: الأوّل هو بالتأكيد اقترابه من سنِّ المراهقة، والثاني أنني لاحظتُ ابتعادي عنه لوقتٍ طويلٍ بسبب انشغالي وسفري الزائد عن المعتاد في الفترة الأخيرة.

- إذا شعرت بالإحباط أو الفشل عند التّعامل مع الطفل، فهذا قد يعني أنّك تريد أن تجعله يفعل أمرًا ما وهو لا يريد فعله. السبب غالبًا هو أنه يريد أن ينسحب من المهمة أو الموقف الذي يشعر بعدم القدرة على إنجازه، وليكن الأمر مثلًا ترتيب الغرفة أو الدراسة. هذا الطفل يحتاج، قبل أن يُعطى تدريبًا، لأن يُشجع على إجراء التّعامل مع إحساسه بالعجز الذي قد يكون وراء تمرّده وعناده.

إنّ المفتاح دائمًا هو أن تسأل نفسك: ”تري، كيف يشعر هذا الطفل؟ وكيف هي الصورة من منظوره؟“ ويساعدنا في معرفة ذلك أن نسأل أنفسنا نحن الوالدين: ”كيف أشعر أنا في أثناء التّعامل معه؟“ ومن ذلك تستنتج ما يحدث تمامًا داخل الطفل، وتبدأ تتعامل معه من جذوره وليس فقط مع الشكل الظاهري. عندئذٍ أطيع الحكمة القائلة: ”لا تحكموا بحسب الظاهر، بل احكموا حكمًا عادلًا“.

## كيف ندمي الذكاء الوجداني للأطفال؟

تتضمّن التربية الوجدانية أن نحترم مشاعر الصغار ولا نكبتها. وفي الوقت نفسه ندرّبهم على استخدام طرق وكلمات سليمة للتعبير عن مشاعرهم بحيث لا يُسيئون إلى الآخرين.

- لا بأس أن يركض الطفل غاضبًا ويذهب إلى غرفته معبرًا عن غضبه. ولا بأس أن يغلق باب الغرفة بعنفٍ من ورائه.
- لا بأس أن يرفض الكلام مع أيّ شخص لبضع دقائق، حتّى لو كان الأب والأم.
- لا بأس أن يلكمّ المخدّة أو يقطّع بعض الجرائد القديمة.

لكن من غير المقبول أن:

- يضرب الطفل إخوته أو أخواته، أو أن يوجّه إهانةً إلى أيّ منهم.



• يخاصم ويُقاطع لفترةٍ طويلة.

• يكسر أو يمزق شيئًا له قيمة لديه أو لدى شخصٍ آخر.

يجب أن يترك الآباء والأمهات مساحةً للتعبير عن المشاعر لئلا تُكَبَّت فتخرج بعد ذلك في صورة سلوكياتٍ مُضرةٍ للطفل وللآخرين، لا سيَّما في فترة المراهقة. ثمَّ بعد أن تهدأ المشاعر، يمكن أن نقترِب من أولادنا وبناتنا ونسألهم عن سبب شعورهم بتلك المشاعر ولماذا تصرفوا بتلك الطريقة.

### هل الطفل قادرٌ على التحكم في مشاعره؟

نقول لا ونعم. ”لا“؛ لأنَّ الأطفال لا يولدون بهذه القدرة مكتملة بل يحتاجون إلى التدريب عليها، فهم في البداية لا يستطيعون ”ترويض“ مشاعرهم والتعبير عنها تعبيرًا سليمًا. وهذا قد يقودهم إلى الصراخ أو ”الزَّن“ (تكرار الأمر مرارًا وتكرارًا) أو إلقاء أنفسهم على الأرض أو ربَّما ممارسة العنف ضدَّ الآخرين. أتذكَّر أن ابني علَّمني هذا الدرس وهو لا يزال في الثالثة تقريبًا عندما قال لي: ”بابا أنا عايز أبطل عياط بس مش قادر!“ عندها تعلَّمتُ أن أنتظر وأصبر ولا أتوقع أن يتحكَّم أطفالي في مشاعرهم بالضَّغط على زرِّ كما أتمنى! ولكننا نقول أيضًا ”نعم“؛ لأننا نؤمنُ بأنهم قادرون على تعلُّم هذه المهارة، وهي مهارةٌ يمكنُ تعليمها للأطفال منذ سنواتهم الأولى (نحو ٣ سنوات)، إذا ما تلقَّوا التشجيع الكافي والتعليم المثابر للتفريق ما بين الطرق السليمة والطرق الخاطئة. وإذا لم يحدث هذا فإنهم سيعيشون حياةً كاملةً من تعبيراتٍ غير ناضجةٍ في ما يخصُّ المشاعر.

أمثلة على المواقف التي يجب أن يستغلها الوالدان لتعليم أطفالهم الذكاء الوجداني:

• في مواقف مثل مشاعر الإحباط الناتجة من الرفض والخصام مع الأطفال الآخرين في الحضنة والمدرسة وغيرها، يمكننا أن نقف بجانب أولادنا وبناتنا ونقدِّر مشاعرهم

ثم نقترح عليهم طرقاً للتفكير في الأمر من زوايا مختلفة، مع محاولة تكوين صداقاتٍ جديدةٍ والمثابرة في العلاقات. أتذكرُ كيف نمت ابنتي الصغيرة وجدانياً. فبعد أن كانت تنهارُ بسبب تناقصِ اهتمام بعض الصديقات، صارت تستقبلُ هذا بصدرٍ رَحْب، وتفهمُ أن صداقاتها المختلفة لن تكونَ أبداً على المستوى نفسه من العمق. لستُ أذكرُ أننا، أنا أو أمها، قد قدّمنا إليها الكثير من النصح والتعليم بهذا الشأن، إذ كنا في الأغلب نرافقها ونفهمُ مشاعرَها ونحاولُ أن نقدّم إليها الحبَّ بشكلٍ ثابتٍ ومستقرٍّ قدرَ المستطاع.

- في حال الشعور بالفشل في لعبةٍ رياضيّة، فإنّ علينا أن نحثّ الطفل على عدم الاستسلام، وعلى المثابرة حتّى يتحسن، أو أن يبحثَ عن لعبةٍ أو هوايةٍ أخرى. علينا أن نشجّع الطفل ليذهبَ إلى التمرين ويواظبَ عليه على الرّغم من إحباطه بسبب توبيخ المدرب في التدريب السابق، فهذا يُدرّبه على إدارة مشاعره والمثابرة في التعليم والتدريب في الحياة بصفةٍ عامّة.

- في حال الحاجة إلى التّعبير عن المشاعر السليبيّة والإحباطات من الآخرين، حتّى وإن كانوا من ”الكبار“، فعلياً أن نعلّمهم كيفيّة القيام بذلك مع الحفاظ على طرق التّعبير المهذّبة. أذكرُ أنّ ابني، عندما كان في الثالثة أو الرابعة، اعتاد أن يقول لي عندما كان يشعرُ بالضيق منّي لأيّ سبب: ”بابا أنا أكرهك“. كان وقعَ الكلمة صادماً بالنسبة إليّ، وهي كذلك بالنسبة إلى أيّ أبٍ مُحِبّ. تمالكْتُ أعصابي وسألته إن كان يفرحُ عندما أسافر؟ فقال: ”لا“. ثمّ سألته: ”هل يتمنّى أن أمرض؟“ دهِشَ من السؤال وقال: ”لا“. ”هل تحزّنُ عندما آتي إلى البيت؟“ كاد ابني يبكي وقال: ”لا يا بابا!“ فقلتُ له: ”إذا أنت لا تكرهني“. بعد أن تأكّدتُ أنّ ابني قد فهمَ ما تعنيه الكراهيّة، قلتُ له: ”أنت لا تكرهني، بل أنت غاضبٌ منّي، وهذا أمرٌ لا بأسَ به. لكنّ عندما تشعرُ بهذا الشعور يمكنك أن تقول: «بابا أنا زعلان منك»“ وعندما تعلّم هذه الكلمة بدأ يستخدمُها.

- علينا تعليمهم احترام الكبار لا الخوف منهم. إنَّ كَبَتَ المشاعر والمنع من الكلام يعلِّمُ الخوفَ لا الاحترام. أتذكَّرُ هنا شاعرَ العامية المصريَّ الشابَّ هشامَ الجخ<sup>١</sup> عندما يقول:

علّمونا بالعصاية ورضّعونا الخوف روضة  
 علّمونا فى المدارس يعنى إيه كلمة قيام  
 علّمونا نخاف من الناظر مدير المدرسة فـيتمنع الكلام  
 علّمونا إزاي نخاف وإزاي نكش بس نسيوا يعلمونا الاحترام  
 فمتزعلوش لما أبقي مش باسمع كلامكم  
 وماتزعلوش لما أبقي خارج عن النظام  
 مستنى إيه من طفل ربّوه بالزعاق؟  
 غير المشاكل والخناق.

- علينا أن نعلّمهم كيفية قبول الفشل دون ذنبٍ مبالغ فيه (التعامل مع الفشل الدراسي بصورة صحيحة دون تهاونٍ أو إشعارٍ بالذنب). لا يؤدي التعبير عن كراهية الدراسة أو الملل منها إلى عدم القيام بها، بل على العكس، فاعتراف الآباء والأمهات بهذه المشاعر يُعطي انطباعاً لدى الطفل أنّ هناك مَنْ يشاركه هذه المشاعر. يمكنُ للأب أو الأمّ مثلاً أن يقول: ”أنا أعلمُ أنّ الدراسة تكونُ سخيقةً في بعض الأحيان، أنا أيضاً كنتُ أشعرُ بذلك. لكن ما العمل؟ يجب أن ندرس!“

- علينا أن نعلّمهم كيفية التواصل والكلام بصورة سليمة. وأعني بذلك نبرة الصوت، وعدم البكاء دون سبب، وعدم ”الزّن“، وعدم مقاطعة الآخرين، وعدم التدخل في الحديث، ومتى يتكلّمون ومتى يصمتون. يتكلّم الأطفال أيضاً بسرعةٍ ويتدخلون لأنّهم لا يثقون بأننا سنسمّعهم لوقتٍ طويل، عندما نسمّعهم ونمنحهم انتباهاً، فهذا

١ قصيدةٌ جحا لشاعر العامية المصريَّ الشابَّ هشامَ الجخ. هذا الشاعرُ يؤمنُ بأنَّ الشعرَ يُسمع ولا يكتب، لذلك لم ينشرْ أشعاره حتّى الآن في أي كتاب، وإنما يقدّمها في حفلاتٍ بمصاحبة الموسيقى. وهو شاعرٌ موهوبٌ في الإلقاء.

يطمئنهم ويعلمهم بالتدريج أن يتكلموا بهدوء ولا يُقاطعوا أحدًا يتحدث.

- بالإضافة إلى التعلّم المباشر، يُعدُّ تحلّي الآباء بالذكاء الوجدانيّ أمام الأطفال والمراهقين أهمّ وسيلة لتعلّم الذكاء الوجدانيّ. فهذا يقدّم الوالدان أُمُودًا حيًا يمكنهم تقليده، فيكبرون وفي داخلهم اقتناع بأنّ المشاعر يمكنُ ترويضها.

عندما نعلّم أولادنا أن يحترموا مشاعرهم ويقبلوها ويعبروا عنها، فإننا نساعدهم أن يختبروا الحياة بكلّ أنواع خبراتها الحقيقيّة وألوانها. وعندما ندرّبهم أن يديروا مشاعرهم ولا يدعوها تتحكّم في سلوكيّاتهم، فإنهم يختبرون النجاح في دراستهم وعملهم وعلاقاتهم وزواجهم لاحقًا.



## نصائح ختامية

- لا يمكن أن تعلم أطفالك إدراك مشاعرهم والتعبير عنها، إلا إذا استطعت أنت أن تفعل الأمر نفسه، وتعيشه بشكل معتاد أمامهم. عندها تكون الحوارات هكذا: ”أتعرف كيف أشعر عندما...؟“ أو ”إنني أشعر ب...“ أو ”عندما حدث... شعرت ب...“ أو ”عندما أرى... فإنني أشعر ب...“. إذا كانت مثل هذه الحوارات موجودة في أسرتك فهي أسرة تتمتع بالذكاء الوجداني.
- عندما تدرك حقيقة المشاعر وأنها المحرك للسلوك (في حياتك وحياة الآخرين)، فإنك تستطيع أن تدرك أن الأمر نفسه يحدث لدى أولادك وبناتك، وتبدأ في فهم أن من وراء سلوكياتهم هناك مشاعر. وعندئذ يمكنك أن تساعدهم وتدرّبهم أن يدركوا هم مشاعرهم ويتحكموا فيها (أي يديروها) لكي يتصرفوا على نحو أفضل.
- قد لا يستطيع الأطفال أن يجيبوا عن سؤال مفتوح مثل: ”كيف تشعر؟“، وإن استطاعوا فقد لا يريدون الإجابة، لكنك تستطيع أن تخمن مشاعرهم وتساألهم أسئلة إجابتها نعم أو لا مثل: ”هل تشعر ب...؟“ وهكذا نعلمهم إدراك مشاعرهم والتعبير عنها.
- تذكر أن الذكاء الوجداني بشقيه- إدراك المشاعر والتعبير عنها من جهة، وإدارتها والتحكم فيها من جهة أخرى- هو أمر يحتاج إلى التدريب والوقت، ولا يمكن أن يحدث بين ليلة وضحاها، كما أنه لا يحدث بالعقاب والإرهاب وإنما بالصبر والمثابرة.

- تذكّر أنّك قد تفعلُ أمورًا أو تقول أشياء تستفزُّ الأطفال. فقبل أن تحاسبهم على ما فعلوه، يجب أن تحاسبَ نفسك وتعتذرَ عن أيِّ سلوكٍ يحوي ”إغاظة“ الأطفال أو تحمّلهم ما لا يستطيعون حمّله.

## دعاء

يا ربّ، عندما كنتُ أشعرُ بالغضب  
كانوا يُرسلونني لأمكثَ وحدي في غرفتي،  
”لا تخرُج من هذا المكان حتّى تعودَ وهناك ابتسامَةٌ على وجهك!“  
عندما كنتُ أحزنُ كان يُقال لي: ”اخرُج فقط من هذه الحالة وابتهج!“  
لذلك أنا الآن أتوقّع الرفضَ والهجرَ بسبب مشاعري.  
ساعدني، عندما أكونُ كسيرَ القلبِ ومنسحقَ الروحِ،  
أن أحترمَ مشاعري وأتعاملَ معها.  
ساعدني أيضًا أن أحترمَ مشاعر أولادي  
وأتعاملَ معهم كما تتعاملُ أنت بحبٍِّ معي ومع مشاعري.

أمين

(من كتاب ”التعافي وحبُّ الله“<sup>٢</sup>).







## الفصل السابع

# التربية الجنسية<sup>١</sup>

كان عمري قد تجاوز العشرين عندما تزوّجتُ، ولم أعرف كيف يُنجَبُ الأطفال. كنتُ أظنُّ أنّ على الزَّوج والزَّوجة أن يناما فقط بجانب بعضهما بعضاً لِيُنجبا أطفالاً!

إحدى عميلاتي

يظنُّ أغلب الآباء والأمّهات أنّ التَّربية والتَّوعية الجنسيَّة هي تلك الجلسة التي يجلسُها الأبُّ مع ابنه، أو الأمُّ مع ابنتها عند اقتراب سنِّ البلوغ أو الوصول إليه. وغالبًا ما يكونُ هدفُ هذه ”الجلسة“ تعريفُ ما يُسمَّى ”حقائق الحياة“ من خلال تقديم معلوماتٍ قد تكونُ فسيولوجيَّة أو عن الممارسة الجنسيَّة، وغالبًا ما تكونُ متلوَّنة بالخبرة الجنسيَّة للوالد أو بموقفهم من الجنس، وكثيرًا ما تكونُ غير صحيحةٍ تمامًا. وفي بعض الأحيان تتأخَّرُ هذه الجلسة، ولا سيَّما بالنسبة إلى الإناث حتَّى ليلة الزَّواج، وقد لا تحدُّثُ أبدًا كما في حالة صديقتنا.

١ أغلب المعلومات في هذا الفصل مُستقاة بتصرُّف من كتاب: ”الحديث مع أطفالكم بشأن الجنس“.

Mar Lasser, *Talking with Your Kids about Sex* (Colorado Springs: Waterbook Press: 1999).

للأسف الشديد عندما ينتظرُ الآباءُ والأمهاتُ حتى ذلك الوقت، فإنَّ الوقتَ غالبًا ما يكونُ قد فاتَ وأفلتتْ أفضلُ الفرصِ لتأسيسِ علاقةٍ صحيَّةٍ للأطفالِ والمراهقينِ بجنسائيتهم (Sexuality). عندئذٍ قد تكونُ أذهانهم قد امتلأتْ بالفعل بكلِّ ما هو مشوِّهٌ ومبتذلٌ عن هذا الجانبِ المهمِّ والمقدَّسِ من وجودنا. لذلك نريد من خلال هذا الكتاب أن نقدِّمَ خُطَّةً شبيهةً مُتكاملةً لكي يَضَعَ الآباءُ والأمهاتُ التوعِيَّةَ والتربِّيَّةَ الجنسيَّةَ في بؤرةِ اهتمامهم بأطفالهم منذ ولادة أولئك الأطفال.

### المرحلة الأولى: "ما قبل الحضانة" (من عمر يوم إلى ثلاث سنوات)

يقول بعضُ الاختصاصيين النفسيين إنَّ ٨٠٪ ممَّا يتعلَّمه الإنسانُ ينبعُ أساسًا من هذه المرحلة في الطفولة. كما أنَّ دراساتِ المخِّ تؤكدُ أنَّ مخَّ الإنسان يصلُ إلى ٩٠٪ من نموه الكامل خلال هذه السنوات الثلاثة.

الكلماتُ المحوريَّةُ في هذه المرحلة هي: الجسم، والكيان المنفصل، والتحكُّم، والأمان، وأخيرًا الثقة. تتميزُ هذه المرحلة باستعدادِ الطفل لمعرفة معالم جسمه الخاصَّة، والتحكُّم في تحقيق الأمان لنفسه، وقبوله نفسه كونه ولدًا أو بنتًا، إضافةً إلى انفتاحه جسديًا على الآخرين والثقة بهم. يحدثُ هذا عندما يستطيعُ الطفلُ أن يشعرَ بالأمان والثقة ويُعطي جسده ليحتضنَه شخصٌ آخرٌ دون خوفٍ أو ضيقٍ أو استغلال. كلُّ هذه العواملُ أساسيةٌ وتلعبُ دورًا مهمًّا جدًّا في الصِّحةِ الوجدانيَّةِ والجنسيَّةِ في أثناء مراحل النموِّ المختلفة، ثمَّ تظهرُ أهمِّيَّتها بوضوحٍ أكثر في العلاقة الزوجيَّة فيما بعد.

شاركنتني إحدى عميلاتي، وقد تعرَّضتُ لإساءةٍ جنسيَّةٍ بالغة في الطفولة، بأنَّها لا تستطيعُ البتَّة أن تخلعَ ملابسها أمامَ زوجها، ولا تستطيعُ أيضًا أن تأمنه على جسدها. أمَّا العمليَّةُ الجنسيَّةُ بالنسبة إليها فهي نوعٌ من العذاب الذي تتغصَّبُ لكي تقومَ به إرضاءً لزوجها. وفي بعض الأحيان تفصلُ وعيها تمامًا في أثناء هذه العمليَّة لثلاً تواجه حقيقةً أنَّها تُعطي جسدها لإنسانٍ آخر. بالإضافة إلى ذلك، فهي تحتاجُ منذ مدَّةٍ إلى الخضوع لعمليَّةٍ جراحيَّة، ولكنها تؤجِّلها لأنَّها

لا تستطيع أن تخلع ملابسها وتستلقي على طاولة الجراحة، وتعرض للتخدير الكامل، وتأمّن الأطباء والممرضين على جسدها.

الأهداف الجنسية في هذه المرحلة:

#### ١. الوعي بالجسد:

عادةً ما لا يكون لدى الطفل حديث الولادة الوعي الكافي بكيانه المنفصل. وهو يشعر بالعجز والاعتماد الكلي على والديه في كل شيء. غير أنه يبدأ بالإحساس باحتياجاته عندما يشعر بالجوع والعطش والألم ويتأكد له أنه يملك جسمه الخاص المنفصل عن الآخرين. وعندما يلقى الرعاية المطلوبة لاحتياجاته من قبل والديه، فإنه يشعر بالأمان أن جسده المنفصل سيحصل على الرعاية دون أن يحتاج لأن يعود إلى رَحْمِ الأم! لذا فإن أحد أهم العوامل الأساسية التي يجب تنميتها داخل الطفل في أثناء نموه هو الإحساس بجسده وكيف يتفاعل مع البيئة.

#### ٢. التحكم في الجسد:

في هذه المرحلة يبدأ الطفل يتعلم بالتدرج المهارات الجسدية، ويستخدمها بمختلف الطرق حتى يكتشف كيف يوظفها. فيبدأ مثلاً في اكتشاف أبعاد قدراته على السير، واكتشاف أعضائه المختلفة والعالم من حوله أيضاً. من خلال هذه التجارب، يختبر الطفل نطاق حدوده، وقدرته على السيطرة على جسده وعلى الأشياء من حوله، كما يختبر قوة إرادته الذاتية. من هذه التجارب ينبع أساس تكوينه الجنسي. فإذا أكدنا للطفل أنه يمتلك أعضاء جسده المختلفة وسيطر عليها، فسيتعلم كيف يكون مستقلاً وواثقاً بنفسه.

#### ٣. الاتصال والانفصال (الانتماء والفردية):

إن الطفل الذي يواجه صعوبة في ممارسة الانفصال والاتصال بسهولة وسلاسة مع والديه - سيجد صعوبة أيضاً في الانفصال والاتصال أو إعطاء نفسه لشخص آخر.

تظهر هذه الصعوبة غالبًا إما في الالتصاق المبالغ فيه وفقدان الهوية في الآخر، وإما الانفصال والابتعاد الشديد وعدم القدرة على إقامة علاقات حميمة، ومن ثم لا يقيم علاقات جنسية. ويشجع بعض الآباء والأمهات اعتماد الطفل كليًا عليهم لئلا يشعروا هم بالوحدة، وهذا يُنشئ أطفالاً معتمدين على الآخرين حتى بعد أن يصلوا سن الرشد والاعتماد على النفس.

#### ٤. الهوية الجنسية:

من المهم في هذه المرحلة أن يتعلم الطفل عن اختلاف النوع والتمايز ما بين الجنسين. التوحد مع الوالد من الجنس نفسه (الأب مع الولد، والأم مع البنت) هو حجر الأساس في تكوين الهوية الذكورية للولد والأنثوية للبنت. ولعلّ فسّل هذا التوحد يشكل حجر الأساس في نمو الانجذاب الجنسي المثلي والذي يُطلق عليه "الشذوذ الجنسي" ٢.

#### واجبات الوالدين الأولى من نحو أطفالهم في هذه المرحلة:

١. توفير التلامس الصحي للطفل.
٢. الاستجابة السريعة لاحتياجات الطفل الأساسية سواء الجسدية أم العاطفية.
٣. توفير الأمان للطفل بما في ذلك الأمان المادّي والنفسي من خلال عدم الترهيب، والاتزان في العقاب.
٤. الموافقة الحكيمة على رغبة الطفل الملحة لمعرفة الأشياء وتجريب الأفعال.

الحضور المستمر للأهل، والاستجابة المباشرة لاحتياجات الأطفال الأساسية تعدّ عناصر مهمة جدًا بالنسبة إلى قدرة الطفل على الشعور بالثقة والأمان، وإقامة علاقات حميمة تتبلور بالزواج والجنس.

٢ لقراءة المزيد عن الجنسية المثلية، راجع كتاب "شفاء الحب" للمؤلف. كما يمكن الاطلاع على كتاب من سلسلة ١٨٠ درجة للمؤلف بعنوان: "صديقي مثلي"، من منشورات أوفير للطباعة والنشر (عمّان، ٢٠١١م).

٥. التدريب على التحكم في التبول والتبرز.

٦. توفير المعلومات الأساسية عن الاختلاف الظاهري ما بين الذكور والإناث.

من المهم أن يتشارك الأبوان معاً في هذه المسؤولية. ومهما حدث من أخطاء، فإنه يمكن تدارك الأمر من قبل الوالدين ما داماً يكتان الحب لبعضهما بعضاً، ولأولادهما أيضاً.

العبث بالأعضاء التناسلية وبذور العادة السرية:

من الطبيعي في هذه المرحلة أن يستكشف الطفل أعضاءه التناسلية ويلا مسها. لا يوجد أي خطأ في هذا الأمر، وعلى الآباء أو القائمين على الرعاية تفهم هذا الأمر وعدم إحراج الأطفال بسببه حتى يتخطى الأطفال هذه المرحلة بسلام. كثير من الآباء والأمهات ينتابهم خوف شديد إذا رأوا أولادهم يعبثون بأعضائهم الجنسية في تلك السن المبكرة. ولأن هؤلاء الآباء والأمهات يجهلون حقيقة مراحل النمو الجنسي للإنسان، فإنهم يقولون لأنفسهم: "إن كانوا يفعلون هذا بأعضائهم الجنسية في هذه السن المبكرة، فكيف ستكون الحال عندما يصلون إلى المراهقة! دون شك، سيصيرون شباباً مُنفلتين جنسياً، أو يصرن عاهرات!" والحقيقة هي أن مرحلة استكشاف الأعضاء الجنسية تحدث خلال السنوات الثلاث أو الأربع الأولى، ثم يقل بعد ذلك اهتمام الأطفال بهذه المناطق بالتدريج. ويشبه هذا الأمر تماماً شراء أحدهم سيارة جديدة- أو أي شيء جديد- فيقضي عدة أيام يعبث بكل جزء فيها، ثم بعد ذلك يقودها يومياً وهو لا يكاد يعي حتى لونها. إنها الحال نفسها بالنسبة إلى جسم الإنسان. خلال هذه السنوات الأولى، يستكشف الطفل جسده ثم بعد ذلك يأخذه على أنه أمر مسلّم به ويهتم بأمور أخرى. قد يؤدي التعنيف المبالغ فيه إلى زيادة اهتمام هؤلاء الأطفال بأعضائهم الجنسية وإلى المبالغة في استئثار أنفسهم جنسياً، وقد يكون هذا نواة لما يخشى الآباء والأمهات ظهوره في وقت لاحق. ومن المهم أن نذكر هنا أن توفير الحب والانتباه والرعاية يقي الطفل من أن يعوّض نقص الحب بطرق مختلفة، ومنها الوَلع المبالغ فيه باللذة الجنسية.

## المرحلة الثانية: "من الحضنة إلى المدرسة" (من الرابعة إلى السابعة)

أولاً: كيف يتفاعل الآباء مع شغف الأولاد بالمعرفة في هذا العمر:

من الأساليب الناجحة أتباع سياسة الإجابة عن أسئلة الأطفال الحقيقية بطريقة بسيطة، مع تأجيل التفاصيل حتى وقت آخر حتى يصلوا إلى سن الثامنة أو التاسعة. ينبغي أيضاً أن يعمل الوالدان على بناء توقع إيجابي لدى أطفالهم عن المعرفة الجنسية، وتحضيرهم أيضاً للحديث الكبير في سن الثامنة أو التاسعة. عادة ما يسألنا أولادنا السؤال التقليدي: "من أين جئت يا أمي؟" يمكن للآم حينئذ أن تجيب بالقول: "عندما يحب أبوك وأمك بعضهما بعضاً، فإنه ينتج عن هذا طفل". وإن قال "ولكن كيف؟" يمكن أن تجيب حينئذ بالقول: "هذا الأمر كالمعجزة ويشبه السحر العجيب والجميل الذي لا يمكن تصديقه. فعندما تصل إلى سن الثامنة سأقول لك كل شيء عنه". غيّر الموضوع بعد ذلك إلا إذا وجدت أن الطفل مضطرب أو قلق، وعادة ما يكون هذا بسبب سماعه أمراً من الخارج جعله مصمماً على المعرفة. فإن كان الأمر كذلك، جسي نبضه لتعريف ما الذي سمعه أو ما الذي حدث. إن اتضح أن الأمر كله هو مجرد عبارة سمعها من الخارج ولم يفهما، اشرحها له بأفضل طريقة ممكنة ثم قولي: "هذا فقط هو أحد الأمور في الموضوع. ولكن سنتحدث بتفاصيل أكثر عندما تصل سن الثامنة".

ثانياً: الأهداف الجنسية في هذه المرحلة:

### ١. الاستمتاع بالجسد:

التوجهات البناءة التي يمكن تنميتها في شخصية الطفل نحو الجنس تبدأ من مشاعر الطفل تجاه جسده. عادةً يستكشف الأطفال المناطق المختلفة في جسدهم وما الذي يستطيعون فعله بها أو فيها في سن مبكرة جداً. إن كان اتجاه الآباء مشجعاً وإيجابياً، فهذا بدوره سيرفع من إدراك الطفل الإيجابي لجسده. وفي هذا العمر، يمكن أن نتنهر الفرصة لنشير إلى جمال الطبيعة من حول الطفل بألوانها واختلافاتها. إن الجسد مرتبط بالطبيعة. وهذا يجعل الطفل ينظر إلى جسده على أنه جزء من الطبيعة، وهو يرسخ في الطفل قدرة على الاستمتاع الحسي بأشياء كثيرة وجميلة في الطبيعة، وبهذا

لا تكون المتعة الحسيّة لديه هي اللذة الجنسيّة فقط.

عندما يتعلّم الطفل أن يستخدم جسده لكي يستمتع حسّيًا بالهواء العليل وموج البحر ورائحة الزهر ومنظر النجيل؛ ويستمتع أيضًا بحمام بارد صيفًا أو دافئ شتاءً بعد لعب الرياضة، ويستمتع بصوت الطيور صباحًا وضوء القمر ليلاً، فإنه يعرف أن جسده مخلوقٌ ليُتيح له الاستمتاع بهذه الأشياء، ومن ثمّ عندما يعرف اللذة الجنسيّة، لا تصيرُ هي الطريقة الوحيدة بالنسبة إليه لاستخدام جسده في المتعة. أمّا إذا لم يعرف الطفل غير الغرف المغلقة والتلفاز والضغط النفسيّ داخل الأسرة، فإنه عندما يختبر بالصدفة أو بغيرها أن جسده يتيح له الاستمتاع من خلال اللذة الجنسيّة، فلا عجب عندئذٍ أن تحتلّ اللذة الجنسيّة لديه مكانًا ومكانةً أكبر من اللازم.

## ٢. الالتزام العائليّ والحبّ:

ما علاقة الالتزام العائليّ والحبّ بالتربية الجنسيّة؟ وكيف يمكن أن يؤثر الالتزام والولاء والحبّ في حديثنا مع أولادنا عن الجنس؟ سيؤثّر في كلّ شيء! سواء كنت تقرأ هذا الكتاب بصفتك شخصًا ملتزمًا بالولاء والحبّ نحو شريك حياتك، أو بصفتك مطلقةً أو أرملةً، فإنه لا تزال تقع عليكم مسؤوليّة إرساء هذه المبادئ في أولادكم منذ الصغر. الفرصة لم تفت بعد وهي لن تفوت؛ فأنت تستطيع أن تتحدّث معهم بشأن هذه المبادئ في أيّ وقت. شارك أولادك بشأن المواقف المختلفة وكيف كانت عائلتك تُظهر لك الحبّ، وكيف كان والداك يفعلان ذلك أيضًا. قصّ عليهم قصصًا عن التزامك وولائك تجاه عائلتك. شارك مثلًا كيف كنت تفرح لأن أختك حصلت على درجات (علامات) أعلى منك في الامتحان، وكيف أنك على الرّغم من شعورك ببعض الغيرة تجاهها، فإنك كنت تفرح أيضًا. وشارك أمورًا عن أبيك الذي فعل كلّ ما في وسعه ليحضر حفلة عيد ميلادك على الرّغم من انشغالاته الكثيرة، حتّى وإن جاء متأخرًا عن الموعد بعض الشيء. إن الأطفال يحبّون الاستماع إلى القصص الحقيقيّة عنك وأنت طفلٌ وعن أجدادهم لما كانوا آباءً. أذكر أن أطفالنا كانوا يلحّون على جدّتهم أن تحكي لهم قصصًا واقعيّة بدلًا من القصص المحفوظة، حتّى وإن كانت القصّة عن قطة

أو كلب! وإن كنت قد نشأت في عائلة مضطربة قلما عرفت الالتزام والولاء والحب، فشارِكهم قليلاً عن أحداث حياتك كيف كانت، وأكد لهم حبك والتزامك تجاههم، وأنتك ستفعل ما في وسعك حتى لا تُعرِّضهم لما تعرَّضت له أنت في عائلتك. من نشأ في أسرة مضطربة لم تعرف الالتزام أو الولاء أو الحب، سيجد صعوبة بالغة في نقل هذه المبادئ إلى أولاده. لذا سيُضطرُّ إلى بذل مجهودٍ مضاعفٍ وواعٍ حتى يُرسي هذه المبادئ في حياة أبنائه لئلا يختبروا ما مرَّ هو به. عند ذهاب أولادك إلى النوم، اجلس بجانبهم وقل لهم شيئاً مثل: ”أفضل شيء في حياتنا هو أننا نحب بعضنا بعضاً“. أو ”إنني أحبكم جداً، وسأظلُّ أحبكم لأنكم أهمُّ أشخاص في حياتي“. أو ”مهما بدت الحياة خارج جدران هذا المنزل صعبةً وقاسية، عليكم أن تتذكروا دائماً أن هناك عائلة هنا تحبكم ومستعدة لسماعكم دائماً“.

أحياناً لا نشعر بالرغبة في قول عبارات كهذه؛ لأننا نظن أنها عبارات سخيفةً بدهية، وكأننا نقول: ”بالتأكيد أنا أحب أولادي، وإلا لماذا أقتل نفسي في العمل ليلاً نهاراً لأوفر لهم كل شيء؟“ هذا الاستنتاج لا يفهمه الأطفال؛ فالأطفال، على العكس من هذا، قد يفهمون غيابك طوال اليوم في العمل أنه كراهية لهم أو عدم اهتمام بهم، أو عدم رغبة في البقاء معهم! لذلك علينا أن نقول للأطفال بعبارات واضحة ومباشرة وصریحة إننا نحبهم. ينبغي للأطفال أن يستمعوا بين حين وآخر إلى العبارات مثل: ”أحبك“، و”أنا فخور جداً بك“. حتى الكبار لا يزال فيهم أطفال يريدون أن يسمعوا كلمات الحب المباشر دون الحاجة إلى الاستنتاجات العقلية. ألا ترغب في أن ينظر إليك أحدهم في عينيك ويقول لك: ”أحبك!“ أعتقد أنك ترغب في هذا، وإن كنت ستشعر بالحرَج الشديد! لا تعتمد أبداً على أن طفلك يعرف جيداً أنك ملتزم تجاهه وتجاه عائلتكم دون الحديث بهذا الأمر. من فضلك تحدَّث معه وأكد له التزامك من نحوه صراحة!

### ٣. الاعتدال في الملابس والمظهر:

من المهم أن تختار الأم الوقت المناسب لتتحدث مع ابنها أو ابنتها بمدى أهمية العناية بالجسد واختيار الملابس المناسبة والتعامل مع الجسم باحترام. أسوأ الأوقات لفتح



هذه الموضوعات هي الأوقات التي تحدث فيها مشكلات. للأسف، نحن دائماً ما نعالج الأمور عندما تتعرض للعطب، غير أن الوقت الأفضل لمعالجتها هو "قبل" ذلك؛ لأن في هذه الأوقات لا نكون محبطين أو دفاعيين. من أفضل الأمور التي يُنجزها الأهل هي فتح باب الكلام عن الاعتدال في الملابس من سنّ الحضانة أو المرحلة الابتدائية مثلاً. فوجود هذه الأحاديث بشكل دائم في العائلة هو ما يرشد اختيارات المراهق حين تبدأ التحديات الحقيقية في الظهور.

٤. علم طفلك احترام جسده:

واليكم المحادثة التالية:

- الأب: سامي. هل يمكنك أن تسرد لي الأمور التي يستطيع جسّدك أن يقوم بها؟

- سامي: نعم. تناول الطعام والجري والسباحة ولعب كرة القدم... إلخ.

- الأب: إن جسّدك عجيب لأنك تستطيع أن تفعل به العديد من الأمور. لذلك فكل جزء من جسّدك هو هبة من الله يجب أن تشكره عليه. ما أجزاء جسّدك التي يمكنك أن تكون شاكراً عليها؟

- سامي: العين والأذن والفم والرجلان... إلخ.

- الأب: كم هو مدهش وجود كل هذه الأسماء المختلفة لأجزاء جسّدنا المتنوعة! هناك أجزاء من أجسامنا نحسبها خاصة جداً لنا. ولأنها تتميز بهذه الخصوصية فنحن نحافظ عليها ولا نعرضها أمام الآخرين، ولا ندع أي شخص آخر يراها. ما هذه الأجزاء الخاصة بك في جسّدك؟

- سامي: هل "البوبو"؟ (قد لا يعلم الأسماء التي تستخدم في البيت ولا يستخدمها، ولكن مع بعض المساعدة يمكن الوصول إلى التسمية العلمية وهي القضيب والخصيتين).

- الأب: حسنٌ جداً! ما أجزاءُ جسد الفتاة الخاصّة بها إذًا؟ (بعد المساعدة يصلُّ الطفل إلى التسمية الصحيحة: الصدرُ والمهبل). ثمَّ يتابع الأب:

- من الغريب حقًا أن هذه الأعضاء في البنت أو الولد لها أسماء كثيرةٌ جدًّا! يُطلقُ الناسُ أيضًا أسماءً مختلفةً على الأمر الذي نستخدمُ فيه هذه الأجزاء الخاصّة من جسمنا. بعضها أسماءٌ لطيفة، وعادة ما تستخدمُها العائلة فيما بينها (تحدّث بشأن ما تستخدمه أسرُكم من أسماء)، وبعضها أسماءٌ أخرى قد تسمعُها في المدرسة. أنت الآن كبيرٌ كفاية لتعرفَ الأسماء الحقيقيّة لهذه الأعضاء؛ لأنَّ الأسماء الحقيقيّة (العلميّة) تُظهِرُ مدى احترامنا لهذه الأعضاء. وبعد أن يقولَ الأب الأسماء العلميّة:

- الأب: يوجدُ أيضًا بعض الأطفال الذين لا يقدرّون جسدهم تقديرًا سليمًا. نجدُ أن البعضَ منهم يحبُّ أن ينعَتَ بعض أعضاءه بكلمات نابيةٍ وقبيحة. ولسببٍ ما يعتقدون أن كثرةَ إطلاقِ النكات والضحك على هذه الأعضاء الخاصّة هو شيءٌ مضحكٌ ومتعٌ لهم ولأصدقائهم. هل سبق لك أن سمعتَ أيًّا من هذه الكلمات من أحد أصدقائك؟ (يجيب الابن وتبدأ المناقشة).

- الأب: عندما تسمعُ مثل هذه الكلمات التي تعتقدُ أنّها تشيرُ إلى أجزاء جسدك الخاصّة، تعالَ دائمًا وشارِكْني بها حتّى نستطيعَ أن نتحدّثَ معًا بشأن هذه الأمور. اتَّفقتنا؟

- الابن: اتَّفقتنا.

- الأب: يوجدُ الكثير من الأطفال الذين يستخدمون أسماءً خاطئةً لأنهم لا يعرفون الأسماء الصحيحة أو المعلومات الصحيحة بشأن هذه الأعضاء.

وما دُمنا نعرفُ الآن أسماءَها الصحيحة، فسَنستخدمُ هذه الأسماء. ونستطيعُ أيضاً أن نستخدمَ الأسماءَ التي نعرفُها، نحنُ العائلة، فيما بيننا لنتحدَّثَ بشأنها وبما تستطيعُ فعلهَ بها. ولكن علينا ألا نستخدمَ الأسماءَ القبيحة. اتَّفقتنا؟

- الابن: اتَّفقتنا.

كيف يحمي الطفلُ نفسه؟

علينا، نحنُ الآباء، مراعاةَ حِفْظِ التَّوازنِ ما بين الإِدلاءِ بمعلوماتٍ أكثرَ من اللازمِ عنِ الجنسِ لأبنائنا من جهة، وعدمِ الاقترابِ من هذا الموضوعِ أو شرحِ أقلِّ القليلِ عنه لأطفالنا من جهةٍ أخرى. إنَّ هدفنا هو أن يعرفَ أولادنا المعرفةَ الكافيةَ التي تجعلُهم يحترمون أجسادَهم ويحِبُّونها، وهذه المعرفةُ تؤهِّلُهم إلى حمايةِ أنفسهم من أيِّ أذىٍ جنسيٍّ قد يتعرَّضون له. علينا أن نحذِّرهم من أخطارِ الأذى الجنسيِّ، ولكن دونِ إخافتهم أو إرهابهم أو خَلْقِ أيَّةِ اتِّجاهاتٍ سلبيةٍ في أنفسهم تُجَاهَ الآخرين. ويجري هذا بالتركيزِ على أنَّ هناك قَلَّةً قليلةً من الناسِ هم الذين يمكنُ أن يؤذوا الأطفالَ، غير أنَّ العددَ الأكبرَ من الناسِ يحبُّ أن يقدمَ إليهم المساعدةَ، كما أنَّه يعملُ على حمايتهم أيضاً.

واليكُم الآن حديثاً دارَ بين أبٍ وابنه:

- الأب: أريدُ الآن أن أحدثكُ بأمرٍ آخرٍ؛ لأنكُ صرتَ كبيراً الآن. هناك بعضُ الأجزاءِ الخاصَّةِ في جسدنا، إضافةً إلى أنَّها تساعدنا على التبولِ، فإنها تساعدنا أيضاً على فعلِ أمورٍ أخرى مُذهلةٌ وهي منحنا الأطفالَ! عندما تُتمُّ الثامنةُ من عمركُ سيكونُ لنا حديثٌ مستفيضٌ أكثرَ خصوصيةً معاً مثل الكبار. وستُدَهِّشُ بما يستطيعُ الكبارُ فعلهَ بأجزاءِ جسدِهم الخاصَّةِ تلك. (ويتابعُ الأب حديثه):

- والآن نحن لا ندعُ أيَّ شخصٍ يلمسُ هذه الأجزاءَ الخاصَّةَ بنا، ليس كذلك؟ أتفهمُ ما أعنيه؟

- الابن: نعم.

- الأب: في عائلتنا، نحن نقبلُ ونحتضنُ بعضنا بعضًا. وهذا النوعُ من التلامس لطيفٌ، أليس كذلك؟ ماذا تشعرُ إن لمس أحد الأشخاص أجزاء جسدك الخاصة بك؟

- الابن: سأشعرُ شعورًا سيئًا جدًّا، كما سأشعرُ بالخوف.

- الأب: حسنٌ جدًّا. إذا هذه هي اللمسة السيئة التي يجب أن تتجنبها. فماذا إذا لمسك أحد الأشخاص في هذه المناطق؟ ماذا ستفعل؟

- الابن: سأركضُ وأصرخُ قائلاً له: "لا تلمسني بهذا الشكل"، ثمَّ أركضُ إليك وأخبرك بكلِّ شيء.

- الأب: هذا صحيح. ولكنك ستجدُ العديدَ من الأشخاص يلمسونك لمساتٍ جيِّدةً ومشجِّعة، سواءً من أفراد عائلاتنا أم من أقرابنا وأصدقائنا وأصدقائك. اعتمدْ على شعورك. إن شعرتَ بشيءٍ من القرف أو الخوف أو المضايقة، فأنت تعرفُ ما ينبغي أن تفعل. لاحظْ أيضًا أنه يحدثُ أحيانًا أن يبدأ الأمرُ بلمساتٍ طيبة، ثمَّ تُغيَّرُ اللمسات. عندما تلاحظُ ذلك عليك أن تحمي نفسك، وأن تمنعَ هذا الشخصَ بأيَّة طريقة كانت.

### المرحلة الثالثة: "الحديث الكبير" (سنُّ الثامنة)

إنَّ السنواتِ ما بين الثامنة والعاشرة، أو ربَّما الحادية عشرة، هي أشبهُ ما تكونُ بنافذةٍ تربطُ ما بين براءة الطفولة وتقلباتِ المزاج التي تُميِّزُ البلوغ. يتَّسمُ الأطفالُ في سنِّ الثامنة عادةً بالتلقائية والبساطة والبراءة والرغبة في إرضاء الآخرين. وهم مُغرَمون إلى حدِّ ما بالعالم من حولهم. هم لم يتعلَّموا بعدُ في هذه السنِّ الخجل والتهمُّم والسُّخريَّة أو حتَّى النقد اللاذع. من المحتمل أن

يكون أولادك قد عرفوا الكثير أو القليل عن الجنس، غير أن الوقت لا يزال في يدك لتعيد نسج حديث بشأن الجنس وفتحته على نحو متوازن وكما ترغب. إن من أكثر الأشياء إيجابية لطفل الثامنة أو التاسعة هو قدرته على التوقع والتشوق الإيجابي الذي تستطيع به أن تبدأ أي حوار إيجابي على مستوى من المرح والحماس تقود به هذا الحديث. سواء كان طفلك في سن أكبر من الثامنة أم أقل، فإن أفضل ما يمكنك فعله هو وضع خطة مسبقة معه تحدد فيها اليوم والأسبوع والمكان الذي ستفتح فيها هذا الحوار معه. كلما استطعت أن تربطه بمناسبة ما مثل عيد ميلاده مثلاً، كان الأمر أكثر تشويقاً. حاول أن تستخدم طرقاً تزيد من حماسه. إليك اقتراحاً للبدء. ابدأ من سؤال بسيط مثل: "من من أصدقائنا يمكن أن تختار الأنسب ليكون أباً أو أمّاً"، أو "أي من الناس يمكن أن يكون أباً جيداً أو أمّاً جيدة؟"

- الأب: ترى، أي نوع من الناس يمكن أن يكونوا آباءً وأمّهات جيّدين؟

- الابن: الأشخاص الذين يحبون الأطفال ويعتنون بهم جيّداً؟

- الأب: هل يُهمُّ أن يحبَّ الأب والأمُّ بعضهما بعضاً؟

- الابن: نعم. هذا أمرٌ مهمٌّ جداً.

- الأب: لماذا يُعدُّ هذا الأمرُ مهمّاً؟

- الابن: لأنَّ الأطفال يحتاجون إلى الحبِّ ودِفءِ العائلة.

- الأب: كيف تعبّر عن حبِّك للناس؟

- الابن: بالكلام والأفعال اللطيفة.

- الأب: هل يمكن أن تعبّر عن حبِّك لأحد الأشخاص بطريقة جسديّة؟

بجسمك مثلاً، أو ذراعيك أو شفّيتك؟

- الابن: نعم أستطيع. يمكن أن أقبل الآخر أو أن أحتضنّه.

- الأب: بالتأكيد. وإن أحبَّ رجلٌ وامرأة بعضهما بعضاً، فما نوعُ القَبْلِ الذي سيُقبَلان به بعضهما بعضاً؟ (قد يحتاجُ إلى المساعدة ليردّ).

- الابن: أطولُ وقتاً، وأكثرُ رومانسيّةً، وفمّاً إلى فمٍ.

- الأب: صحيحٌ يا عزيزي. والآن، هل تعلمُ أنّ هناك حَصَنًا أكبرَ وأمتع يمكنُ للزَّوجين أن يمارساه معاً؟ إنه حقّاً يجعلهما يشعران بمشاعرٍ جميلةٍ ملائمةٍ بالحبِّ نحو بعضهما بعضاً، وهذا أروعُ جزءٍ في الموضوع. إنَّ هذا النوعَ الخاصَّ من الحَصْنِ هو الذي يحتاجُ إليه الطفلُ لينمو داخلَ الأم. أليس هذا رائعاً؟ (يتابع الأب أيضاً قائلاً):

- إنّنا نطلقُ الكثيرَ من الأسماء على هذا الحَصْنِ الخاصِّ. أظنُّ أنّ أفضلَ اسم له هو ”ممارسة الحبِّ“؛ لأنَّ الرجلَ والمرأةَ يجب أن يحبَّ بعضهما كثيراً جدّاً حتّى إنَّهما يقرَّران أن يتزوَّجا قبل أن يمارسا هذا الحَصْنَ الخاصَّ. إنّ هذا الحَصْنَ هو طريقةٌ للإفصاح عن مدى حبِّ شخصٍ إلى آخر. في بعض الأحيان، نطلقُ عليه اسماً آخرَ هو ”ممارسة الجنس“. وأحياناً يُطلقُ عليه أيضاً بعضُ الأسماء البديئة. هل سبق لك أن سمعتَ أيّاً منها؟ كيف شعرتَ عندما سمعتها؟

- الابن: نعم سمعتُ. وقد شعرتُ بالخجل.

- وماذا أيضاً؟

- وبالخوف أيضاً.

- الأب: عندما يستخدمُ الناسُ، غالباً، مثل تلك الألفاظ، فهم لا يفكِّرون في الجنس على أنّه لذةٌ جميلةٌ ورائعة، ولا يعرفون معناه الحقيقيّ. كذلك الأطفال عندما يردّدون تلك الكلمات، فإنَّهم يحاولون أن يَبْدُوا كباراً أو كما يُقال في العاميّة المصريّة: ”رُوشين“ (أي خفيّي

الظلِّ ومَرِحِين). غير أنَّ الحقيقةَ هي أنَّهم يجهلون ما تعرفه أنت الآن عن الجنس. فهم يعرفون القليلَ عنه ولا يعلمون مدى روعة هذا الأمر وخصوصيته.

قبل اليوم المحدد لبدء الحديث، اخترتَ كتابًا مناسبًا يحتوي على صورٍ علميةٍ مفصلةٍ دون خجل لتساعدَ في إيضاح الأمر<sup>٣</sup>، ومن المهمُّ أيضًا قبل أن تستخدمه مع طفلك أن تتصفحه أولاً لتتأكدَ من صحَّة المعلوماتِ الموجودة فيه - أهى معلوماتٌ علميةٌ أم لا؟

---

٣ في زيارةٍ إلى مُتحف التاريخ الطبيعيِّ في لندن، شاهدتُ في القسم الخاصِّ بعلم الأحياء البشريِّ جناحًا خاصًا يضمُّ المعلوماتَ الجنسيةَ، ويحوي صورًا ومجسماتٍ واضحةً وعلميةً. وقد كان الجميعُ يشاهدونها ببساطةٍ ورصانةٍ، ثمَّ دفعتني إلى التساؤلِ يومها: هل يمكن أن يأتي اليوم الذي نشاهدُ فيه متاحف مثل هذه في بلادنا؟



## نصائح ختامية

- ليست التربية الجنسية مجرد نقل المعلومات الجنسية، ولكنها تشكيل توجه صحي عام تجاه الجنس والجسد.
- يبدأ هذا التوجه من تغيير توجه الوالدين أنفسهما تجاه الجنس، والخروج من حالة الخوف أو الخجل المبالغ فيهما. ثمة مشكلة في الثقافة الغربية الحديثة هي أنها ثقافة لا تحترم الجنس إلى حد الاستباحة، ومشكلتنا نحن الشرقيين هي أن ثقافتنا تحترم الجنس أكثر من اللازم إلى حد الخوف والخجل. وكلا الموقفين خاطئان.
- يتضمن هذا التوجه الوعي السليم بالجسد واحترامه وإدارته والتحكم فيه والقدرة على وضع حدود جسدية واحترام حدود الآخرين الجسدية. ويُعدّ تعليم الأطفال عن حدودهم الجسدية واحترام أعضائهم الجنسية وحمايتهم الخطّ الأول لحمايتهم من الاعتداء والتحرش الجنسي.
- يتضمن هذا أيضاً التوجه الصحيّ تجاه الجسد، ويشمل هذا تعليم الأطفال وتدريبهم على الاعتناء بجسدهم والحصول منه على اللذة والاسترخاء بطرق غير جنسية، مثل الاستمتاع بالطبيعة والسباحة والرياضة، والاهتمام المعتدل بالمظهر والأكل الصحيّ. إن الاهتمام بهذه الجوانب يحميهم من الوقوع في إدمان الجنس، ولا سيّما العادة السريّة التي قد تكون الطريقة الوحيدة للاستمتاع بالجسد والتواصل معه في ظلّ غياب الطرق الصحيّة الأخرى.



- يجب أن تتضمن التربية الجنسية أيضاً مفاهيم صحيحة عن الزواج وتقديس الجنس واحترامه في الزواج، والالتزام العائلي والالتزام نحو شريك الحياة، بشكل عام، والالتزام الجنسي بشكل خاص. ينبغي إضافة مفهوم "العذرية" للتربية الجنسية، وقيمة أن يكون الزوج في المستقبل هو الشخص الذي نحفظ عذريتنا من أجله، وينطبق هذا على الرجال والنساء، لا النساء فقط. ويجب التأكيد على أن لهذا الأمر قيمة كبيرة في نظر الله والمجتمع.

## دعاء

يا ربّ، أشكرك من أجل الطبيعة الجنسيّة التي خلقتنا عليها.  
خلقتنا ذكورًا وإناثًا لنحبّ وتكامل بعضنا بعضًا.  
أشكرك من أجل الطبيعة الجنسيّة لأولادي وبناتي.  
ساعدني أن أعلمهم أن يحفظوا هذه النعمة الجميلة  
التي أعطيتنا إيّاها وألا يلوّثوها.

أمين



## الفصل الثامن

# التربية الروحية والأخلاقية

”النسيبة تطبق على الرياضيات وليس على الأخلاقيات“.

ألبرت أينشتاين

الأخلاق هي مبادئ الصواب والخطأ التي يشبُّ الأطفال عليها بسبب التربية والتعليم اللذين يتلقونهما. ليس هذا كتابٌ في علم الأخلاق، لكن هناك بعض القيم الأخلاقية التي أرى أننا نحتاج لأن نتعرَّض لها ونعيد إحياءها في مجتمعاتنا. وعلينا أن نسأل أنفسنا، نحن الآباء والأمهات، عن موقفنا منها، وكيف يمكننا بطرقٍ عملية أن نغرسها في أبنائنا. لكن قبل أن نتعرَّض لهذه القيم، أودُّ أن أعرِّض مراحل النمو الأخلاقي للإنسان بحسب العالم النفسي الأميركي لورانس كولبرغ<sup>1</sup> (Lawrence Kohlberg) الذي يقسّم مراحل النمو الأخلاقي للإنسان ستّ مراحل بحسب الآتي:

المراحل ما قبل التقليدية (Pre- Conventional):

وتشمل الأطفال. وتُقيّم السلوكيات هنا من منظور النفس فقط.

1 [http://en.wikipedia.org/wiki/Kohlberg's\\_stages\\_of\\_moral\\_development#Post-Conventional](http://en.wikipedia.org/wiki/Kohlberg's_stages_of_moral_development#Post-Conventional)

- المرحلة ١: الأخلاق المدفوعة بالعقاب  
في هذه المرحلة، يكون الخطأ الذي يتجنبه الفرد هو الخطأ الذي يجلب العقاب والألم، والسلوك الأسوأ هو السلوك الذي يجلب العقاب الأشد.

- المرحلة ٢: الأخلاق المدفوعة بالمصالح  
في هذه المرحلة المنحصرة في الذات، لا يوجد بعد اهتمام بمصالح الآخرين، بل يُقِيم السلوك بقدر ما فيه من فائدة للنفس أو الأسرة المباشرة أو الجماعة الدينية أو العرقية. ويبرز هذا النوع من الأخلاقيات علاقات المنفعة وعدم التزام الفرد الوعود والعهود والعقود وتغيير المواقف والمبادئ إذا تعارضت مع المصالح.

### المراحل التقليدية (Conventional):

وتشمل المراهقين وأغلب الراشدين. وتُقيّم السلوكيات هنا من منظور قيم الجماعة أو قوانين المجتمع.

- المرحلة ٣: الأخلاق المدفوعة بالتوافق مع الآخرين  
تُقيّم السلوكيات هنا بتأثيرها في حصول الإنسان على الموافقة من الآخرين والتوافق معهم. إن هذه الطريقة في التقييم شائعة جداً بين المراهقين، غير أن الكثير من الراشدين يظنون في هذه المرحلة حتى بعد تجاوزهم سن المراهقة. فهناك من يُصَلِّي فقط لكي يراه الناس مصلياً، أو يتظاهر بالصوم أمام الناس بينما هو مُفطر، أو من يفعل أشياء غير مقنعة بها أو ربما لم يفكر قط في منطقيتها، وذلك فقط لئلا يخرج عن الإجماع أو يخرق الثوابت.

- المرحلة ٤: الأخلاق المدفوعة بالطاعة للقانون  
في هذه المرحلة يُقيّم السلوك وفقاً لتوافقه مع القوانين التي تهدف إلى المصلحة العامة للمجتمع، حتى إن لم يكن هذا السلوك مفيداً للعلاقات المباشرة. بالنسبة إلى المرحلة السابقة، يمكن للمراهق أن يكسر القانون لكي ينال رضا أقرانه وموافقته. أما في هذه المرحلة، فهو يطيع القانون حتى لو تعرض لرفض الأقران أو استهجانهم؛ لأنه يؤمن بأن

القانون يُراعي مصالح الجماعة. ينبغي لكل من وصل سن الرشد وتجاوز المراهقة أن يكون قد وصل إلى هذه المرحلة. غير أن كثيراً من الراشدين لم يصلوا بعد إلى هذه المرحلة الأخلاقية. ويشجع على ذلك أيضاً عشوائية القوانين وعدم مشروعيتها أو ديمقراطيتها، بالإضافة إلى ضعف الدولة في تطبيق تلك القوانين.

## المراحل ما بعد التقليدية (Post-Conventional):

وتشمل رواد التغيير.

### • المرحلة ٥: أخلاق العقد الاجتماعي

العقد الاجتماعي هو الاتفاق المكتوب بين الفرد والجماعة الذي بمقتضاه يتنازل الفرد عن بعض من حريته الفردية ليُطبع قوانين موضوعة لمصلحة المجتمع. فمثلاً، يتنازل الفرد عن قيادة سيارته بالسرعة التي يريد ويلتزم السرعات المحددة؛ لأن ذلك في مصلحة الآخرين. إن هذا العقد الاجتماعي هو المبرر الشرعي للقوانين. أما إذا كانت القوانين قد وُضعت بطريقة سُلطوية غير ديمقراطية؛ ولا تحقق العدالة وحقوق الإنسان، ولا تؤدي إلى تحقيق الخير الأسمى لأكبر عدد من الناس، فإن الواجب الأخلاقي في هذه الحالة هو رفض هذه القوانين ومحاولة تغييرها بالطرق الديمقراطية. عام

١٨١٥م، وقف وليم ويلبرفورس (William

Wilberforce)<sup>٢</sup> وصرخ في مجلس العموم

البريطاني طالباً أن يأتي اليوم الذي لا يكون

فيه بشرٌ عبداً. وظل القانون يراوح مكانه ١٨

سنة، إذ لم ينجح مشروع القانون. غير أن

ويلبرفورس استمر في نضاله حتى قبل مشروع



2 [http://en.wikipedia.org/wiki/William\\_Wilberforce](http://en.wikipedia.org/wiki/William_Wilberforce)

القانون ضدَّ العبودية سنة ١٨٣٣م، وكان ذلك قبل وفاته بأربعة أيام، وهكذا انتهت العبودية. مثل هؤلاء الرجال والنساء الأخلاقيين يغيرون العالم.

#### • المرحلة ٦: مرحلة المنطق المجرد

في المثل السابق، سلك البرلماني البريطاني القنوات الديمقراطية لتغيير القانون. غير أن الأمر في بعض المرات لا يكون مَهْدًا، بل يحتاج إلى تحدي القوانين الظالمة، ودفع الثمن وبذل التضحيات. في الأول من كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٥٥م، رفضت روزا باركس (Rosa Parks) - وهي سيّدة أميركية ملوثة (أفريقية الأصل) كانت تبلغ حينئذ الثانية والأربعين من العمر - أن تتخلّى عن مقعدها في مقدّمة الحافلة لرجل أبيض، وذلك في إحدى ولايات الجنوب (ألاباما) حيث كانت تُطبّق سياسات الفصل العنصري. هذا العمل الثوري الذي قامت به باركس، فتح الباب أمام حركة الحقوق المدنية للسود، حتّى إنَّ الكونغرس الأمريكي أسماها في ما بعد السيّدة الأولى لهذه الحركة. ولا يستطيع أحد أن يحتجّ على أخلاقيّة هذا العمل على الرُغم من أنّه يُعدُّ نوعًا من مخالفة القانون والعصيان المدنيّ.



بعد ذلك بنحو ٦ أعوام، وتحديداً في الرابع من أيار/مايو عام ١٩٦١م، قرّرت مجموعة من نشطاء الحقوق المدنية الأميركيين أن يركبوا إحدى الحافلات بحيث يكون السود في المقدّمة، والبيض في آخر الحافلة ويتجهوا إلى الجنوب حيث كان يُمارس هذا الفصل

العنصريّ. تعرّض هؤلاء للضرب والاعتقال، لكنّ بعد ذلك توالت هذه الرّحلات التي أُطلق عليها ”رحلات الحرّية“ (Freedom Rides) التي لفتت انتباه الرأي العامّ الأميركيّ إلى هذه القوانين والممارسات المجحفة. وقد أدّى هذا في النهاية إلى انتصار هذه الحركة ضدّ القوى العنصريّة.

عندما تسود الأخلاق ما قبل التقليدية الراجعة في الهرب من العقاب والحصول على المكافأة بين الأطفال، فهذا أمرٌ طبيعي. وعندما تسود بين المراهقين أخلاق التوافق الاجتماعي الهادفة إلى مجرد أن يكون المرء مقبولاً من الجماعة، فهذا طبيعي أيضاً. أما عندما تظل هذه الأخلاقيات سائدة بعد هذه المراحل العمرية، فهذا ما يمكن أن يُعدَّ "تخلُّفاً أخلاقياً". والمؤسف في الأمر هو أن هذا التخلُّف الأخلاقي هو القاعدة في أغلب البلاد المتأخرة حضارياً، وإن كان لا ينقصها التدنُّن الظاهري، كما هي الحال في بلادنا. جديرٌ بالذكر أيضاً أن الإنسان يمكن أن يتطوَّر أخلاقياً، ثمَّ يمرَّ بفتراتٍ ردَّةٍ في تطوُّره الأخلاقي بسبب ضغوطٍ نفسيةٍ أو اجتماعيةٍ، ثمَّ يمرَّ ثانيةً بحياته موسمٍ آخرٍ من مواسم العمر يحرز فيه تقدُّماً أخلاقياً بسبب نموِّ روحيٍّ ووجدانيٍّ من خلال علاقاتٍ أكثر إيجابية بالله والنفس والآخرين.

### قيَم أخلاقية تحتاج إلى التوكيد

عندما يعاني مجتمع من جرء ردَّة حضارية وأخلاقية، فإنَّ الأخلاق تصيرُ مدفوعةً أساساً بالخوف من العقاب، أو تحقيق المصالح، أو على أقصى تقدير، أخلاقيات التوافق مع الآخرين وتجنُّب الرِّفض والعزل.

عندما يعاني مجتمع من جرء ردَّة حضارية وأخلاقية، فإنَّ الأخلاق تصيرُ مدفوعةً أساساً بالخوف من العقاب، أو تحقيق المصالح، أو على أقصى تقدير، أخلاقيات التوافق مع الآخرين وتجنُّب الرِّفض والعزل.

وعندما تعاني الدولة من جرء ضَعْفٍ ورخاوةٍ وتعاؤسٍ في تطبيق القوانين؛ ومن ثمَّ يتناقص الخوف من العقاب، عندئذٍ تصيرُ الأخلاقيات الأكثر أتباعاً هي فقط الأخلاقيات المرتبطة بالرفض والقبول من الآخرين، ومن ثمَّ المرتبطة بالشكل الخارجي الذي يمكن أن يراه الآخرون، مثل الاحتشام أو التزام الطقوس الدينية، والحضور بأعدادٍ غفيرةٍ في دور

العبادة، أو أخلاقيات الكلام المباشر، مثل تجنّب رَفَعِ الصَّوْتِ، أو تجنّب الألفاظ القبيحة أو السلوك الجنسيّ الفاضح، أو عدم تناول مأكولاتٍ أو مشروباتٍ غير مقبولةٍ اجتماعيًا، أو عدم التدخين أو السُّهْر، والعودة إلى المنزل في أوقاتٍ مقبولةٍ اجتماعيًا من الجيران. أمّا الأخلاق التي لا تعبّر عنها سلوكيّاتٌ ظاهريّة، فهي تُعاني ضَعْفًا شديدًا. من أمثلة هذه الأخلاقيّات الغائبة في مجتمع الأخلاق الظاهريّة ما يلي:

- الصدقُ وَقَوْلُ الحَقِّ دون خِشْيَةِ اللُّومِ.
- العطاءُ وإحساسُ الأفراد بغيرهم.
- الغفرانُ والتَّسامحُ.
- الوفاءُ بالوَعودِ والتزامُ العهودِ والعقودِ مهما كانتِ المِغْرِياتِ.
- حفظُ حقوقِ الآخرين حتّى لو لم يُطالبوا بها.
- الثَّباتُ على المواقِفِ مهما كانتِ المِصاعِبِ.
- الشّهامةُ ونُصرةُ الضَّعيفِ والمظلومِ.
- المواجهَةُ وعدمِ الاغْتِيابِ والنَّميمةِ.
- عدمُ الأخذِ بالشبهاتِ، وعدمِ التريثِ ولا الاستماعِ للطَّرْفَيْنِ.
- التعمُّلُ الناصِحُ مع المالِ دون بخلٍ أو إسرافِ.
- التعمُّلُ الناصِحُ مع الجنسِ دون كِبْتِ وإنكارِ، ودون تسيّبِ وانفِلاتِ.
- أولويّةُ الجوهرِ على المظهرِ.
- قبولُ الآخرين واحترامُهم مهما اختلفنا عنهم أو معهم.

### كيف نغرسُ هذه الأخلاقيّاتِ في الأطفالِ والمراهقين؟

لأنّ هذا الكتابُ عن التربية وليس عن الأخلاق، فإننا لن نستفيضُ في شَرْحِ هذه الأخلاقيّاتِ وتناولِ القضايا التطبيقيةِ الخاصّةِ بها، ولكننا سنتناوَلُ هذا السؤالَ: كيف يمكنُ أن نغرسَ هذه الأخلاقيّاتِ في الجيلِ التالي؟ إنَّ الأخلاقيّاتِ لا تُغرسُ بالثَّوابِ والعقابِ، أضف إلى



إنَّ التعلِيمَ المصْحوبَ بالقدوة  
والمُتَابَعَةَ يَجْعَلُ الْقِيَمَ الْأَخْلَاقِيَّةَ  
مَعْتَقَدَاتٍ مَحْوَرِيَّةً رَاسِخَةً فِي  
وَعْيِ الْإِنْسَانِ وَضَمِيرِهِ.

هذا أن الاعتمادَ على الثواب والعقاب في غرس  
الأخلاقيات يجعلها دائماً على المستوى ما قبل  
التقليدي، أو التقليدي على أقصى تقدير. أمّا  
بالتعليم والقدوة والمتابعة فإن القيم الأخلاقية تصير  
معتقدات محورية راسخة في وعي الإنسان وضميره  
بحيث لا يستطيع أن يخالفها ويبقى مع هذا في حالة من الشعور بالآثران.

وأقصد بالتعليم هنا شرح القيمة الأخلاقية والحديث بشأنها في كل مناسبة تسنح لذلك،  
ثم يأتي دور القدوة حيث يعيش الآباء والأمهات ما يعلمونه لأولادهم وبناتهم، وليس المقصود  
بالقدوة ألا يفشل الآباء والأمهات البتة في تطبيق المبادئ الأخلاقية، بل المقصود أن يكون  
تطبيقها هو القاعدة، والفشل هو الاستثناء. وإذا حدثت وفشلوا في ذلك، فإن عليهم أن يعترفوا  
بفشلهم ويعتذروا عنه. عليهم أيضاً أن يتابعوا تنفيذ أطفالهم لهذه المبادئ، وخلال المتابعة حين  
دور الثواب والعقاب.

أود أن أقول هنا إن التعليم والتوبيخ الأخلاقي لا يحدثان دائماً من الوالدين للأبناء،  
بل قد يحدث بالعكس أيضاً. فمؤخراً كنت مع أسرتي في إجازة، وكنا نقيم في بيت شبيه  
ببيوت الشباب. وبعد أول أسبوع لنا في ذلك المكان، حلت علينا أسرة إسبانية كاثوليكية  
كبيرة العدد (والكاثوليك معروفون بالأسر الكبيرة). كان في هذه الأسرة عدد كبير من  
الأطفال الصغار، وكانوا يحدثون قدرًا لا بأس به من الضوضاء، فكنا وزوجتي نتندّر عليهم  
مُشبهين إياهم بالأسر التي جاءت في بعض الأفلام الأميركية الكوميديّة الشهيرة مثل  
(Cheaper by the Dozen) أو (Home Alone). عندها استوقفنا ابنتنا الأصغر الذي لم  
يبلغ بعد الثالثة عشرة موبّحًا إيانا حيث قال ما معناه إن اختلافنا مع أسلوب حياتهم لا يبرّر  
لنا السخرية منهم. فاعترفنا بذلك وكانت هذه فرصة ثمينة لنا لأن نتحدّى بعضنا بعضًا على  
الصعيد الأخلاقي.

## أَخْلَاقِيَّاتُ الْحَبِّ

الحبُّ هو المادّة الخام للأخلاق. لكن أيُّ حبٍّ؟ إنّه الحبُّ الذي يحبُّ الجميعَ دون شروط. إنّه تلك القاعدة الذهبية التي توصي بأن تحبَّ الآخر وتفعلَ له ما تتمنى أن يفعله من أجلك. هذا هو غاية النموّ الروحيّ والأخلاقيّ. هذا ما نحتاجُ لأن نتعلّمه، ونعلّمه لأولادنا وبناتنا. يقدّم الفيلسوفُ الأمريكيّ المعاصر دالاس ويلارد (Dallas Willard) <sup>3</sup> أوصافاً ثلاثة لهذا النوع من المحبّة التي تشكّل النموّ الأخلاقيّ الأسمى. وهذه الأوصاف هي:

- القبول وعدم الإدانة. عندما نتعلّم أن نقبلَ كلَّ البشر رغم اختلافنا عنهم.
- الحرّيّة وعدم السيطرة. أن نسمَح لأنفسنا وللآخرين بأن يختاروا بحرّيّة.
- الطلب بتواضع. ليستِ الحرّيّة أن نتركَ أنفسنا لنفعلَ أيّ أمرٍ يحلو لنا ونتركَ الآخرين ليفعلوا ما يحلو لهم. ينبغي أن تكونَ الحرّيّة في حدود المصلحة العامّة والخاصّة. المهمُّ أن توضعَ هذه الحدود من خلال الطلب وليس التسلُّط والسيطرة. وذلك عندما نطالبُ أنفسنا بعدم التعدّي على الآخرين، ونطلب من الآخرين بتواضع أن يحترموا حدودنا ولا يتعدّوا على مصالحنا.

ويعكسُ هذه المبادئ الثلاثة أيضاً الدكتور يحيى الرخاوي في القصيدة التالية من ديوانه ”سرُّ اللعبة“؛:

لن ينجوَ أحدٌ من هَوَلِ الزلزالِ  
 إلّا من أطلَقَ للطفلِ سراحه  
 كي يضعفَ... أو يخطئَ.... أو يفعلها  
 لن ينجوَ أحدٌ من طُوفانِ الحرمانِ

3 Dallas Willard, The Divine Conspiracy, Rediscovering our hidden life in God (Harper Collins: San Francisco, 1997)

4 يحيى الرخاوي، دراسة في علم السيكيوباتولوجي. شرح ”سرُّ اللعبة“ (القاهرة: جمعيّة الطبّ النفسيّ التطوّريّ، ١٩٧٩م) ص. ٥٣٢-٥٣٥.

إلا من حلَّ المسألة الصعبة  
أن نُعطيَ للطفل الحكمةَ والنُّصحَ  
دون مساسٍ بطهارته، ببراءته، بحلاوة صدقه

.....

هل يمكن؟  
هل يمكن أن نجعلَ من ذاك الحيوان الباسم  
إنساناً يعرفُ كيف يدافع عن نفسه  
ببراءة طفل  
وشجاعة إنسان لا يتردُّدُ في قول الحقِّ  
بل في فرضه؟  
تلك هي المسألةُ الصعبة

.....

كيف ”يكون“ الإنسانُ الحرُّ  
يترعَّعُ في أمنِ الخيرِ  
ينمو في رَجَمِ الحبِّ؟

.....



## نصائح ختامية

- التربية الأخلاقية تكون ليس فقط بالثواب والعقاب، بل بالشرح والتعليم والقدوة والمتابعة أيضًا.
- القدوة تعني أنه ينبغي لنا أن نعيش المبادئ الأخلاقية التي ننادي بها ونعلمها للأطفال.
- القدوة تعني أيضًا أنه عندما نفشل في أن نعيش القيم الأخلاقية التي نعلمها للأطفال، يجب أن نعترف بذلك ونعذر دون دفاعية ومقاومة.
- سيعيش الأطفال المبادئ الأخلاقية التي تعيشها أمامهم أكثر من التي تعلمها إياهم.
- عندما تجد في أطفالك سلوكيات لا تعجبك، اسأل نفسك وافحص سلوكك: هل تمارس تلك الأمور ذاتها؟
- الحب مصدر الأخلاق؛ فالأخلاق هي أن تحب الآخر ولا تسيء إليه. ويمكن أن يكون هذا الآخر الفرد أو المجتمع أو حتى البيئة المحيطة بنا.

## دعاء

ياربّ، امتحنني أن أحبّ من دون شروط .  
أن أحبّ نفسي فأسعى بها خطوةً إلى الأمام وأعلّمها أن تحبّ .  
أن أحبّ الآخرين فأقبلهم وأطلب منهم بتواضع .  
أن أحبّ أولادي فأسمح لهم بالحياة وأجعلهم يحبّون الأفضل فيها ،  
وأن أحبّك بالحبّ الذي تزرعه في قلبي ؛  
فكلّ الأشياء هي منك وبك ولك .

أمين





## الفصل التاسع

# التربية في ثقافات متصارعة

”إذا كنت تكره إنساناً فأنت تكره شيئاً فيه هو جزء منك. ما ليس جزءاً منا لا يزعجنا“.

هرمان هسه

تشكلُ تربيةُ الأطفال وسطَ قِيم وثقافاتٍ مُتصارعةٍ تحديًا حقيقيًا للآباء والأمهات. يمكنُ أن يحدث الصراعُ ما بين ثقافتَي الأسرة المباشرة والأسرة الممتدة، ولا سيَّما الأجداد والجدَّات الذين ينتمون إلى جيلٍ سابق. وبسبب الثورة المعلوماتية صارتِ الهوية ما بين الأجيال أوسع كثيرًا ممَّا كانت عليه قبل هذه الطفرة الحضارية. يمكنُ أن يكون الصِّراع أيضًا ما بين ثقافة البيت وثقافة المدرسة<sup>١</sup>، أو ثقافة البيت وثقافة المجتمع، لا سيَّما إذا كان هذا ”البيت“ ينتمي إلى أقلية دينية في الوطن الأم أو أقلية عرقية وثقافية في بلاد المهجر.

١ لقد دفعت هذه الهوية بعض الأميركيين المتدينين لأن يبدأوا حركة التعلُّم من البيت (Home Schooling) لحماية أبنائهم من تأثير التعليم الحكومي الذي قد يكون مُعاديًا لبعض القِيم الدينية، أو ربما يقدمُ نظريات يرفضها هؤلاء المتدينون مثل نظرية التطور، أو ممارسة حرّية جنسية غير مقبولة بالنسبة إليهم.

## الأسرة المباشرة والأسرة الممتدة ورسم الحدود

إن مبدأ الحدود والمسافة ما بين الناس هو من المبادئ الأساسية في العلاقات بشكل عام مهما كانت درجة القربى. حتى عظام الجسد الواحد هي مرتبطة ببعضها بعضاً بمفاصل. والمفارقة في المفصل هو أنه يصل ويفصل في آن معاً؛ فالمفصل متصل من الخارج بروابط ومنفصل في الداخل ليسمح بالحركة. يجب أن تكون العلاقات داخل الأسرة على هذا النحو أيضاً. هناك روابط وصلات رحيم، لكن لأننا مختلفون في الشخصيات والآراء، وبصمات الأصابع، فإن هناك مسافات وقواصل يجب أن تكون قائمة تسمح بالاختلاف وحرية الحركة.

ليس عقوقاً بالوالدين أن يجري  
منهما من التدخل أكثر من  
مجرد النصيحة في تربية الأطفاد  
والحفيدات.

لهذا السبب يجب أن تكون حدود المسؤولية واضحة. فالمسؤولان الوحيدان عن تربية الأطفال هما الأب والأم، ويجب ألا يتدخل الأجداد والجدات في هذه العملية إلا على سبيل النصيحة، ويطلب من الوالدين وتحت إشرافهما وتبعاً للقواعد

التي اختارها لتربية أبنائهما. وعندما يطلب الزوجان - حديثا العهد بالزواج عادة - من أمهاتهما رعاية أطفالهما في أثناء غيابهما - وهذا قد يطول أو ربما يتحول إلى نمط متكرر ومستمر بسبب طبيعة عمل الزوجين - فإن هذا قد يضع الزوجين في موقع لا يسمح لهما بالاختلاف مع الجدات في التربية، أو بتحديث طريقتهن فيها. هنا ينبغي أن نذكر بعض المبادئ:

- أولاً: المساعدة لا تبرر التدخل. هذا المبدأ نافذ في العلاقات الدولية، وينبغي أن يكون نافذاً أيضاً في العلاقات الأسرية. فيفترض ألا تبرر المساعدات التي تقدمها دولة متقدمة إلى دولة نامية تدخل تلك الدولة المتقدمة في سياسات الدولة النامية. فيجب ألا تفرض أية إملاءات على الدولة النامية في كيفية إنفاق هذه المساعدات، وإلا صار هذا انتهاكاً لسيادة الدولة المتلقية للمساعدات، ويكون الأمر أشبه باحتلال مُقنّع.
- ثانياً: كما أن من لا يملك رغيّفه لا يملك استقلاله، فإن من لا يملك وقته ومجهوده؛ ومن لا يرتب أولوياته جيّداً، لا يستحق أن يحصل على استقلاله، ومن أبرز مظاهر



الاستقلال هنا حتى تقرير طريقة تربية الأطفال . من يريد أن يمارس سلطانه بصفته والدًا في تربية الأولاد، يجب أن تكون تربية الأبناء لديه أهم من العمل، ولا سيما بالنسبة إلى النساء وهذا تحديدًا عند الحديث بشأن السنوات الأولى للأطفال (حتى سنّ العاشرة أو الثانية عشرة).

- ثالثًا: الكلام بطريقة مباشرة وحاسمة، وفي الوقت نفسه بودًا واحترام، هو أفضل طريقة لحلّ الصراعات وحسّم الخلاف في وجهات النظر.

على خلفيّة هذه المبادئ الثلاثة نقدّم النصائح الثلاث التالية:

١. يجب على الزوجين أن ينقلا رغبتهما في أن يحترما والديهما، وفي الوقت نفسه يجب أن ينقلا أيضًا إصرارهما على الاحتفاظ بحقّهما ومسؤوليّتهما في أن يربّيا أبناءهما بحسب ما يريانه مناسبًا. أذكرُ حوارًا دار بيني وبين أمّي في هذا الأمر حيث قلت لها: ”أمّي العزيزة. لقد ربّيتنا أنا وأخي كما استحسنّت، ونشكرك على ذلك. تلك كانت عطيتك لنا ومسؤوليتك مجّاهنا. لكنّي أحبّ بكلّ الاحترام أن أقول لك إنّ هذه المسؤولية لا تمتدّ إلى الجيل التالي“.
٢. يجب أن يكون الزوجان واضحين تمامًا في نقل فلسفتيهما وطريقتيهما في التربية إلى الجدّة، وعليهما أيضًا أن يُعلّقا على المواقف ويُقدّما الشرح للجدّة بشأن الطرق المرفوضة التي تستخدمها هي، وذلك دون عنف أو تعدّ، ودون خجلٍ أو تجنّب أيضًا. في أغلب الأوقات تنصاع الجدّة المحبّة الراغبة في المصلحة لرغبة الوالدين، لا سيما إذا كانت مصحوبةً بالشرح ومقدّمةً بطريقة تُظهرُ الحبّ والاحترام والاعتراف بالجميل، فهذا كله يساعدهما.
٣. يجب أيضًا أن يكون الزوجان مستعدّين لأن يعتمدا على نفسيهما تمامًا في تربية أولادهما في حال ربطت الجدّة ما بين مساعدتها لهما في تربية الأبناء واستخدام طريقتها في التربية. ويجب أن يوضّحا ذلك للجدّة بعد أن يشكّراها على استعدادها للمساعدة، وفي الوقت نفسه- ولبلاقة أيضًا- يجب أن يوضّحا لها أنّ المساعدة لا تبرّر التدخّل.

بكل أسف، كثير من الآباء والأمهات قد صاروا آباءً وأمّهاتٍ قبل أن يُفطموا نفسيًا عن آبائهم وأمّهاتهم. بالإضافة إلى ذلك يوجد خلطٌ ما بين مبادئ إكرام الوالدين وعدم العقوق بهما من جهة، ومبادئ الحدود في المسؤولية من جهةٍ أخرى. ليس عقوقًا بالوالدين أن يجري منعهما من التدخل بأكثر من مجرد النصيحة في تربية الأحفاد والحفيدات.

ويقدم غاري تشابمان<sup>٢</sup> (Gary Chapman) ست نصائح مهمة للأسرة المباشرة في التعامل مع الأسرة الممتدة. أقتبس منها النصائح الثلاث التالية:

١. أصغوا قبل أن تتكلموا؛ فالإصغاء المتمعّن والمتمهّل هو أساس التواصل الوجداني وتجنّب الجدل والهجوم والدفاع.

٢. تعلّموا فنّ إبداء الاحترام. قد يكون الاحترام موجودًا، بصفته توجّهًا أخلاقيًا داخليًا، لكننا لا نحسن التعبير عنه. يمكن التعبير عن الاحترام من خلال احترام التقاليد الأسريّة المتبعة مثل تقاليد الأعياد، أو احترام الاختلافات العقائديّة والمذهبيّة، والقناعات السياسيّة والاجتماعيّة، وعدم التدخل في الشؤون الخاصّة للأسرة إلا إذا طلب ذلك صراحة. في بعض المرات يحسب زوج البنت (الصهر) نفسه مسؤولًا عن إخوتها وأخواتها، ويدخل في حياتهم مما يؤدي إلى نشوب خلافات، وربما يسبب جرحًا.

٣. التمسوا ولا تطلبوا. عندما تطلب ملتئمًا فهذا يعطي الآخر حرّيّة ويجعله راغبًا في تحقيق التماسك. أمّا المطالبة فتحمل نبرة السيطرة والتسلط، ممّا يضع الآخر في وضع الدفاع، وهذا لا يشجّع العلاقة الحميمة.

## الأسرة والمدرسة والتواصل بينهما

يعدّ التواصل والتوافق ما بين الأسرة والمدرسة - باعتبارهما شكلين من أشكال السلطة -

٢ غاري تشابمان، "علاقات الزوجين بيت الحمأ" (In Law Relationships) ترجمة عصام خوري (عمّان: أوفير، ٢٠٠٩م).

أمرًا شديد الحيويّة في تنشئة الأطفال. ومن المأسى الموجودة في مجتمعاتنا العربيّة غيابُ العنصرِ التربويّ في العمليّة التعليميّة، وعدم الأخذ كثيرًا بمعايير النُصح النفسي والأخلاقيّ عند اختيار المعلمين. يجب أن يحسبَ البيتُ أنّ المدرسةَ هي امتدادٌ له. وأنّ تحسبَ المدرسةُ أيضًا أنّ دورها لا قيمةَ له إذا هدمَ البيتُ هذا الدور. لذا يجبُ ضَبْطُ المعايير الأخلاقيّة والسلوكيّة بينهما؛ لأنّ ما هو خطأ في البيتِ يجب أن يكونَ خطأً أيضًا في المدرسة، والعكس صحيح.

من الأخطاء الكبرى التي يقعُ فيها الأهلُ أن يحسبوا أنّ المدرسةَ هي عدوٌّ فيستجيبوا لمحاولاتِ الأبناء استعداءهم على المعلمين للهروب من المسؤوليّة والعقاب. وعلى الجانب الآخر، يمكنُ للأهل أن يتطرّفوا في عقاب الأبناء بإعازٍ من المعلمين، وذلك بسبب شعورهم بالخزي إذا اتهمهم أحدٌ صدقًا أو زورًا أنّهم ”لم يُربُّوا أبناءهم كما ينبغي“، وبسبب رغبتهم في أن تبدو ”تربيتهم“ كاملةً ودون عيبٍ أمام المعلمين. من المهمّ أن يحافظَ الآباءُ والأمّهاتُ على اتزانٍ موقفيهم وتحميهم الدقّة والحقيقة بدلَ التحيزِ للأبناء أو التبرُّص بهم.

إنّ زيارةَ الطفل في المدرسة هي من الأمور التي يحتاجُ إليها الطفل سواءً كانت زيارةً لمتابعته أكاديميًا أم استجابةً لدعوةِ المدرسة، أم لحضور أحدِ الأنشطة الثقافيّة أو الرياضيّة. وتلعبُ الزيارةُ في حدّ ذاتها، بغضّ النظر عن سببها، دورًا إيجابيًا في العلاقة ما بين الطفل والديه. ويمكنُ أن نقدّمَ بشأن هذا الموضوع النصائحَ العمليّة التالية:

- أوّلًا: زيارةُ الأمّ والأب (ولا سيّما الأب الذي عادةً ما يكونُ أكثرَ انشغالًا من الأمّ في العمل، وأقلُّ تورطًا في حياة الأطفال المدرسيّة) توصِلُ رسالةَ الاهتمام والأهميّة إلى الأطفال.
- ثانيًا: يفتخرُ الأولادُ بأبائهم وأمّهاتهم أمام معلّميهم ومعلّماتهم وزملائهم، لذا ينبغي للآباء والأمّهات أن يرتدوا ملابسَ أنيقةً ويبدون في أفضل صورةٍ لديهم.
- ثالثًا: يجب أن يُظهرَ الآباءُ والأمّهاتُ اهتمامهم بأبنائهم وبناتهم أمام الجميع سواءً من خلال سؤال المعلمين والمشاركة الإيجابيّة معهم، أم من خلال الاهتمام بالأحداث

الرياضية والثقافية التي تجري من خلال التشجيع والتصوير و”التورط” الإيجابي على العموم، أي إبداء المشاركة الإيجابية.

- رابعاً: إذا لم تكن هناك مناسبة لزيارة المدرسة، فإنه يمكن احتلاق سبب للزيارة سواء من خلال توصيلهم إلى المدرسة أم إحضارهم منها، واستغلال الوقت للحديث في الطريق بشؤون المدرسة وما يحدث فيها، أو أي أمر آخر يهم أبناءنا.

### سيكولوجية الأقلية وفحُ التعصب القبلي

يعدُّ الصراع ما بين البيت والمدرسة أحد الأشكال المخففة للفكر القبلي المنتشر في بلادنا والذي يختزل المجتمع في ”نحن“ و”هم“. إن هذا الصراع والتعصب القبلي، ولا سيما بين الأديان، ينتقل من جيل إلى آخر بالكلام السلبي الذي يُقال بقصدٍ ومن دون قصدٍ من قبل كل ”فريق“ في حق ”الفريق“ الآخر. وكلما ضعف المجتمع المدني وضعفت القضايا القومية التي يلتفت حولها الشعب بكل طوائفه، ازداد الاحتقان الطائفي وازدهر الفكر القبلي واشتد خوف كل طائفة من الأخرى كما يقول أحمد فؤاد نجم في قصيدته ”التحالف“<sup>٣</sup>:

يعيش أهل بلدي وبينهم ما فيش

تعارف يخلي التحالف يعيش

تعيش كل طائفة من الثانية خايفة

وتنزّل ستاير بدابير وشيش

وتنتقل هذه الثقافة من الخوف والعزل وعدم التعارف من جيل إلى آخر من خلال الأسرة والمدرسة والكلام الذي يُقال فيها من الوالدين. أتذكّر أن طفلة الجيران أحببت والدتي جداً، فقررت أن تغلب حجلها وتسألها:

٣ أحمد فؤاد نجم، ”الأعمال الشعرية الكاملة“ (القاهرة: مكتبة جزيرة الورد، ٢٠٠٩م) ص. ٣١٠.

- يا خالة، لمَ ليس لكِ ذيلٌ ولا أنيابٌ أو أظافر؟

أجابت أمي مدهوشة:

- ولماذا يجبُ أن تكونَ لديّ هذه الأشياء؟

قالت الطفلةُ الصغيرة:

- لستِ من دياتنا، ومعلّمنا في المدرسة قال لنا إنَّ لكم أذيالاً وأنياباً

وأظافر، قال أيضاً إنكم مخيفون!

بالتأكيد، لم يكن هذا ما يعتقدُه المعلّم فعلاً، ولكنني عندما سمعتُ هذه القصةَ وكنتُ وقتها في الجامعة في أوائل الثمانينيات، تساءلتُ: ”لماذا يقولُ معلّمٌ مثل هذا الكلام؟“ فكانتِ الإجابةُ المنطقيةُ هي أنه يريدُ أن يزرعَ الخوفَ في الطفلة من أولئك المختلفين عنها وعنهم؛ حتّى تبتعدَ عنهم، ومن ثمَّ لا تستمعَ لكلامهم لئلا تتبَع دينهم. كلامٌ مشابهٌ سمعتهُ من كلِّ طائفةٍ عن الخوف من أن يُصادقَ أبناؤهم وبناتهم أطفالاً من الطائفة الأخرى، وكأنَّ أولئك الأطفالُ هم من خاطفي الأطفال!

## القبولُ والموافقةُ

لعلَّ السببَ الكامنَ وراءَ كلِّ هذا الخوف هو أنَّ الثقافةَ القبليّةَ لم تحلَّ بعدُ المعادلةَ الصعبةَ بين القبولِ والموافقة. في هذه الثقافة، يكونُ القبولُ مرادفاً للموافقة. فإذا قبلتَ إنساناً أو جماعةً إنسانيةً، فهذا يجعلُكَ معرضاً للموافقة على كلِّ آرائهم التي يمكنُ بها أن ”يفتنوك“ أو ”يسمّموا“ بها فكرك. ولاحظْ هنا أنَّ تعبيرِي ”تسميم الفكر“ أو ”الفتنة“ يحسبان عقلَ الإنسان وعاءً سلبيّاً يمكنُ تلوينه وتجبُّ حمايته بعزله عن كلِّ تأثير يُرى أنه سلبي. لذا فإنَّ خوفاً من الموافقة والفتنة، تشيعُ ثقافةُ عدم قبول الآخر بل أيضاً الخوف منه وكرهيته. حتّى المحاولات التي يقومُ بها الإعلامُ لتَحقيق الوحدة الوطنية من خلال شعارات مثل: ”عنصرُ الأمة“ فهي على العكس ترسخُ الفكرَ القبليّ. أمّا الفكرُ المدنيّ، فيحسبُ أن في الأمة عنصرًا واحدًا فقط: مواطنو هذه الأمة. فعنصرُ الأمة

المصريّة هو المصريون، وفي الأُمَّة السورّيّة عنصرٌ واحدٌ هو السوريون، وفي الأُمَّة اللبنايّة عنصرٌ واحدٌ هو اللبنايون، وكذلك هي الحال في كلّ من الأُمَّة الأردنيّة والجزائريّة والمغربيّة وسائر الأمم. وعلى الجانب الآخر؛ وكرّد فعلٌ لُصُورٍ طويلاً من الفكر القبليّ القطبيّ أدّت إلى الكثير من الحروب بين الأجناس الأوروبيّة والطوائف المسيحيّة، اتّجهت الثقافات الغربيّة الحداثيّة، ثمّ ما بعد الحداثيّة، إلى التطرّف في الجانب الآخر. فخوّفاً من الرفض وعدم القبول صار الاتّجاه السائد هو الموافقة على كلّ فكرٍ وإنكار وجود الصواب والخطأ باعتبارهما قيمةً موضوعيّةً مجردة. فلا يوجد صوابٌ مطلقٌ أو خطأ مطلقٌ! لهذا السبب فإنّ من العناصر المهمّة في التربية تدريب الأطفال على اتّزان القبول والموافقة، إذ ينبغي التّشجيع على الحبّ والقبول والاحترام لجميع البشر وجميع الأفكار، وفي الوقت نفسه، عدم الحرج من مناقشة كلّ الأفكار والمعتقدات والحكم عليها ورّفص بعضها وقبول البعض الآخر بحريّة.

## التّمييز والتّمايز

لقد عانت المجتمعات الإنسانيّة في عصور ما قبل النهضة والتّنوير من جرّاء تمييز الرجال على النساء، ولا تزال مجتمعاتنا الشرفيّة تُعاني ذلك إلى الآن. وقد كان هذا مفهوماً في تلك العصور، فالعملُ والإنتاجُ كان يتطلّب القوّة البدنيّة والشجاعة والإقدام (وهي متوافرة أكثر في الذكور)، أكثر ممّا كان يتطلّب الذكاء الوجدانيّ والمهارات الاجتماعيّة واللّغويّة (وهي متوافرة أكثر في الإناث). كما أنّ الحروب كانت تُحاض بالقس والنشاب والرمح والسيف، وكانت تعتمد على القوّة العضليّة والشراسة المتوافرة لدى الرجال أكثر منه لدى الإناث. وعلى خلفيّة هذا المناخ من التمييز، ظهرت ممارسات عديدة ظالمة وقاهرة للنساء، ابتداءً من حزام العفة في أوروبا العصور الوسطى، إلى استئصال العضو الجنسيّ (أو أجزاء منه) في أفريقيا وبعض البلاد العربيّة (وأكثرها مصر)؛ ومن مطاردة الساحرات في أوروبا ما قبل الإصلاح الدينيّ، إلى وأد الإناث جسدياً (أي دفنهنّ أحياء) أو نفسيّاً في شرقنا العربيّ.

٤ هنا الاتّزان الدقيق. إذ ينبغي لنا قبول كلّ الأفكار، لكن ليس من المعقول الموافقة على كلّ الافكار؛ حيث إنّ من الممكن أن يكون هناك تعارضٌ حقيقيٌّ ما بين الأفكار.

وكرّد فعلٍ على هذا العنف الموجّه ضدّ النساء ولتحريرهم من عدم المساواة في الحقوق والواجبات، ظهرت حركات تحرير المرأة ومساواتها بالرّجل. لكنّ بمرور الوقت؛ ولأنّ التّمييز ما بين الرجل والمرأة كان على أساس الجنس، بدأت حركات تحرير المرأة في أثناء حربها ضدّ التمييز تتجاوز وتجوّر على التّمايز والاختلاف بين الرجل والمرأة، فراحت الأفكار والممارسات الهادفة إلى المساواة تُحدّث تآكلاً في ذكورة الذكر وأنوثة الأنثى وبدأت تنادي بما يُطلق عليه اسم (Androgyny)، والتي قد تُترجم "الخنثويّة"، أي الاختلاط في الأدوار بين الذكر والأنثى.

وفي بلادنا نعاني من جرّاء المشكلتين معاً. فنحن لا نزال نُعاني ظلّم المرأة وقهرها، وفي الوقت نفسه، قهر الذكورة وقمعها على نحوٍ مباشر أو غير مباشر، وبطرقٍ عديدة أكثرها شيوعاً في رأيي هو التربية القائمة التي تمارسها بعض الأمّهات. وأظنّ أيضاً أنّ هذا قد يكون أحد أسباب انتشار إدمان الجنس والعنف الجنسيّ المتمثّل في صورة المعاكسات والتحرّش. فالذّكر الذي لم تُحقّق ذكورته بطرقٍ صحيّة، سيحاول تحقيقها بالجنس والعنف وهذا بالتأكيد يزداد دون رادع في مجتمع ما يزال لا يحمي الإناث بما فيه الكفاية.

بعد أن خرجنا من الحفلة بعد منتصف الليل تركني أعودُ إلى المنزل وحدي، ولم يعرض عليّ أن يوصلني إلى بيتي. أشعرُ بطبّيته وحنانه لكنّي لا أشعرُ برجولته التي تُنادي أنوثتي وتستخرجها. لا أشعرُ بتلك الشّراسة التي أشعرُ بها مع رجالٍ آخرين يستطيعون أن يُشعروني بأنوثتي. وعندما علّقتُ على ذلك، قال لي خطيبي، الذي عاش سنواتٍ طويلةٍ في أوروبا: "ليس عندنا في أوروبا مثل هذا الكلام. الرجلُ مثل المرأة. ليس عندنا عادةً «توصيل النساء» هذه!"

٥ "كشفتُ دراسةً حول التحرّش الجنسيّ بالنساء أنّ ٨٣٪ من المصريات قد تعرّضن لمعظم أشكال التحرّش الجنسيّ بدءاً من الصّغير والمعاكسات الكلاميّة، ومروراً بالنظرة الفاحصة لأجسادهنّ، ثمّ باللمس والتلفّظ بألفاظ ذات معنى جنسيّ، فالملاحقة والتتبع، وصولاً إلى المعاكسات الهاتفيّة، وكشّف التحرّش لبعض من أعضاء جسده، وذلك كلّ على الرّغم من ارتدائهنّ الحجاب في وقت واقعة التحرّش". من مقالة "التحرّش بالمحجّبات: كابوس يطارد النساء في مصر" بقلم: شامل عبد العزيز.

جاء هذا الكلام على لسان إحدى عميلاتي كانت تعيش صراعاً في علاقتها بشابٍ تقدّمَ خطبَتها. فمن جهة، هي بعقلها تحترمُ تحضُّره واحترامه لها ولعملها وللمرأة عموماً، لكنّها في الوقت نفسه، لا تشعرُ بذكورةٍ كافيةٍ تستدعي أنوثتها، التي بسبب تأثير المجتمع الذكوريّ وعوامل أخرى، صارت هي أيضاً أنوثَةً ضعيفةً محتجبة. وأرى أن صراعَ عميلتي هذا هو من أهمّ الصراعات التي تواجه البشرية، كما أرى أن حيرتها في قضايا كثيرة متقاطعة مثل قضية الجنسانية والحريّة والعدالة والمساواة. وفي هذا المجال تردُّ قصص كثيرة عن نساءٍ أوروبيّات وأميريكيّات يُعجبنَ بالرجل الشرقيّ بسبب ذكورته العالية التي تظهرُ في صور الشّهامة والحماية والاحتواء، التي قد لا يجدنّها في رجالهنّ الذين، بسبب الخوف من التمييز، جاز المجتمع على ذكورتهم وتميّزهم عن الإناث، فيتزوَّجنَ بهذا الرجل الشرقيّ أو ذاك ليحصلنَ على التمايز المفقود. ثمّ مرور الوقت يحدنَ التميّز البغيض وقد ظهر، فتحتفي الشّهامة والحماية والاحتواء ليظهر العنف والقهر والتسلط، فيهربنَ إلى بلادهنّ تاركاتٍ فلذات أكبادهنّ في أرض الشرق. الأمثلة كثيرة جداً، ولعلّ أحد هذه الأمثلة كان قصّة تلك السيّدة الأميركيّة التي توسّطت لدى الرئيس الأميركيّ باراك أوباما والرئيس المصريّ السابق حسني مبارك في أثناء زيارة الرئيس الأميركيّ إلى مصر، فقط من أجل أن ترى ابنتها. ولعلّ من سُخريات القدر أن الرئيس الأميركيّ نفسه هو نتاج علاقة كهذه، غير أن الفارق أنّها علاقة جرت في بلاد الغرب.

للأسف لم نستطع، نحن البشر، بعد تحقيق المساواة ومنع التمييز بين الرجال والنساء مع الاحتفاظ بالاختلاف وتميّز الأدوار والكيان. قد يحتاج الأمر إلى عدّة قرونٍ لنعود إلى الموقف المتزن بعد أن تمايلنا من أقصى البندول إلى أقصاه من الجهة الأخرى.

قد يظنُّ بعضُ القراء أنني خرجتُ عن مجال التربية، غير أن الحقيقة هي أن هذه المفاهيم ذات علاقة وثيقة بالتربية؛ فهي مفاهيم تُغرس في الطفولة ومن الصعب تغييرها فيما بعد، وقد يكون الأمل في جيل أفضل وأكثر اتزاناً في مواقفه من تلك القضايا هو من خلال غرس مفاهيم أفضل في الأطفال.





## نصائح ختامية

- التربية السليمة تعي حقيقة الثقافات المتناغمة والمتصارعة في المجتمع.
- قبول الآخر لا يعني بالضرورة الموافقة على كل آرائه. وعلى الجانب الآخر أيضاً، ينبغي ألا يعني الاختلاف في أشياء، وإن كانت أساسيةً ومهمّة، الاختلاف في كل شيء والكرهية وعدم القبول.
- ينبغي ألا نكيل بمكيالين أو نعامل الآخرين كما نود أن يعاملونا، حتّى لو كانوا مختلفين عنّا.
- يجب الحفاظ على التمايز ما بين الذكور والإناث، وفي الوقت نفسه يجب ألاّ نميّز على أساس الجنس.
- حذارٍ من أن تزرع الكراهية في أبنائك تجاه المختلفين عنك في الديانة أو الثقافة أو أيّ شيءٍ آخر خوفاً من أن يتبنّى أبنائك أفكار أولئك المختلفين عنك. بدلاً من هذا، أنت تستطيع أن تزرع الحبّ والقبول، فيما تشرّح في الوقت نفسه الفروق وتحافظ على الاختلافات.

## دعاء

ساعِدْني يا ربُّ أن أعلمَ أبنائي وأتعلّمَ معهم.  
ساعِدْني أن أقبلَ كلَّ الناسِ وأحبَّهم،  
حتّى الذين أختلفَ معهم.  
علِّمّني أن أحرّمَ الحرّيّةَ والاختلافَ،  
وأن أبحثَ عن المشتركِ أكثرَ ممّا أبحثُ عن المختلفِ.  
علِّمّني أن يكونَ هديّ دائماً هو الحبّ.  
عندما أصمّتُ يكونَ هديّ الحبّ،  
وعندما أتكلّمُ يكونَ الحبُّ أيضاً.  
ساعِدْني أن أحبَّ عندما أوافقُ،  
وأن أحبَّ أكثرَ، عندما لا أوافقُ.  
أمين



## الفصل العاشر

# الأسرة ذاتُ العائل الواحد

بعد الأيام الأولى، كان عليّ أن أعيدَ ابني البالغ من العمر ستّ سنوات لِنِنامَ مرّةٍ أخرى في غرفته وعلى سريره المنفصل بعد أن نام في حضني عدّة أيّامٍ في أعقابِ وفاة زوجي. لا أريدُ أن أجعلَ منه ”دُميتي“ التي أَحْتَضِنُهَا لَتُعَزِّبَنِي عن لُوعةِ فراقِ زوجي. كما لا أريدُ أن أستخدمه بديلاً، أو أن أستمَدَّ منه العطفَ والحنانَ، بينما ينبغي لي أن أن أقدِّمَ إليه العطفَ والحنانَ.

قالَتْ هذه الكلماتُ إحدى الصديقات بعدَ أيّامٍ من وفاةِ زوجها على نحوٍ مفاجئٍ صادمٍ بينما كان في الثلاثينيات من عمره. ولأنّني احترمتُ هذا الموقفَ الناضجَ جدّاً، فلا أزالُ أذكرُه كما لو كان قد حدثَ بالأمس، على الرُغمِ من مرورِ أكثر من ستّ سنواتٍ على حدوثه حتّى الآن. لقد كانت صديقتنا هذه تخشى ذلك النُوعَ من العلاقاتِ الاعتماديّةِ حينما تستخدمُ الأمّ، التي تُوفِّيَ زوجها أو انفصلت عنه، ابنها الأكبرَ ليكونَ بديلاً عن والده، أو أن تستخدمَ حياته وتورطَ فيها وتسيطر عليها على نحوٍ مبالغٍ فيه إمّا لأنّها تخافُ عليه، وإمّا لأنّها تريدُ استعادةَ شعورها بالسيطرة، أو لأنّها تودُ أن تُشغَلَ نفسها وتسكُنَ نوحها على زوجها المفقود. ويحدّثُ الأمرُ ذاته أيضاً عندما يستخدمُ الأبُ ابنته في دور ”ستّ بيت“ صغيرة لتحلّ مكانَ أمّها. يُطلقُ على

هذا النوع من الإساءة النفسية إلى الأبناء والبنات أسماء مثل "قلب الأدوار" أو "فقدان الطفولة"، حيث يُستخدم الأطفال لأداء دور راشدين. لهذا السبب أسمت الباحثة النفسية باتريشيا لاف (Patricia Love) هذا النوع من التورط العاطفي مع الأولاد "ظاهرة زنا المحارم النفسي" (Emotional Incest)<sup>1</sup>، أي أنه نوع من العلاقات المحرمة بين الآباء والأبناء. هي ليست علاقات تحوي تورطاً جنسياً، بل تورطاً عاطفياً غير مناسب. والحقيقة هي أنه في بعض الأحيان يؤدي التورط العاطفي الشديد إلى حدوث تورط جنسي فيما بعد، ولا سيما ما بين الأب وابنته الطفلة أو المراهقة.

لهذا السبب يجب كشف الحقيقة وشرحها بالكامل للأطفال، حتى إذا لم يستوعبها كلها في ذلك الوقت، فإن الأمور ستتكشف أمامهم بالتدريج، غير أن الحقيقة ستحميهم من تكوين معتقدات خاطئة.

إن هذا النوع من العلاقات الاعتمادية يمثل أحد أنواع التحديات النفسية التي تواجه الأسر ذات العائل أو الوالد الواحد (Single Parent Families). ومن التحديات النفسية الأخرى شعور الأطفال بالهجر والترك. فكما أشرنا في فصول سابقة، كثيراً ما يشعر الأطفال بأن آباءهم أو أمهاتهم قد تركوهم بقرار إرادي، وليس رغباً عنهم، لا سيما عندما نستخدم تعبيرات مثل: "ذهب والدك لكي

يكون مع الله" أو "هو الآن في الجنة ينعم!"، إن مثل هذه التعبيرات - بالإضافة إلى ميل الأطفال إلى تفسير الأحداث بشكل شخصي - تؤدي إلى تكوين "معتقدات" مثل: "والدي تركني"، أو "أمي تعبت من تربيتي لأنني «شقي»" فقررت أن تتركني وتذهب لتستريح في الجنة من مشكلاتي". قد تُربّي هذه المعتقدات قناعة بعدم القيمة أو ربما بالذنب يصعب التخلص منها بعد ذلك.

تأثيراً من احتمالية تكوين مثل هذه المعتقدات أن الأسر تميل لأن تُخفي الأمر لمدة طويلة عن الأطفال، وتُعطي تفسيرات واهية لغياب الوالد بكلمات مثل: "أباً مسافراً"، أو "ماما في

1 Emotional Incest Syndrome. In: R. Cohen, *Coming Out Straight*, (Virginia: Oak Hill Press, 2006) p. 34.

المستشفى“ وغيرها. ولأنَّ الأطفال يُدرِّكون بفطرتهم ولا يفتنَّون بهذا الكلام، فإنَّ عقولهم تذهب لتكوِّن التفسيرات والمعتقدات الطفليَّة غير المنطقيَّة. لهذا السبب يجبُ كَشْفُ الحقيقة وشرحها بالكامل للأطفال، حتَّى إذا لم يستوعبها كلُّها في ذلك الوقت، فإنَّ الأمور ستتكشَّف أمامهم بالتدرُّج، غير أنَّ الحقيقة ستحميهم من تكوين معتقدات خاطئة.

لا بأس أيضاً أن يُعبِّر الآباء والأمهات عن حزنهم لفقدان شريك الحياة مع أبنائهم، وشيئاً فشيئاً يخرجون من حالة النَّوح والحُداد ليُعلِّمهم ويُدرِّبهم بالمثال العمليِّ كيف يعبرون عن المشاعر وكيف يتجاوزون الحالات النفسيَّة السيئة.

من التحدِّيات النفسيَّة التي يتعرَّض لها الطفل الذي يترنَّى بعيداً عن أحد الوالدين هو ما ذكرناه من قبل عن صعوبة تكوين الهويَّة الذكريَّة للأولاد بعيداً عن الآباء، وصعوبة تكوين الهويَّة الأنثويَّة للإناث بعيداً عن الأم.

بالتأكيد لا يؤدِّي بالضرورة فقدان الأب في الطفولة إلى عجز في الهويَّة الذكريَّة يكفي لشُوء الجنسيَّة المثلية. فلكي تتكوَّن الميول المثليَّة، يتطلَّب الأمر توافر عوامل أخرى مثل الطبيعة شديدة الحساسيَّة للطفل دائماً، والأم العنيفة المسيطرة أحياناً، والاعتداء الجنسيِّ في بعض الحالات. لهذه السبب ينبغي للأم التي تفقد شريكها مبكراً أن تهتم بتعريض ابنها لرموز ذكريَّة من الأسرة أو المجتمع المحيط، كالمعلمين، ومدربيِّ الرياضة، والقادة الدينيِّين - وأن تحرص على إشراكه في أنشطة فيها يختلط بالذكور من زملاء وأبائهم وذلك لتتَّمة هويته الجنسيَّة.

هناك تأثير آخر لفقدان أحد الوالدين في أسلوب التربية، وهو عندما يدلُّ الأب مثلاً الأطفال لتعويضهم عن فقدان الأم، ممَّا يؤدِّي إلى إفسادهم. وعادةً ما يلجأ الأولاد المدللون إلى العنف لاحقاً. أو أن تتعامل الأم مثلاً بشدَّة مع الأبناء لأنَّها تؤدِّي دور الأم والأب في آن معاً، أو لثلاً يقول الناس عن أولادها إنهم ”تربية امرأة!“ فتكون النتيجة أنَّها تفقد علاقتها بهم. وعادة ما يتمرَّد هؤلاء الأولاد عندما يصيرون في سنِّ المراهقة.

بالإضافة إلى التحدِّيات النفسيَّة والتربويَّة، توجد دون شكَّ تحديات مادِّيَّة وعمليَّة للأسرة

ذات العائل الواحد. قد يتعرّض الأطفال الذين فقدوا الأمّ للإهمال من حيث المأكّل والملبسّ بسبب انشغال الأب، بينما يتعرّض الذين فقدوا الأبّ للتحديات المادّية وانخفاض مستوى المعيشة. إنّ هذه التحديات المادّية تفتح الباب أمام تحديات اجتماعية أخرى مثل العلاقة بأهل الزوج المتوفّى، فيميل أهل الرجل المتوفّى إلى السيطرة على زوجته وأسرته وأولاده حاسبين أنّهم ”يحملون اسم الأسرة“. ويزداد هذا الأمر كلّما كان هناك اعتماداً مادّي على هذه الأسرة، وكلّما كانت شخصيّة تلك الزوجة ضعيفة، كما يزداد كذلك بفشل الزوجة في وضع الحدود في العلاقات.

وفي حالة الطلاق تحدّث تحديات اجتماعية ونفسية أخرى، مثل انتقال الأطفال نصف الأسبوع عند أحدهما والنصف الثاني عند الآخر، وواضح أنّ هذا الأمر يستتبعه عدم استقرار، فضلاً عن محاولات كل طرف استقطاب الأطفال إلى صفّه.

من التحديات الاجتماعية التي لها تأثيرات نفسية عميقة أيضاً تحدي الزواج الثاني. ففي ثقافتنا يميل الرجل إلى الزواج مرّة ثانية بعد وفاة زوجته أو بعد الطلاق، بينما تميل الغالبية العظمى من النساء إلى البقاء دون زواج وتكريس حياتهنّ لأبنائهنّ. لا نستطيع أن نشجّع الزواج الثاني أو لا نشجّعه باعتباره حلاً للتحديات التي تواجه الأسرة ذات العائل الواحد. ففي بعض الأحيان يكون حلاً جيّداً جداً لهذه المشكلات، بينما يضيف في أحيان أخرى تحديات أخرى. غير أنّي عموماً رأيت أمثلة

نحتاج لأن نتخذ خطوة إلى الأمام في اتجاه تشجيع الزواج الثاني؛ لأنّ كثيراً من النساء اللاتي يفقدن أزواجهنّ، ولا سيّما في سنّ مبكرة، لا يقدمون على هذه الخطوة لأنّ المجتمع لا يشجّع الزواج الثاني، وهو يُمجّد الزوجة التي تصحّي بشكلٍ مبالغ فيه ولا تتزوّج ثانية من أجل أبنائها.

إيجابية كثيرة تجعلني أنادي بأننا نحتاج لأن نتخذ خطوة إلى الأمام في اتجاه تشجيع الزواج الثاني؛ لأنّ كثيراً من النساء اللاتي يفقدن أزواجهنّ، ولا سيّما في سنّ مبكرة، لا يقدمن على هذه الخطوة لأنّ المجتمع لا يشجّع الزواج الثاني، وهو يُمجّد الزوجة التي تصحّي بشكلٍ مبالغ

فيه ولا تتزوج ثانيةً من أجل أبنائها،<sup>٢</sup> على الرغم من أن الزواج الثاني كثيرًا ما يكون في مصلحة الأولاد والبنات، ولا سيّما إذا كانوا في سنٍّ مبكرة. ومن فوائد الزواج الثاني مثلًا:

أن يحصل الولد الصغير الذي كان متعلقًا بأبيه وفقده على رمزٍ ذكريٍّ آخر يلتحم به ويعوضه عن أبيه المفقود. وقد رأيتُ على الأقل أنموذجين حدث فيهما هذا الأمر. ودون شك، إذا كان الأب البديل الجديد مبتعدًا أو بارد العواطف أو قاسيًا، فهذا يزيد من جراح الهجر والتّرك لدى الطفل. وهنا تكمن إحدى مسؤوليات الأم في زواجها الثاني بأن تبحث عمّن يمكن أن يحقق الالتحام الوجداني (Emotional bonding) بأولادها، لا سيّما إن كانوا في مراحل مبكرة. من الفوائد الأخرى أيضًا تحسّن الحالة المادّية والاجتماعية، حيث تعود الأسرة إلى الشكل التقليدي للأسرة من أب وأم أمام المدرسة والأسر الأخرى من الأهل والأصدقاء. وبكل تأكيد يجب أن تكون هناك فترة حدادٍ كافية تتيح للجميع أن يجتازوا مراحل النوح. فالأب الذي يسرع بالزواج من امرأة أخرى قبل حتّى أن تمر سنة على وفاة زوجته يتسبّب بجرحٍ بالغ للأبناء؛ فهم يشعرون وكأنّهم كان ينتظر وفاتها أو كان على علاقة سابقة بهذه الزوجة الجديدة. وما يزيد من صعوبة الزواج الثاني دون شك أن تكون قد تأسست علاقات اعتمادية ما بين الأمهات وأولادهنّ، أو الآباء وبناتهنّ قبل قرار الزواج. في تلك الحالات يستقبل الأبناء الزواج الثاني وكأنّهم نوع من الخيانة. لهذا السبب قد يُجري بعض الآباء الزواج الثاني سرًا وذلك خوفًا من جرح مشاعر أبنائهم وبناتهم، فيكون الجرح الناتج جرحًا أكبر. قال لي

٢ قد تكون قيمة تضحية الزوجة بحياتها بعد وفاة الزوج قيمةً شرقيّة تصل أحيانًا إلى حدّ حرّق الزوجة مع زوجها في الثقافات الشرقيّة القديمة، وهو ما يعرف بتقليد "ساتي" (Sati)، ويُضاف إلى ذلك ثقافة الحداد الفرعونيّة التي نجدها على نحوٍ مبالغ فيه لا سيّما في مصر العليا (الصعيد) أكثر من الوجه البحري، ونراه أيضًا بين الأقباط أكثر منه بين المسلمين بسبب اقترابهم أكثر إلى الثقافة الفرعونيّة (ملاحظة من الخبرة الإكلينيكيّة للدكتور يحيى الرخاوي).

أحد الذين فقدوا أمهاتهم مبكرًا: ”لقد كنا نشعر طوال الوقت بأنه قد تزوجَ بامرأةٍ أخرى. فهو يتركنا أيامًا بل أحيانًا أسابيع لا نعرفُ خلالها أين يكون. لبيته كان صارحنًا وجاءت لتعيش معنا، فحتى لو لم تكن أمًا جديدةً لنا، فعلى الأقل نكون قد احتفظنا بأبينا معنا في البيت ذاته!“

صحيحٌ أن فقدان أحد الوالدين يمثلُ جرحًا كبيرًا بالنسبة إلى الأطفال، لكن يمكن بالتعامل الناضج مع هذا الموقف التقليلُ من تأثيره في الأطفال إلى أقلِّ قدرٍ ممكن. يمكننا بوضوح أن نستنتج أن مستوى نُضج الوالد- أبًا كان أم أمًا- الذي يتعرَّض لهذا الفقد وعمق علاقاته الأسريَّة والاجتماعيَّة يؤثِّرُ بشكلٍ كبيرٍ في تعامله السليم مع هذا الموقف.





## نصائح ختامية

- لا بدّ من مواجهة الأطفال الذين يفقدون أحد الوالدين بحقيقة ما حدث لئلا تتكوّن لديهم معتقدات خاطئة عن أنفسهم أو عن الوالد المتوفّى أو عن الحياة أو عن الله.
- يجب مراعاة ألاّ نستخدم الأطفال ليكونوا بديلاً عن المتوفّى، وألاّ نسمّي الأطفال المولودين حديثاً باسم المتوفّى وكأنّه ”تعويض“ عنه بطريقة تجعل الأطفال يعيشون في ”ظلّ“ المتوفّى.
- يجب على العائل الوحيد أن يهتمّ بنفسه ويكونّ لنفسه حياةً من جديد، إمّا بالزواج وإمّا بشكلٍ آخر، بينما يهتمّ في الوقت نفسه بأبنائه، ويتذكّر أنّ حياته ليست متمحورةً فقط حول الأبناء. في مثل هذه الحالات ينهار الوالد عندما يكبر الأولاد وينفصلوا عنه بحياتهم الخاصّة.
- يميل أحياناً بعض الآباء والأمّهات بسبب الاعتماديّة على الأولاد والارتباط المبالغ فيه بهم، إلى السيطرة والتدخل في حياة أولادهم وبناتهم. ويحدث هذا مع الأمّهات بشكلٍ أكبر.
- الزواج الثاني هو أمرٌ يجب دراسته جيّداً. فمن الممكن أن يكون إيجابياً، كما قد يكون سلبياً. ويجب أن يتفق الزوجان على كلّ شيءٍ من البداية، كما يجب أن يُشركا الأبناء على نحوٍ غايةٍ في الصراحة والشفافيّة.

## دعاء

أنت تعلمُ السيفَ الذي اجتازَ في قلبي،  
وتعلمُ أيضًا مسؤوليتي تجاه أبنائي.  
ساعدني أن أتعاملَ بحكمةٍ مع هذا الموقف.  
كُن أنت أباهم وأُمَّهم،  
وألهمني أن أكونَ العنصرَ الإنسانيَّ  
الذي يساعدُ ذلك ولا يعرقله.  
أمين



## الفصل الحادي عشر

# أنواعُ الذكاء

”إنَّ كلَّ إنسانٍ يُدرِكُ جيِّدًا في أعماقه أنَّه شخصٌ فريدٌ“.

فريدريك نيتشه

كلُّنا نحلمُ لأولادنا وبناتنا أحلامَ التفوُّقِ والتميزِ في التعليمِ والعملِ والمواهبِ والرياضاتِ. نتمنَّى أن يدخلَ أبنائنا أفضلَ المدارسِ والجامعاتِ الدوليَّةِ، ونتمنَّى أن يحصلوا على أعلى الشهاداتِ العالميَّةِ، ويتفوَّقوا فيها ويصيروا الأوائلَ حتَّى على مستوى العالمِ. وأن يتفوَّقوا أيضًا في رياضةٍ أو اثنتين، ونتمنَّى أن يعزفوا آلةً موسيقيَّةً أو التين.

إنَّ بعضَ هذه الأحلامِ كان أحلامنا التي لم نحققها نحن في حياتنا، فنتمَنَّى أن نحققها في حياة أولادنا، أو ربَّما الأحلامِ التي تفرضها البيئَةُ الاجتماعيَّةُ التي ننتمي إليها أو نوذُ أن ننتمي إليها. لذلك نرى الكثير من الأمهات يبذلن مجهودًا جبارًا في توصيل أبنائهنَّ من الدروسِ الخصوصيَّةِ

التوجُّهَ إلى الاستثمارِ في تعليمِ الأطفالِ وتدريبهم على الهواياتِ والمواهبِ الفنيَّةِ والرياضيَّةِ هو توجُّهٌ محمودٌ، لكنَّه يحتاجُ إلى الترشيدِ حتَّى لا يضيغَ الجهدُ والمالُ هباءً.

إلى تدريباتِ السباحةِ والتَّنسِ وكرةِ القدمِ وغيرها، ثمَّ إلى دروسِ البيانو والكمانِ والباليه

والرسم، ويتحمّل الآباء تكاليف ماليّة باهظة في هذا الاستثمار البشريّ من مصاريف المدارس الدوليّة التي تصلّ التزاماتها الماليّة إلى عشرات الآلاف في السنة، وربّما تُدفع بالدولار أو الجنيه الاسترليني، إضافةً إلى تكاليف الرياضات واشتراكات النوادي، وأسعار الأدوات الرياضيّة، والألات الموسيقيّة وتكاليف دروسها.

إنّ هذا التوجّه في الاستثمار البشريّ، ولا سيّما في العقدين الأخيرين، وإن كان يضع الكثير من العبء على الطبقات الوسطى المتطلّعة إلى توفير هذه الأنشطة نفسها لأطفالها، إلّا أنّه في النهاية توجّه محمود. ويحتاج هذا التوجّه إلى بعض الترشيد حتّى لا يضيع الجهد والمال هباءً.

## أنواع الذكاء

لم يتمنّع ماجد بالذكاء الأكاديميّ نفسه الذي كانت تتمنّع به أخته سهام. كانت سهام دائماً الأولى في صفّها، أو على الأقلّ من الخمسة الأوائل، أمّا ماجد فلم يُرَقَطُ اسمه في قائمة الشرف (التي تحوي أسماء الطلبة الأوائل) في أيّ من مراحل التعليم، ولم تُكنْ له القدرة والمثابرة على الدراسة التي كانت لأخته سهام. أمّا في مجال العلاقات، فلم يكن ماجد يحتاج إلّا إلى دقائق معدودة ليبدأ صداقةً مع أيّة مجموعةٍ من الناس مهما كانت خلفيّتهم. حتّى عندما كانت تسافر أسرة ماجد وسهام إلى الخارج، وهناك يتعرّفون إلى شبابٍ من أيّة خلفيّة، كان ماجد دائماً يستطيعُ بسرعة أن يتأقلم وإياهم، ويندمج معهم ولا تمضي دقائق قبل أن يتبادل معهم الكلام والمزاح بل ربّما يرتبطُ بصداقاتٍ قويّةٍ ببعضهم تمتدّ شهوراً أو حتّى سنوات بعد العودة إلى البلاد. أمّا سهام فكان هذا أمراً صعباً بالنسبة إليها. وكانت تحتاج إلى وقتٍ طويلٍ للتناغم مع الآخرين، كما أنّها كانت تستطيع أن تصادق فقط أنواعاً معيّنة من الناس. لذلك كانت تقضي أغلب وقتها تقرأ الروايات والقصص الطويلة حتّى إنّها كانت تنتهي من رواية تتكوّن من أكثر من أربع مئة صفحة بلغةٍ أجنبيّةٍ في أقلّ من ثلاثة أيّام. على الرُغم من تميّز ماجد بالذكاء الوجدانيّ والاجتماعيّ أكثر من سهام، فإنّه كان يعتقد دائماً أنّه أقلّ ذكاءً منها؛

لأنَّ كلَّ الناس حوله يقيِّمون ذكاء المرء ونجاحه بعلاماته في الامتحان، وبقدرته على القراءة. عندما تعلَّم والدا ماجد وسهام عن أنواع الذكاء وأهمِّية الذكاء الوجداني والاجتماعي، بدأوا حينها في تشجيع ماجد والتأكيد على تميُّزه في العلاقات وكيف أنَّ هذا نوعٌ من أنواع الذكاء لا تتميُّزُ به أخته التي تتميُّزُ بنوعٍ آخر من الذكاء. ترى ماذا حدث بعد هذا؟ لقد تقدَّم ماجد أيضًا في مستواه الأكاديمي. لم يصل إلى مستوى سهام بالتأكيد، لكنَّهُ صارَ أفضلَ لأنَّهُ لقيَ تشجيعًا، وأمنَ بنفسه أكثر.

قبل اختيار الأنشطة الرياضيّة والفنيّة؛ وقبل التركيز على الموادّ الدراسيّة المحبّبة، والتصنيفات الدراسيّة من علمي وأدبي، ونوع الدراسة الجامعيّة، يُفضَّل أن يعرف الآباء والأمّهات والمعلّمون نوعَ الذكاء الأعلى لدى الطفل، وذلك حتّى تُرشّد الجهودَ والمالَ في أنشطةٍ غالبًا ما لن يستمرَّ الطفلُ فيها، وإن استمرَّ فلن يحقّقَ المستويات العُليا. في كتابه الكلاسيكيّ عن أنواع الذكاء<sup>1</sup>، حدّد هوارد غاردنر (Howard Gardner) سبعة أنواع أساسيّة من الذكاء. أوّل نوعين هما نوعان كانا دائماً معروفين في المدارس: الذكاء اللغويّ والذكاء الحسابي. والأنواع الثلاثة التالية مرتبطة بالأنشطة الفنيّة والرياضيّة: الذكاء الموسيقيّ والذكاء الحركيّ والذكاء المكانيّ (الفراغيّ). وفي النهاية هناك نوعان من الذكاء ينتميان إلى ما يُسمّى الذكاء الشخصيّ، وهما الذكاء العلاقتيّ (Interpersonal)، والذي يمكنُ أيضًا أن نسمّيه الذكاء الاجتماعيّ، والذكاء الداخليّ (Intrapersonal)، والذي يمكنُ أن نسمّيه الذكاء الوجدانيّ، وقد تناوّلناه في فصلٍ سابق.

### الذكاء المكانيّ (الفراغيّ):

هو نوعُ الذكاء الذي يستخدمُ ما يُسمّى بعين الدّهن ليحكّم على الأماكن والمسافات. من يملكون هذا النوع من الذكاء تكونُ عيونهم أشبه بكاميرات تلتقطُ صُورًا من أكثر من منظور، وتحتفظ بها وكأنّها رسومٌ هندسيّةٌ مُفصّلةٌ للأماكن. مثل هؤلاء يكونون نابغين في الفنّ والعمارة

1 Howard E. Gardner, *The Frames of Mind-The Theory of Multiple Intelligences* (N.Y. Basic Books) 1983-2004.

والتصميم، ولهم ذاكرةٌ بصريَّةٌ عالية، كما يمتتعون أيضًا بالقدرة على ضَبْطِ المسافات وتذكُّرِ الأماكن والشوارع. في هذا النوع من الذكاء أعترفُ بأنَّ زوجتي تفوقني كثيرًا؛ فهي تستطيعُ أن تدركَ كيف تُؤدِّي الشوارعُ إلى بعضها بعضًا، وكيف تُختَصِرُ الطرقُ وكأنَّها- كما أقولُ لها دائمًا- ترى الدنيا من أعلى وكأنَّ عينيها تستقلَّان طائرةَ هليكوبتر، أو أنَّ في عقلها تسجيلاتٍ لخرائطَ تفصيليَّةٍ للشوارع والميادين. بالنسبة إلى الأطفال، من الألعاب التي تكشفُ هذا النوع من الذكاء لعبة تركيب الأحجية (The Jigsaw Puzzle)، وهي لعبةٌ يبدأ الأطفالُ في لعبِ أنواعٍ بدائيَّةٍ منها في سنِّ قد تصلُ إلى ثلاث سنوات، ثمَّ تظهرُ بشكلٍ أكبرَ عندما يستطيعُ الأطفالُ تركيبَ أحجيجٍ أكبرَ وأعدَدَ تُظهرُ قدرتهم على رؤية الصورة الكاملة والعلاقات ما بين الأشكال والأماكن.

### الذكاء اللغوي:

هو الذكاء الذي يتعاملُ مع اللُّغة والكلمات. أصحابُ هذا النوع من الذكاء يُظهرون مهارةً في تعلُّمِ اللغة واستخدامِ الكلام، ويحبُّون القراءةَ ويجيدون الكتابة. وهم أيضًا متواصلون جيِّدون يُحسِنون سرِّدَ القصص وإلقاءَ المحاضرات، ويستمتعون بالتعليم من خلال القراءة والاستماع للمحاضرات وحضور الندوات والمناقشات. مثل هؤلاء يكونون نابغين في مهنٍ مثل الكتابة والمحاماة والفلسفة والصحافة والسياسة والشعر والتدريس. يمكنُ أن يظهرَ هذا النوعُ من الذكاء عند الأطفال عند بدءِ الكلام نحو سنِّ الثالثة بالتدرُّج من خلال ملاحظة سرعة الكلام وسهولته. كما يتَّضحُ من خلال تعرُّفهم عددًا من المفردات أكبرَ من أقرانهم، كما يتميِّزون بقدرتهم على استخدام المفردات المناسبة في المواقف المناسبة.

### الذكاء المنطقي الحسابي:

يتعاملُ هذا النوعُ من الذكاء مع المنطق المجرِّد والأرقام. ويتفوقُ أصحابُ هذا النوع من الذكاء بكلِّ تأكيدٍ في مجالات الرياضيات والهندسة وبرمجة الحاسوب. من الممكن لأصحاب هذا النوع من الذكاء ألا يكونوا مهرةً في الرياضيات التقليدية، لكنهم يكونون مهرةً في الإدراك



المنطقي والتفكير العلمي التحليلي والعمليات الحسابية المعقدة. ويرتبط هذا النوع من الذكاء بقوة بقياسات مُعامل الذكاء (IQ). ويُذكر أن الوظائف التي تلائم مثل هؤلاء هي الوظائف العلمية في الفيزياء والرياضيات والمنطق والهندسة والطب والاقتصاد والفلسفة والحاسوب. يَظْهَرُ هذا النوع من الذكاء مبكراً أيضاً عندما يبدأ الطفل في اللعب بألعابِ العدّ في البيت والحضانة، ويَظْهَرُ على نحوٍ أكبر عندما يبدأ الطفل في تعلُّمِ الحساب في المدرسة.

### الذكاء الحركي:

يشيرُ هذا الذكاء إلى قدرة الإنسان على قيادة جسده في الفراغ، ويرتبطُ بذلك أيضاً الإحساس بالتوقيت. مثلاً مهاجمُ كرة القدم الذي يضبطُ التوقيتَ وحركةَ جسده لكي يَطيْرَ في الهواء فيقابلُ برأسه كرةً مرفوعةً من زميله ويسكنُها شباك المرمى - وكلُّ هذا في أقلِّ من ثانية. أو مثلاً حارسُ المرمى الذي يعرفُ متى يخرجُ من مرماه ويقفزُ في الهواء لالتقاط الكرة قبل المهاجم. هذا يتطلبُ ذكاءً حركياً عالياً لقيادة الجسد في الفراغ وضبطُ التوقيت. يُتيحُ هذا الذكاء بالتأكيد لأصحابه التفوقَ الرياضي والنوعَ في الرقص والتمثيل والاستعراض. مثل هؤلاء يستمتعون بالحركة أكثرَ من القراءة أو الاستماع، ويتذكرون بأجسادهم أكثرَ مما يتذكرون بأذهانهم. ومن أمثلة التذكُّر الجسديّ هذا أن تتذكَّرَ الأصابعُ مواضعَ مفاتيح البيانو وغيره من الآلات الموسيقية، أو أزرار لوحة المفاتيح الخاصة بالحاسوب. تُضافُ إلى ذلك أيضاً قيادة السيارات وكلُّ أنواع قيادة المركبات الأخرى. ولأنَّ الذكاء الحركي هو من الصفات النفسية الذكورية، فإننا نجدُ بأنه أفضلُ في الذكور عنه في الإناث، لكنَّ بالتأكيد هناك إناثٌ لديهنَّ هذا الذكاء الذكوري أكثرَ من غيرهنَّ من الإناث، بل ربّما أكثرَ من الذكور أيضاً، غير أن هذا استثناءً. بالإضافة إلى الرياضة والرقص والتمثيل، ينبغُ مثل هؤلاء أيضاً في الجراحة والوظائف العسكرية والوظائف المتعلقة بالبناء والأعمال اليدوية. ويَظْهَرُ هذا النوع من الذكاء أيضاً في صورة المشي مبكراً، وقلة الوقوع على الأرض، ويَظْهَرُ أيضاً على نحوٍ أكبرَ عندما يبدأ الطفل يمارسُ الرياضة المنظمة في المدرسة والنادي.

## الذكاء الموسيقي:

قد يحتاج العازفون الموسيقيون إلى الذكاء الحركي الذي يتيح لهم مهارة استخدام أجسادهم في العزف، أمّا الملحنون والمؤلفون الموسيقيون والمطربون فإنهم يحتاجون إلى ما يُسمى الذكاء الموسيقي، وهو حساسية خاصة للأصوات والإيقاعات الموسيقية. ويحتاج العازفون إلى هذا النوع من الذكاء أيضًا بالإضافة إلى الذكاء الحركي. وعادة ما يتفوق أصحاب الذكاء الموسيقي في الذكاء اللغوي، وهم يتعلمون أفضل من خلال الاستماع والمحاضرات، كما أن ذكاهم الموسيقي اللغوي يجعلهم خطباء جيدين يحركون مشاعر المستمعين من خلال الكلمات المنتقاة والتي تحدث أيضًا إيقاعًا موسيقيًا.

يظهر هذا النوع من الذكاء أيضًا في سنّ الحضانة من خلال ملاحظة سهولة تعلم الأغاني والأناشيد وترديدها بشكل سليم مع ضبط النغمة الموسيقية. يمكن استثمار ذلك الذكاء الموسيقي وإظهاره فيما بعد من خلال ممارسة العزف والاستماع للشعر وكتابته.

## الذكاء العلاقتي (الاجتماعي):

هو الذكاء المرتبط بالاتصال بالآخرين. إن هؤلاء الأشخاص هم من يُقال إنهم منفتحون (Extroverts)، وهم يمتلكون حساسية لمزاج الآخرين ومشاعرهم، كما يحشون بشخصياتهم ودوافعهم. مثل هؤلاء ينجحون في التعاون والعمل في إطار جماعة لأنهم قادرون على التفاعل الاجتماعي ودخول وجدان الآخرين. ويميل بعض هؤلاء إلى القيادة، فيما يميل البعض الآخر إلى التبعية ودعم القيادة. ويكون هؤلاء الأشخاص نابغين في وظائف مثل الوظائف السياسية والقيادية والإدارية، وأيضًا في وظائف المبيعات والعمل الاجتماعي.

يظهر هذا الذكاء أيضًا مبكرًا ويمكن للوالدين دقيقي الملاحظة أن يدركوه مبكرًا عندما يكتشفون أن الطفل لا يبكي ولا يخاف من الأغراب ويستطيع الانسجام بسهولة مع الأطفال الآخرين في مجال الأسرة والأصدقاء والحضانة. ثم يصير ذلك أوضح في المدرسة



من خلال ملاحظة سهولة إقامة العلاقات وتعدُّدها وتنوعها، والقدرة على حل الصراعات فيها بسرعة.

### الذكاء الشخصي الداخلي:

يُمثِّل هذا النوع من الذكاء القدرة على التأمل وإدراك ما يحدث داخل النفس من مشاعر وأفكار. يميل أصحاب هذا الذكاء إلى الوحدة أكثر من الوجود مع الناس، أي يميلون إلى الانطواء (Introvers)، كما أن لديهم قدرة على التحليل والحدس المباشر (Intuition). ويفيد هذا النوع من الذكاء علماء النفس والمعالجين النفسيين واللاهوتيين ورجال القانون والمحامين، حيث إن هؤلاء الناس يفضلون العمل بمفردهم على العمل ضمن فريق. ويبدأ ظهور هذا النوع من الذكاء مع تطوُّر القدرة على الكلام والتعبير، وقد يكون هذا بعد سنِّ السابعة حيث يلاحظُ الوالدان أنَّ الطفلَ يستطيعُ أن تستنتج ما يفكرُ فيه الآخرون وما يشعرون به، ويصدقُ حدسه في مرَّاتٍ كثيرة.

### أنواع أخرى من الذكاء

#### الذكاء الطبيعي (Naturalistic Intelligence):

هو نوعُ الذكاء الذي يجعلُ صاحبه على وعي عالٍ بالطبيعة المحيطة به، مثل الظواهر المناخيَّة والبحر والأرض والشمس وغيرها. يميلُ مثل هؤلاء إلى الأعمال المتعلقة بالحفاظ على البيئة ودراستها، والزراعة وفلاحة البساتين، كما أنَّ لهم هواياتٍ مثل تسلُّق الجبال أو الإبحار والصيد وغيرها.

#### الذكاء الوجوديُّ أو الروحي (Spiritual Existential Intelligence):

وهو القدرة على تأمل القضايا التي تتجاوزُ الحدودَ الحسيَّةَ والمادِّيَّةَ وحدودَ الزمن. يُميِّزُ هذا الذكاء اللاهوتيين والفلاسفة والروحانيين.

## كيف نستفيد من هذه النظرية؟

لقد كان الذكاء الحسابي المنطقي لسنوات طويلة هو ما يُشار إليه تقليدياً بأنه "الذكاء". وبمرور الوقت ظهر الاعتراف بالذكاء اللغوي بصفته نوعاً آخر من الذكاء. وهذا قسم التعليم قسَمين تقليديين: العلمي والأدبي. لكن لسنين طويلة أيضاً كان هناك التلاميذ الذين لا يتفوقون في أي من هذين

يجب أن يتطوّر مفهومنا الاجتماعيّ للنجاح. فالنجاح ليس الشهادات ولا المناصب، بل هو أن يكون الإنسان مُنتجاً ومُبدعاً وسعيداً في عمله.

القسمين - لا العلمي ولا الأدبي. من هنا تأتي نظرية الذكاء المتعدّد هذه لتلقي الضوء على أنواع أخرى من الذكاء التي إذا اكتشفت، فإنها تُتيح لأصحابها فرصاً أكبر للنجاح، هذا بشرط أن يتغيّر ويتطوّر مفهومنا الاجتماعيّ للنجاح. فالنجاح ليس الشهادات ولا المناصب، بل هو أن يكون الإنسان مُنتجاً ومُبدعاً وسعيداً في عمله.

أيضاً على نطاق الهوايات والأنشطة، لا يمكننا - في ضوء هذه النظرية - أن نتطرّف تفوقاً رياضياً من طفل لا يتمتع بالذكاء الحركي، أو تفوقاً موسيقياً في طفل لا يتمتع بذكاء موسيقي؛ إذ إن ما يجري حينها هو مجرد إهدار الجهد والمال في أنشطة لن يحقق فيها الأطفال نجاحاً كبيراً، وسرعان ما سيملّون منها ويهجرونها. وكثيراً ما يضغط الآباء والأمهات على أولادهم وبناتهم ظانين أنّ عدم رغبتهم في مواصلة النشاط هو نوع من الكسل والتراخي، ويحاول الأهل مساعدة الأولاد في التغلب على الكسل والتراخي هذين عبر ممارسة الضغط. صحيح أنّ الطفل على الرغم من محبته للنشاط وامتلاكه نوع الذكاء الخاص به قد يصادف أياً من الكسل، لكن عندما يستمر ذلك دون أن يحرز الأطفال تفوقاً ملحوظاً، يجب أن يدرك الآباء والأمهات عندها أنّ هذا النشاط قد لا يكون الأنسب لأولادهم وبناتهم. كثيراً ما لا يكون رأي المدرّسين والمعلّمين محايداً في ذلك الأمر، إمّا لجهلهم بمفهوم الذكاء المتعدّد وإمّا لأنهم أصحاب مصلحة من استمرار النشاط.

جرت العادة في نُظْم التعليم الحالية أن يُدْفَع الأطفال لِبَدَلِ مجهودٍ أكبر في المواد والموضوعات التي يعانون فيها ضعفاً وذلك حتى يُحسِّنوا درجاتهم حيث إنَّ النَّجَاحَ في التعليم مرتبطٌ ”بالمعدّل العام“ وتوزيع العلامات الثابت بالنسبة إلى كلِّ التلاميذ. هذا يجعلُ التلاميذ يَفْضونَ أغلَبَ وقتهم في دراسة ما لا يحبُّونه، ويُحرِّمونَ من الإِجادة والإبداع في الأمر الذي يتفوّقون فيه. وهكذا يتخرَّجُ الطلبة بمعدّلاتٍ عاليةٍ وبفاعليّةٍ علميّةٍ وتدريبيةٍ أقلّ ممّا كان يمكنُ أن يحدث لو استُثمِرَ أغلَبَ وقتهم فيما يحبُّون فيظهرُ نبوغهم وإبداعهم فيه. في العصر الحديث الذي تتسّع فيه رقعةُ المعرفة الإنسانية على نحوٍ غير مسبوق، صار من غير الممكن أن يُلمَّ أحدٌ بكلِّ فروع العلم أو يتفوّقَ في أكثر من مجال. لهذا السبب يتزايدُ الاتّجاه نحو التخصُّص في كلِّ شيء. وهذا يجبُ أن يدفعنا لأن نكتشفَ مبكراً ما ينبغُ فيه الأطفال للتركيز عليه بهدف تحقيق مزيدٍ من الإِجادة والإتقان. ومن هنا تأتي القاعدة ”٨٠-٢٠“، والتي تقول إنَّ الطالبِ أو الإنسانَ عموماً ينبغي أن يقضيَ ٨٠٪ من وقته يدرسُ ويمارسُ أفضلَ ٢٠٪ ممّا يُتقنُ فعله، وبالعكس، أي أن يُعطيَ ٢٠٪ من وقته لممارسة ٨٠٪ ممّا تبقى من الأمور التي يعملها.

هذا يتطلّبُ بالتأكيد أن يكونَ توزيعُ العلامات مختلفاً ما بين الطلبة بحيث تكونُ العلامات الأعلى هي للمواد التي ينبغُ فيها الأطفال، والعلامات الأقلُّ للمواد الأخرى. ويُتبعُ هذا على نحوٍ محدودٍ من خلال القسمين العلميِّ والأدبيِّ في المرحلة الثانوية، غير أن هذا يجبُ أن يكونَ مبكراً منذ الصفِّ الأوّل الابتدائي، ويجب أن تكونَ هناك أقسامٌ أخرى كالقسم التشكيليِّ والموسيقيِّ والرياضيِّ. وإلى أن تجري هذه التغيّرات، فإننا سنظلُّ نُصارعُ مع أولادنا في المواد التي لا يفضلونها حتى يكونَ المجموع العام مرتفعاً!

## الذكاء الاجتماعي

بحسب تعريف إدوارد ثورنديك (Edward Thorndike) - الذي يُعدُّ أوّل من اخترعَ تعبيرَ

٢ جون ماكسويل، واحد وعشرون قانوناً للقيادة، ترجمة أوسم وصفي (القاهرة: كنيسة قصر الدوبارة، ١٩٩٨م).

”الذكاء الاجتماعي“ سنة ١٩٢٠م- فإنّ الذكاء الاجتماعي هو ”القدرة على فهم الرجال والنساء والأولاد والبنات، للتصرف بحكمة في العلاقات الإنسانية وكيفية إدارة هذا التصرف“<sup>٣</sup>. وبحسب العالم النفسي دانييل غولمان (Daniel Goleman) أحد الكُتّاب الرُّواد في مجال الذكاء الوجداني والاجتماعي، الذكاء الاجتماعي هو أمرٌ شديد الارتباط بالذكاء الوجداني، أي القدرة على إدارة المشاعر. فالمشاعر لا تنشأ إلا في إطار العلاقات، وليس

- مكوّنات الذكاء الاجتماعي:
١. مهارات الحسّ الاجتماعي
    - الإحساس المباشر
    - التركيز
    - الفهم الدقيق للمشاعر
    - استيعاب المواقف الاجتماعية
  ٢. مهارات القدرة الاجتماعية
    - التزامن
    - تقديم النفس
    - التأثير
    - الاهتمام

لإدارتها قيمة إلا من خلال تأثير ذلك في العلاقات. فأكثر ما يثير غضبنا هم البشر، وأكثر ما يجعلنا نحاول أن نتحكّم في غضبنا هم البشر أيضاً. لذلك يقسم غولمان الذكاء الاجتماعي قسمين كبيرين: الحسّ الاجتماعي، وهو الطريقة التي بها نعي الآخرين، والقدرات الاجتماعية، أي الطريقة التي بها نتعامل مع ذلك الوعي.<sup>٤</sup>

قد يستطيع الآباء والأمهات أن ينمّوا الحسّ الاجتماعي لدى أبنائهم وبناتهم مبكراً جداً في حياتهم، ممّا يؤهلهم إلى اكتساب القدرات الاجتماعية فيما بعد. وفي ما يلي سنورد بعض مهارات الحسّ الاجتماعي وكيف ننمّيها في الأطفال.<sup>٥</sup>

#### الإحساس المباشر (Primal Empathy):

وهو تلك القدرة على التقاط مشاعر الآخرين، وأحياناً أفكارهم ونواياهم، وذلك من خلال قراءة

3 [http://en.wikipedia.org/wiki/Social\\_intelligence](http://en.wikipedia.org/wiki/Social_intelligence)

4 Daniel Goleman, *The Social Brain*, (London: Arrow books, 2006), p. 84

٥ للاطلاع على مزيد من مهارات القدرة الاجتماعية، يمكن الرجوع إلى كتاب ”العلاقات“ للمؤلف من سلسلة ١٨٠ درجة، من منشورات أوفير للطباعة والنشر، (عمّان، ٢٠٠٩م).

اللغة غير اللفظية التي تظهر على وجوههم، ومن نعمة أصواتهم وطريقة نطقهم للكلام. عندما يقرأ الآباء اللغة غير اللفظية التي تنطبع على وجوه أبنائهم وبناتهم من حزن أو غضب ويعطونها ألفاظاً، فهم عندئذ يعلمونهم أن يفعلوا الأمر ذاته. وعندما يقرأ الأطفال مشاعر آبائهم وأمهاتهم؛ ويعترف الآباء والأمهات بهذه المشاعر، فهم أيضاً يدرّبون أبناءهم على تعرف مشاعر الآخرين (أبي، تبدو غاضباً. فيجب الأب: أجل يا حبيبي!).

#### التركيز (Attunement):

التركيز هو أن يختار الإنسان إرادياً أن يكون حاضراً ومنتبهاً، وأن "يضبط موجته" على موجة من يتحدث إليه، حتى يمكنه الوصول إلى فهم عميق بشأن ما في داخله من أفكار ومشاعر. إن الآباء والأمهات يمارسون هذا من خلال إعطائهم وقتاً لأبنائهم، ويركزون معهم، ويضبطون موجاتهم الوجدانية مع أولئك الأبناء، وذلك عبر النظر إلى العينين والصمت والاستماع. قد نحتاج إلى تخصيص أوقات خاصة لكل ولد أو بنت، ويمكن أن يتم ذلك بالخروج معاً لتناول الغداء أو العشاء.

#### الفهم الدقيق لمشاعر الآخرين (Empathic Accuracy):

إن الدقة في فهم مشاعر الآخر هي نتيجة طبيعية للإحساس المباشر بمن يتكلم والتركيز إلى ما يقوله. فنحن عندما ننتبه إلى ما يقوله الآخر من أفكار ومشاعر وصراعات واحتياجات، فإننا "ندخل" عالم ذلك الإنسان، ونبدأ في رؤية الدنيا من منظوره هو. ليس بالضرورة أن نوافق على هذه الرؤية أو أن نتبناها، ولكننا بفهمنا للمشاعر والأفكار نقل إلى الآخر قبولاً لشخصه واهتماماً صادقاً به. ويحدث هذا من خلال الأسئلة التي تتيح للطفل أو المراهق أن يتكلم بشأن ما يشعر به، فنستطيع أن نفهم مشاعره.

#### استيعاب المواقف الاجتماعية (Social Cognition):

هذه هي قدرة الشخص عندما يتعرض لموقف اجتماعي معين، فيستشعر بتلقائية ما هو مقبول

وما هو غير مقبول في هذا الموقف الاجتماعي. بعبارةٍ أخرى، أن يستطيع أن يعرف مباشرة كيف تسيّر الأمور في ذلك المكان: متى يتكلم ومتى يصمت. ما الكلام المناسب وما الكلام غير المقبول. فما يمكنُ قَوْلُهُ في مكانٍ ما، لا يجوزُ قَوْلُهُ في مكانٍ آخر. وما هو مقبولٌ في مناسبةٍ ما، قد يكون غير مقبولٍ في مناسبةٍ أخرى. يراقبُ الأطفالُ آبَاءَهُم وأُمَّهَاتِهِم ويتعلّمون منهم استيعابَ المواقف الاجتماعية. قد يكونُ هذا النّقلُ غيرُ المباشر أكثرَ تأثيرًا من التعليم المباشر، وإن كان التعليم المباشر مهمًّا أيضًا.

أما بالنسبة إلى مهارات القدرة الاجتماعية، فهناك المهارات التالية:

التزامن (Synchrony):

المقصودُ بالتزامن هو أن يستطيعَ الإنسانُ ضَبَطَ إيقاعه على إيقاع شخصٍ آخر وكأنَّ قلبيهما يخفقان معًا على الموسيقى نفسها، سواءً كانت موسيقى حزينَةً أم فرحة، هادئةً أم صاحبة. أفضلُ ما يجعلُ الإنسانَ سعيدًا ويساعده على تحمّلِ مصاعبِ الحياة الداخلية والخارجية، هو أن يجدَ بجانبه قلبًا يفهمه ويخفقُ على إيقاعه. وعندما يحدثُ التزامُن على المستوى القلبي، يظهرُ ذلك أيضًا حتّى في لغة الجسد، فيبدأُ الجسدان في التحركَ معًا بتوافق. فعندما يضعُ أحدهما ساقًا على ساقٍ مثلاً، نجدُ الآخرَ قد فعلَ الأمرَ نفسه بصورةٍ تلقائيةٍ غير مقصودة. وإن رَفَعَ أحدهما نبرةَ صوته قليلاً، نجدُ الآخرَ يرفعُ صوته بالمقدار نفسه. حتّى السكتات بين الكلمات وتنغيمها تتوافقُ بين الاثنين، وتقلُّ المقاطعاتُ بالتدرّج وكأنَّهما يُلقيان حوارًا مكتوبًا قد تدرّبًا على إلقائه، أو كأنَّهما يرقضان معًا على إيقاعٍ غير مسموع!

تقديمُ النفس (Self-presentation):

هناك أشخاصٌ عندما يبدأون في الحديث، نجدُ أن عيونَ الناس بدأت تلمع وقد بدا النشاط ساريًا فيهم بعد الملل، ثمَّ سرعان ما تتعلّقُ عيونُ السامعين وعقولهم بذلك الشخص، حتّى إنَّه يأسرهم تمامًا، ثمَّ يبدأ في الإبحار بهم عبر أمواج الحديث ليصلَ بهم إلى المرفأ الذي يريده، ولا يتركهم

إلا بعد أن يكونوا قد فهموا تمامًا واقتنعوا بالكامل بوجهة نظره. وحتى إن لم يقتنعوا بما قد قاله، فإنهم لا يفقدون اقتناعهم به. هذا هو ما يطلق عليه "الجاذبية الاجتماعية" أو "الكاريزما". هذه الصفة هي أحد جوانب مهارة تقديم النفس.

إن هذه المهارة منفصلة تمامًا عن المهارات أو الخبرة أو النواحي الأخلاقية للشخصية. كما يمكن لصاحبها أن يستخدمها في الخير أو في الشر؛ فربما يستخدم الإنسان جاذبيته للتضليل والاحتيال، ويمكن أن يوظفها لإقناع الناس بقضايا عادلة وأهداف نبيلة. وهي مهارة لا غنى عنها لمن يريد التواصل مع الجماهير؛ فلا تكفي النيات الطيبة وحدها لإقناع الناس وتحقيق التغيير المنشود. وعندما تجتمع الجاذبية الاجتماعية مع الاستقامة الأخلاقية، فإن الناتج هو القادة الذين يغيرون المجتمع إلى الأفضل.

وإذا تأملنا في الشخصيات التي تتمتع بتلك الجاذبية، سواء كانوا ممثلين أم مديعين أم معلمين أم قادة أم مديرين، فس نجد أنها شخصيات تتميز ببعض الصفات: أولها التواصل العميق مع المشاعر؛ فالشخص الجذاب اجتماعيًا هو شخص يُعبر بسهولة عن مشاعره وأفكاره، ويستطيع الكلام بشؤون وحياته الشخصية دون خجل، وفي الوقت نفسه لا يتجاوز تعبيره القواعد المقبولة اجتماعيًا؛ لأنه يزن بمهارة ما بين طلاقة التعبير ولياقة الاحترام. أما الاستسلام للخجل أو الصراحة المتجاوزة، فهما أمران يفقدان الإنسان الكثير من رصيده لدى الآخرين.

وعادة ما تختلف القواعد الاجتماعية من مكان إلى آخر. ففي ثقافتنا العربية الإقليمية، يمكن أن يختلف معنى الكلمة الدارجة من ثقافة إلى أخرى؛ فالكلمة نفسها قد لا تسبب إحراجًا في ثقافة ما، لكنها تسبب إحراجًا شديدًا في ثقافة أخرى. والأمر ذاته ينطبق على حركات الجسد. ففي الثقافة الغربية، مثلًا، لا يشكّل وضع اليد في الجيب في أثناء الحديث إلى الجمهور أدنى مشكلة للسامعين، كما لا يشكّل مشكلة أيضًا وضع ساق على ساق في أثناء الجلوس إلى شخص آخر، بينما قد يُعبر هذا في الثقافات الشرقية عن التّعالي واحتقار الآخر.

وتلعب أيضاً المهارة اللغوية والقدرة على اختيار الكلمات المناسبة جانباً كبيراً من الجاذبية الاجتماعية، وتُضاف إلى ذلك أيضاً القدرة على الوصول إلى المعاني بعددٍ قليلٍ من الكلمات، فالناس يفقدون تركيزهم وتقل حماسهم إذا تكلم المتحدث كثيراً، وفي النهاية يكتشفون أنه لم يقل شيئاً!

وتُضاف أيضاً إلى ما سبق القدرة على ضبط انتقال الحديث من موضوع إلى آخر على نحو سلس ومنطقي؛ فهذه الصفة تزيد من جاذبية المتحدث. أمّا القفز من موضوع إلى آخر دون رابطٍ منطقيٍّ وواضح، سيفقد المستمع التركيز مع المتحدث إليه.

بالإضافة إلى ذلك يتميَّز المتحدثون الجيِّدون بالقدرة على التغيير في نبرة الصوت وشدته وتلون الصوت بطريقة مناسبة للمشاعر ومحتوى الكلام. فالكلام الحماسي يجب أن يُقال بصوت أعلى قليلاً وبايقاع نشط. أمّا الكلام الحميم فيحتاج إلى نبرة صوتٍ أحنّ وبايقاع رقيق هادئ. كما أن استخدام السكتات والإيماءات وحركات الجسد - هذه جميعها أدوات يمارسها المتحدث الذي يتمتّع بالجاذبية الاجتماعية حتى يتمكن من أن يجذب سامعيه ويجعلهم مشتركين معه في الموضوع الذي يتحدث بشأنه.

#### التأثير (Influence):

لا عجب أن يتمتّع الأشخاص ذوو الجاذبية الاجتماعية بمساحة كبيرة من التأثير في الآخرين. والتأثير هو المادة الخام للقيادة بكل صورها. فالقيادة هي التأثير لا أكثر ولا أقل. وإذا تتبّعنا من أين يأتي التأثير وفقاً لنظرية الذكاء الاجتماعي، فسنجد أنه ينبع من الداخل إلى الخارج. أولاً من تواصل الإنسان بنفسه ووجدانه، ثم سهولة شعوره بوجدان الآخرين بصدق وأصالة ودقة، ثم مهارته في تقديم نفسه أمام الآخرين بصورة يتزّن فيها صدق التعبير مع الرصانة والكياسة. كل هذا يتيح للإنسان فرصة التأثير في الآخرين.



## الاهتمام (Concern):

عندما نشعرُ بالآخرين بشكلٍ عميق، فإننا نشعرُ بالاهتمام بهم. ويعني هذا أن نكونَ مستعدّين لأنَّ "نحملَ الهمَّ" معهم ونشاركهم حَمْلَ أثقالهم. هذا الشعورُ الوجدانيُّ الاجتماعيُّ هو الذي يدفعنا لأن نقومَ بأمرٍ ما لمساعدة الآخرين.

هكذا نرى أنَّ المهاراتِ الاجتماعيَّةَ تبدأ من الشعور بالآخرين والتركيز لمحاولة فهمهم، وتنتهي بالتأثير في الآخرين والتأثر بهم.



## نصائِحُ ختامية

- الخطوة الأولى لتَحقيق النجاح هي أن تكتشف نَوْعَ ذكائك وتقبّله، وبالمثل أن تكتشفَ أنواعَ ذكاءِ أولادك وبناتك وتقبّله.
- ليس الذكاءُ العلميُّ أو التفوقُ الدراسيُّ أهمُّ أنواعِ الذكاء. فقد أثبتتِ الدراساتُ النفسيَّةُ الحديثةُ أنَّ النجاحَ في العملِ والحياةِ والعلاقاتِ يعتمدُ على الذكاءِ الوجدانيِّ والاجتماعيِّ أكثرَ من اعتماده على الذكاءِ التقنيِّ والمِهنيِّ.
- ليس النجاحُ أن تعرفَ كلَّ شيءٍ وتُتقِّنه، بل أن تركزَ على الأنشطة التي تكمنُ فيها مواهبك، فتتقِّنها وتتفوقَ فيها وفقاً للقاعدة (٨٠-٢٠).

## دعاء

أعطني ياربُّ السَّكِينَةَ لِأَقْبَلَ نَوْعَ ذَكَائِي وَنَوْعَ ذَكَاءِ أَوْلَادِي،  
وَالشَّجَاعَةَ لِكِي أَدْرِبَ هَذَا الذِّكَاءَ بِأَفْضَلِ طَرِيقَةٍ .  
عَلِّمْنِي أَنْ أَكُونَ مُسْتَقِلًّا عَنْ تَقْيِيمِ الْآخَرِينَ لِأَوْلَادِي .  
عَلِّمْنِي أَيْضًا أَنْ أَتَخَلَّى عَنْ تَحْقِيقِ أَحْلَامِي مِنْ خِلَالِهِمْ،  
وَأَنْ أَسَاعِدَهُمْ عَلَى تَحْقِيقِ أَحْلَامِهِمْ هُمْ،  
وَأَنْ أَرِافَقَهُمْ لِيَكُونُوا كَمَا خَلَقْتَهُمْ أَنْتَ .

أَمِين





## الفصل الثاني عشر

# الاضطرابات التطورية وكيفية التعامل معها<sup>1</sup>

سئل حكيم: "أي أبنائك أحب إليك؟" فقال: "الصغير حتى يكبر،  
والمرضى حتى يشفى، والغائب حتى يعود".

مثل عربي قديم

المقصود بالاضطرابات التطورية أن الطفل يكون متأخرًا في تحقيق ما هو مفترض منه أن يؤديه من مهارات وقدرات بالنسبة إلى عمره على الرغم من خلوه من الأمراض العضوية. تُقسّم هذه الاضطرابات قسمين أساسيين: الاضطرابات المحددة (Specific Developmental Disorders) وهي تُصيب وظائف محددة مثل اضطرابات التعلم التي تصيب القراءة أو الكتابة أو الحساب، واضطرابات التواصل مثل اضطرابات اللغة أو النطق. أمّا الثاني فهو الاضطرابات المتفشية (Pervasive Developmental Disorders)، والتي تشير إلى مجموعة من الاضطرابات تتفشى في العديد من الوظائف الرئيسية للطفل تعيق قدرته على التواصل والعلاقات الاجتماعية، وأهمها

1 المعلومات العلمية الواردة في هذا الفصل مع ااردة مع التبسيط من كتاب:  
Kaplan & Sadock's Synopsis of Psychiatry (Vol.3)، إضافة إلى بعض مصادر ومقالات أخرى.

الذاتوية (Autism) ٢، ومتلازمة أسبرغر (Asperger's Syndrome).

### الاضطرابات المتفشية:

أ. الذاتوية

ب. متلازمة أسبرغر

### الاضطرابات المحددة:

أ. اضطرابات التعلم

١. اضطراب القراءة

٢. اضطراب الكتابة

٣. اضطراب الحساب

ب. اضطرابات التواصل

١. اضطرابات اللغة

- اضطراب التعبير

- اضطراب الاستقبال والتعبير

٢. اضطراب الكلام

- اللثغة

- التلعثم

### الاضطرابات المحددة

أ. اضطرابات التعلم

تُقسَم اضطرابات التعلم (Learning Disorders)

ثلاثة أقسام أساسية هي: اضطراب القراءة،

واضطراب الكتابة، واضطراب الحساب. وهي

عموماً تصف صعوبة لدى الطفل أو المراهق في

اكتساب المهارات المتوقعة في هذه المجالات بالنسبة

كثير من الأطفال الذين يعانون هذه الصعوبات قد تعرّضوا للإهانات الشديدة والضرب في المدارس والبيوت نتيجة للخلل ما بين صعوبات التعلم والكسل والتمرد.

٢ كان يُطلق على هذا المرض سابقاً اسم "التوحد"، أما اسم "الذاتوية" فهو ترجمة أدق؛ حيث إن كلمة التوحد هي أيضاً ترجمة الكلمة الإنكليزية (Identification) بمعنى "التوحد مع الغير"، أي تقمص مشاعر الآخر، وهو أمر غير ممكن بالنسبة إلى مريض الذاتوية.

إلى العمر أو مستوى التعليم<sup>٣</sup>، أو القدرات العقلية. كثيرًا ما تكون صعوبات التعلم مصحوبةً باضطراباتٍ أخرى مثل نقص الانتباه/الحركة الزائدة (ADHD)، أو اضطرابات التواصل أو السلوك أو الاكتئاب. ترجع الأسباب إلى استعداد وراثي، أو إصابة قبل الولادة، وغيرها من الحالات البيولوجية والطبية.

#### ١. اضطراب القراءة:

يُكتشفُ عندما يجدُ الطفلُ صعوبةً بالغةً ومتكررةً في القراءة أكثر من الأطفال الذين في عمره ومرحلته الدراسية. وعندما يُقاسُ ذكاؤه يكونُ معدّلُ ذكائه معتادًا ولا يُفسّرُ ضعفه في القراءة. وتظهرُ هذه الصعوبة في صورة:

- صعوبة تعلّم الحروف الألفبائية وصعوبة ترتيبها.
- صعوبة ربط الحروف بالأصوات الدالة عليها.
- صعوبة نطق الكلمات بإيقاعها الصحيح أو عدّ مقاطع الكلمة.
- صعوبة إيجاد الكلمة المناسبة أو تذكر أسماء الأشياء.
- صعوبة تعرّف الكلمات من شكلها.
- الخلط ما بين المقاطع المختلفة في الكلمات، مثل الرّماخة بدل الرّخامة، و(Aminal) بدل (Animal).
- الخلط ما بين التركيبات النحوية (المذكر/المؤنث، الجمع/المفرد)، أو تهجّي الحروف.

عادةً ما يُكتشفُ هؤلاء الأطفال في السنة الابتدائية الأولى أو الثانية. الأطفال الأذكي يمكن أن يعوّضوا هذا الاضطراب من خلال الذاكرة والاستنتاج، فلا يُكتشف حتّى السنة الدراسية الرابعة. وتصلُ نسبة المصابين باضطراب القراءة إلى نحو ٤٪ (٢-٨٪) من طلبة المدارس. ونحو ٢٥٪ منهم يمكن أن يكونوا مُصابين أيضًا بضعف الانتباه

٣ بسبب انخفاض مستوى التعليم يمكن أن يُشخص الأمرُ بالخطأ على أنّه اضطرابات تعلّم.

(ADHD) والعنف والاكثتاب والقلق. هذا بالتأكيد يؤدي إلى صعوبة في الدراسة، وإلى انخفاض في معنويات الطفل وفي صورته عن ذاته.

عادةً عندما يصلُ الطفلُ إلى السنة الرابعة الابتدائية، تزدادُ صعوبةُ مجاراة زملاءه دون تعليمٍ متخصص. كلما اكتشِفَ هذا الاضطرابُ مبكرًا في أثناء الحضانه، وجرى وضعه في تعليمٍ متخصص، كانتِ النتائجُ أفضل. لذلك يجب ملاحظة التأخر في الكلام قبل سنّ الحضانه، وصعوبة تعلّم الحروف الألفبائية وكلمات الأغاني في الحضانه.

أغلب البرامج الناجحة للتعليم العلاجي تبدأ من تعليم الطفل الربط الصحيح ما بين الحروف والأصوات. وبعد إجادة الربط ما بين كل حرفٍ والصوت الخاص به، يبدأ التعاملُ مع المقاطع ثم الكلمات والجمل وهكذا. يجري التدريبُ في مجموعاتٍ صغيرة منظمّة من الأطفال، وتلعبُ العلاقة بالمعلم دورًا كبيرًا. ويجبُ التعاملُ علاجياً مع ما قد يصاحبُ الحالة من اكتتابٍ أو قلقٍ أو نقصٍ في الانتباه أو الحركة الزائدة. من المفيد أيضاً تقديم المشورة للوالدين.

## ٢. اضطراب الكتابة:

يُعدُّ الطفلُ مُصاباً باضطراب الكتابة عندما لا يتمتّع بمهارات الكتابة المتوقّعة بالنسبة إلى عمره وتعليمه. يظهرُ هذا الاضطرابُ في صورة أخطاء التهجّي والنحو والترقيم والسوء الشديد للخط، حتّى في الجمل البسيطة والقصيرة، ويكون هذا على نحوٍ مبالغ فيه ومتكرّر على الرّغم من التذكير أكثر من مرّة

كلّما كان الاكتشاف مبكراً؛  
ووضِعَ الطفلُ مبكراً في البرامج  
التعليمية الخاصة، كان التحسّن  
أسرع وأفضل، وقلّ كذلك التأثير  
النفسي والاجتماعي، وقلّت  
فرض تكوين صورة سيّئة عن  
الذات وقلّت أيضاً فرض حدوث  
انعزال واكتتاب ومهارات  
اجتماعية منخفضة.

وبشكلٍ يؤثّر تأثيراً بالغاً في التقدّم الدراسي للطفل. كثيراً ما يلازم اضطراب الكتابة اضطراب الكلام والقراءة وغيرهما من الاضطرابات التطوريّة مثل نقص الانتباه.



لذلك عندما يُكتشفُ اضطرابُ الكلام والقراءة- وهذا يحدثُ قبل أن يتعلّمَ الطفلُ الكتابة- يجب أن نتوقّع أنّ الطفلَ غالبًا ما سيُعاني أيضًا اضطرابَ الكتابة. عمومًا في كلِّ اضطرابات التعلم، كلّما كان الاكتشافُ مبكرًا؛ ووضِعَ الطفلُ مبكرًا في البرامج التعليمية الخاصّة، كان التحسُّنُ أسرعَ وأفضَلَ، وقلَّ كذلك التأثيرُ النفسي والاجتماعي، وقلَّت فرصُ تكوينِ صورةٍ سيئةٍ عن الذات وقلَّت أيضًا فرصُ حدوثِ انزعالٍ وكتئابٍ ومهاراتٍ اجتماعيةٍ منخفضة. من المهمّ أيضًا أن يدركَ الآباءُ والأمهاتُ مفهومَ صعوبات التعلم ولا يخلطوا بينها وبين الكسل أو التمرّد؛ لأنَّ الكثيرَ من الأطفال الذين يعانون هذه الصعوبات قد تعرّضوا للإهانات الشديدة والضرب في المدارس والبيوت عقابًا لهم على ما ليس لهم ذنبٌ فيه.

### ٣. اضطرابُ الحساب:

يعاني الأطفال المصابون بهذا الاضطراب صعوبةً في تعلُّم الأرقام وتذكُّرها، وصعوبةً في إجراء العمليات الحسابية البسيطة بما لا يتوافقُ مع عمرهم ومستوى ذكائهم وتعليمهم. ومن الأمثلة على هذه الصعوبات مايلي: صعوبةُ تحويل المسائل المكتوبة بالكلام إلى أرقام، وصعوبةُ تعرُّف رموز الأرقام، وصعوبةُ إجراء المهارات الحسابية الأساسية، مثل الجمع والطرح والضرب والقسمة، وصعوبةُ نقل الأرقام بشكلٍ صحيح، ومشكلة في معرفة الاتجاهات (يمين / يسار)، وصعوبة في قراءة الساعة واستيعاب مفهوم الوقت، ومشكلة في حساب النقود أو وُضِعَ ميزانية، وصعوبة استيعاب المفاهيم الرياضية والمتتاليات والمتسلسلات (مثل طرح العدد ٧ من العدد ١٠٠ على شكل متتالية)، وصعوبة تذكُّر النتيجة في المباريات الرياضية. عادةً ما يُكتشفُ هذا الاضطرابُ في سنِّ الثامنة (الصفِّ الثالث الابتدائي)، ويُعالجُ بالتدريب المكثف وألعاب الحاسوب وغيرها.

### ب. اضطراباتُ التواصل

تشكّلُ اللغةُ المنطوقةُ حجرَ الأساس في التواصل ونَقْلِ الأفكار بين البشر، لذا فهي وعاء العلاقات الإنسانية الضرورية للنموّ الوجداني والاجتماعي. حتّى يجيدَ الطفلُ أو المراهقُ

التواصل، فإنه يحتاج لأن يُجيدَ كلَّ مهاراتِ اللغة ومهاراتِ الكلام. هناك أربعة اضطراباتٍ أساسيةٍ للتواصل، اثنان منها يُعدّان اضطراباتٍ في اللغة (Language)، أمّا الاضطرابان الآخران فيُعدّان اضطراباتٍ في الكلام (Speech).

## ١. اضطرابات اللغة:

هناك، كما أشرنا، نوعان من اضطرابات اللغة وهما:

- اضطراب التعبير (Expressive Language Disorder).
- واضطراب الاستقبال والتعبير (Mixed Receptive-Expressive Disorder).

بالنسبة إلى اضطراب التعبير، يُعاني الطفلُ ضعفاً في الحصيللة اللغوية وتذكرِ الكلمات واختيار الكلمات المناسبة للمواقف. ويحدثُ هذا الاضطرابُ غالباً مع النمو بوصفه اضطراباً تطورياً أولياً. ويُسَخَّصُ وجودُ اضطرابٍ تعبيرى في اللغة عندما يَظْهَرُ لدى الطفل عجزٌ في المهاراتِ التعبيرية، بينما يكونُ أدائه طبيعياً في مهارات استقبال الكلام، والتواصل غير اللغوي. ولأن هؤلاء الأطفال يعانون ضعفاً في الحصيللة اللغوية، فإنهم يستخدمون بإفراطٍ كلماتٍ مثل ”يعني“ ”وكذا“ و”أشياء“، بدلاً من الكلمة التي لا يستطيعون الوصول إليها، كما يُكثرون من استخدام اليدين والجسد للتعويض عن عجزهم في التواصل اللغوي. بالإضافة إلى ذلك تكثُرُ الأخطاء النحوية في الزمان والمكان والمذكّر والمؤنث. وبسبب عدم قدرتهم على التواصل يمكن بسهولة أن ينعزلوا اجتماعياً، وهذا يؤثرُ بالتأكيد في صورتهم عن ذاتهم، كما يؤثرُ في مزاجهم ومهاراتهم الاجتماعية. يَظْهَرُ هذا الاضطرابُ حول عمر السنة والنصف عندما يفشلُ الطفلُ في استخدام الكلمات البسيطة التي يُفترض به أن يستخدمها في مثل هذا العمر مثل ”ماما“ أو ”بابا“ مع كونه قادراً على التواصل بالإشارة وبالتقاء العينين. وللتأكد من التشخيص، يجب أن تُجرى بعض الاختبارات الخاصة.

أمّا بالنسبة إلى اضطراب الاستقبال والتعبير، فتوجدُ درجةً من الاضطراب في كلِّ

من الفهم والتعبير اللغوي تؤدي إلى إعاقة أكاديمية مهمة. كلما شخصت هذه الاضطرابات مبكراً وجرى قياسها بشكل أكاديمي سليم؛ وكلما بدأت البرامج العلاجية مع المتخصصين في وقت مبكر، قلت تأثيراتها النفسية والاجتماعية في شخصية الأطفال والمراهقين.

واليكم في الجدول التالي ملخصاً للمسار الطبيعي لتطور اللغة والتواصل عموماً لدى الأطفال حتى تتمكن من استخدامه للاسترشاد والاكتشاف المبكر لأي تأخر أو اضطراب.

العمر	تطور اللغة	تطور التواصل غير اللفوي
سنة	<p>يدرك اسمه.</p> <p>يطيع أوامر مصحوبة بإشارات (باي باي).</p> <p>ينطق كلمة أو اثنتين.</p> <p>يخلط الكلام.</p> <p>يستخدم إشارات في التواصل مثل الإشارة.</p>	<p>يقف بمفرده.</p> <p>يخطو أول خطوة بمساعدة.</p> <p>يستخدم الكوب والملعقة.</p> <p>يمسك الأشياء ويتركها.</p> <p>يبحث عن الأشياء حيث تركها.</p>
سنتان	<p>يستخدم ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ كلمة.</p> <p>يعرف أسماء أغلب الأشياء المعتادة.</p> <p>يتكلم جملة من كلمتين.</p> <p>يستخدم بعض الضمائر وحروف الجر.</p> <p>يمكن أن يطيع أوامر حتى دون إشارات.</p>	<p>يصعد السلالم وينزلها دون تبادل القدمين.</p> <p>يجري، لكنه لا يبدأ أو يتوقف بسهولة.</p> <p>يأكل بالشوكة.</p> <p>يعاون الكبار في أعمال بسيطة.</p> <p>يستمتع بالألعاب التي تحوي حركة.</p>

العمر	تطوّر اللغة	تطوّر التواصل غير اللغويّ
ثلاث سنوات	يستخدم ما بين ٩٠٠ و ١٠٠٠ كلمة. يتكلّم جملةً من ثلاث كلمات. يطبعُ أمرًا من خطوتين (اخرُجْ وأغلقِ الباب). يكرّر جملاً من ٥-٧ مقاطع (ما-ما ز-مان-ها-جا-ية). كلام يفهمه أفراد الأسرة.	يقود دراجة بثلاث عجلات. يستمتع بالألعاب الخياليّة. يوقّف ما بين الألوان الأوليّة. يستطيع الوقوف للحظات على قدمٍ واحدة. يشارك في لعبة لفترة قصيرة.
أربع سنوات	يستخدم ما بين ١٥٠٠ و ١٦٠٠ كلمة. يستطيع سرد أحداث وقصص قريبة الحدوث. يفهم أغلب الأسئلة المتعلقة بالبيئة المباشرة. يستخدم كلمات الرّبط (لكن، إذا، لو). يمكن للأغراب أن يفهموا كلامه.	يصعد السلم وينزله مع تبديل القدمين. يقف على ساقٍ واحدة. ينسخ الأحرف المفردة. يلعب ألعاباً تمثليّة برفقة آخرين. يمكن أن يصنّف الأشياء المعتادة.
خمس سنوات	يستخدم ما بين ٢١٠٠-٢٣٠٠ كلمة. يتكلّم بشأن المشاعر. يفهم ظروف المكان والزمان (فوق، تحت، بعد، قبل) يطبعُ أمرًا من ثلاث خطوات. يقلّد اسمه كتابةً.	يرتدي ملابس دون مساعدة. يستطيع الأكل بالسكين. يرسم شخصًا يمكن التعرف إليه. يلعب ألعاباً بناءً ولها أهداف. يفهم علاقة الجزء بالكلّ.

العمر	تطور اللغة	تطور التواصل غير اللفظي
ست سنوات	يعرف الكلمات بوظائفها وصفاتها. يستخدم مجموعة من الجمل المعقدة المبنيّة جيّداً. يستخدم أجزاء الكلام (الأفعال الأسماء، الصفات، الربط... إلخ) يفهم الربط ما بين الحرف والصوت الدالّ عليه.	يقود دراجة بعجلتين. يقذف الكرة جيّداً. يحتفظ بانتباهه إذا كان مهتماً. يستمتع بالألعاب التنافسيّة.
ثماني سنوات	يقرأ كتاباً بسيطاً للأطفال. يستمتع بالنكات والأحاديث. يعبّر بسهولة عن الأفكار والمشكلات. يعرف الطلاب غير المباشرة (الجوّ حارّ، فيفتح النافذة). يُصدِرُ كلَّ أصواتِ الكلام بطريقة الكبار.	يفهم المحافظة على الأشياء. يعرف يمين الآخرين ويسارهم. يعرف الأمور المتشابهة وتلك المختلفة. يقبل اختلاف وجهات نظر الآخرين. يصنّف الأشياء نفسها لأكثر من فئة.

\* Kaplan & Sadock's Synopsis of Psychiatry (Vol.3) Williams & Wilkins, 2004 p. 1195.

الجدول رقم (١) التطور الطبيعي للتواصل

## ٢. اضطرابات الكلام:

هناك، كما أشرنا، نوعان من اضطرابات الكلام وهما:

- اللثغة (Phonological Disorder).
- التلعثم (Stuttering).



اللثغة هي الفشل في إصدارِ أصواتِ بعض الحروف. وهي قد تكونُ في حرفٍ واحدٍ أو في عدَّة أحرف. ويمكنُ أن تؤثرَ في النجاح الأكاديميِّ والمهنيِّ والتواصل الاجتماعيِّ. هناك ما يسمَّى باللثغة الرائيَّة وهي قد تكون واحدًا من ثلاثة أنواع: نُطقُ الراءِ ياءً أو واوًا، أو نُطقُها غينًا أو لامًا. هناك أيضًا اللثغة السينيَّة، وتأتي على ثلاثة أشكالٍ أيضًا: أوَّلها وأكثرها شيوعًا هو اللثغة السينيَّة

الأماميَّة، والتي يخرجُ فيها الهواء من الأمام، فتُنطقُ السين ثاءً، مثل القطِّ سيلقستر (Sylvester) الشخصبيَّة الكرتونيَّة المشهورة. وهناك أيضًا لثغةً سينيَّةً جانبيَّة يخرج فيها الهواء من جانب الفم وصوتها مزيج بين الكاف والحاء. وهناك اللثغة السينيَّة البلعوميَّة، والتي يخرج فيها الهواء من الأنف، وهي شبيهة ”بالحنف“.

وتعالجُ هذه اللغاتُ باستخدام برامجٍ سلوكيَّةٍ خاصَّة يُجريها اختصاصيُّو التَّخاطبِ (Speech Therapists)، وفي بعض الأحيان تحتاجُ إلى بعض العمليَّات الجراحيَّة البسيطة.

يُعدُّ التلعثمُ أشهرَ اضطراباتِ الكلام، وهو ظاهرةُ التوقُّفِ اللَّإراديِّ لسريان الكلام. قد يكونُ هذا على شكلِ تكرارِ الأصوات أو إطالتها، أو التوقُّفِ المتكرَّر في أثناء الكلام، أو إقحامِ أصوات على الكلمة. قد يستبدلُ الشخصُ بالكلمة التي يحدثُ عندها التلعثمُ كلمةً أخرى لمنع توقُّف الكلام. يصاحِبُ التلعثمُ حركاتٌ في العين والفم واللسان والرأس أو ربَّما الجسم ككلِّه. يبدأ التلعثمُ تقريبًا ما بين سنِّ الثانية والسابعة، وأغلبُ الأطفالِ يتجاوزونه بعد عدَّة سنوات. وقد كانت تُرجعُ النظريَّة التحليليَّة القديمة التلعثمُ إلى وجود صراعٍ داخليٍّ أو اضطرابٍ نفسيٍّ، غير أنَّ الدراساتِ الحديثة لا تؤكدُ ذلك، والمؤكَّد هو أنَّ التلعثمُ يزدادُ بوجود اضطراباتٍ نفسيَّة. هناك أربعة مراحلَ جرتُ ملاحظتها لنشوء التلعثمُ:

١. في أثناء فترة الحضانة. وهي تحدُّثُ لفتراتٍ من أسابيع إلى شهور تفصلُها فتراتُ

طويلة من الكلام بطريقة طبيعية. قد تحدث هذه النوبات بسبب الإثارة أو الانزعاج أو عندما يريد الطفل أن يقول كلامًا كثيرًا في وقت قصير. في هذه المرحلة تتعافى نسبة كبيرة من الأطفال.

٢. خلال سنوات المرحلة الابتدائية. وفيها يصير التلعثم مزمناً وتكاد لا تكون هناك فترات من الكلام الطبيعي. في هذه المرحلة يدرك الأطفال أنهم يتلعثمون.

٣. يظهر التلعثم بعد سن الثامنة وحتى سن الرشد. في هذه المرحلة يحدث التلعثم ويختفي بوصفه رد فعل على المواقف المختلفة مثل القراءة أمام الطلبة الآخرين، أو التكلم مع الغرباء، أو الشراء في المحال، أو عند الحديث عبر التلفون. وتعد بعض الكلمات والأصوات أصعب من غيرها في النطق.

٤. يحدث التلعثم في سن المراهقة أو سن الرشد.

يشتمل العلاج على تدريبات على التنفس والاسترخاء، وجلسات علاج التخاطب لتدريب الأطفال على الحديث ببطء. إن العلاج النفسي الفردي أو الجماعي لا يؤثر كثيراً في التلعثم، ولكنه يفيد في تقليل القلق والاكنتاب المصاحب.

## الاضطرابات المتفشية

### أ. الذاتوية

تعد الذاتوية أشهر أنواع ما يطلق عليه الاضطرابات المتفشية. وهو اضطراب يحدث فيه تأخر وانحراف في تطور مجموعة من المهارات معاً، مثل مهارات اللغة والتواصل والمهارات الاجتماعية والسلوكية، وهذا يجعل المصابين بالذاتوية منحصرين في مجال ضيق من الأنشطة، ويقاومون التغيير ولا يبدو أنهم يستجيبون إلى البيئة الاجتماعية المحيطة وكأنهم منفصلون عن العالم تماماً. وتظهر حالات الذاتوية بمعدل نحو خمس حالات بين كل عشرة آلاف طفل، ويظهر في الأولاد

٤ أو ٥ مرّات أكثر من البنات. لم يُعرف على نحوٍ محدّد سببُ هذا المرض حتّى الآن، غير أنّ هناك نظريات كثيرة تشيّر إلى أسبابٍ متعدّدة، وكلّها نظريات بيولوجيّة لا علاقة لها بالتربية وفيها عنصر وراثيّ عالٍ. والنظريّة الأحدث هي أنّ هناك خللاً في مجموعة من الخلايا العصبية تُسمّى الخلايا العاكسة (Mirror Neurons)؛ لأنّ عملها أشبه ما يكونُ بما يعكس لنا ما في الآخرين، وتعكس ما فينا إلى الآخرين دون أن يدروا هم بالأمر أو ندري نحن. وهذا يجعلنا مستعدين فطرياً للتواصل الوجداني الحميم. وتعمل هذه الخلايا بشكلٍ تلقائيٍّ سريع جدّاً، فهي تُرسل النبضة العصبية خلال وقت قد يصل إلى ١ على ٢٠٠ من الثانية، بينما تنتقل النبضة العصبية في المخ في أثناء اتّخاذ القرارات خلال ١ على ٥ من الثانية!

### أعراض الذاتويّة:

عادةً لا يمكن أن تُلاحظ الذاتويّة على نحوٍ واضح حتّى سنّ ٢٤-٣٠ شهراً، وذلك حينما يلاحظُ الوالدان تأخراً في اللغة أو اللعب أو التفاعل الاجتماعي. وعادةً ما تكونُ الأعراض السلوكيّة واضحةً. فبالنسبة إلى التواصل، يكونُ تطوّر اللغة بطيئاً، وقد لا تتطوّر بتاتاً. فقد تغيّب اللغة كلياً أو تنمو ولكن دون نُضح، وبتركيب لغويّ ركيك مع ترديد الكلام مثل إعادة آخر كلمة من الجملة التي سمعها، إضافةً إلى الاستعمال الخاطيء للضمائر حيث يستعمل الطفل الضمير "أنت" عندما يوّد أن يقول "أنا"، مثلاً لا يقول: "أنا أريد أن أشرب"، بل يستعمل اسمه قائلاً: "تامر يريد أن يشرب"، كما أنّه يستخدمُ الكلمات على نحوٍ يختلف عن الأطفال الآخرين؛ حيث ترتبطُ الكلمات بمعانٍ غير معتادة لهذه الكلمات. كما يكونُ هناك أيضاً اضطرابٌ في التواصل غير اللغويّ. أمّا بالنسبة إلى التفاعل الاجتماعي، فتكونُ العلاقات ضعيفةً إذ لا يحيي الطفل أحداً، ولا يفرح عندما يرى أمه أو أباه، ولا ينظرُ إلى مَنْ يكلمه، ولا يستمتع بوجود الآخرين، ولا يكونُ صداقات، ولا يستمتعُ بمشاركة الآخرين في الاهتمامات أو الأنشطة. وفي ما يتعلّق بالسلوك فهو عموماً سلوكٌ غطيّ متكرّر، وهناك نقصٌ في اللعب التلقائيّ أو الابتكاريّ،



كما أن الطفل لا يقلد حركات الآخرين، ولا يحاول أن يبدأ في ممارسة ألعاب خيالية أو مبتكرة. قد يكون الطفل المصاب بالذاتوية نشيطاً أكثر من المعتاد، أو تكون حركته أقل من المعتاد، مع وجود نوبات من السلوك غير السوي، كأن يضرب رأسه بالحائط، أو يعصّ دون سبب واضح. قد يُصرّ على الاحتفاظ بشيء ما، أو التفكير في فكرة بعينها، أو الارتباط بشخص واحد بعينه أو بنشاط محدد. وهذا يجعل لدى بعضهم قدرات خاصة مثل تذكّر أشياء محددة بصورة فائقة كأسماء لاعبي الكرة، أو أنواع السيارات، أو آية أمور غريبة قد يركزون عليها ويحفظونها. ويستطيع بعضهم أن يتذكّر بدقة بالغة أيام الأسبوع لأي تاريخ لسنوات عديدة سابقة، وهذا ما يُسمّى بالحسابات الرّزنامية (Calendar Calculations)، وقد يبرع بعضهم أيضاً في بعض الأنشطة الحسابية أو الموسيقية أو القراءة (على الرغم من عدم فهم النصّ المقروء)، أو الرسم أو مهارات الحاسوب. كما أن بعضهم يمتلك قدرات خاصة على فكّ الأجهزة المعقدة وتركيبها.

عادةً ما لا يحبّ الذاتويون تغيير نوعيّة ملابسهم أو أنواع أكلهم أو طريقة تنظيم غرفهم، مع التعلّق بالأشياء مثل مِخَدّة معيّنة، أو بطّانية ما يحملها معه دومًا، وقد يكرّر أيضًا حركات لليد والأصابع. ويكون لدى الذاتويين نقص واضح في تقدير الأمور المعتادة، وقد يُظهرون سلوكًا عنيفًا أو عدوانيًا، أو مؤذيًا للذات. يعاني الذاتويون أيضًا اضطرابًا وجدانيًا يتمثل في التقلّب الوجداني مثل الضحك والبكاء دون سبب واضح، والغياب الظاهريّ للتفاعلات العاطفية، وقلة الشعور بالخوف من مخاطر حقيقية، والشعور بالخوف المفرط استجابةً لموضوعات غير مؤذية أو أحداث القلق العامّ والتوتر. ويقاوم الذاتويون التغيّر في المكان أو العادات اليومية، وقد يحدث عند التغيّر هلع أو انفجارات مزاجية. وعمومًا تختلف هذه الأعراض من شخص إلى آخر، وتحدث بدرجات متفاوتة.

يجب تشخيص اضطراب الذاتوية قبل سنّ الثالثة. وتعتمد العلاجات الحالية على البرامج التربوية والتعليمية والسلوكية مثل التواصل مع الطفل بالصّور، أو إدماج عدد من الحيوانات الأليفة كالخيول أو الدلافين في برامج التواصل مع الطفل. وتتطلب هذه البرامج وقتًا طويلًا ومُدربيًا لكل طفل.<sup>٥</sup>

٥ الأستاذة داليا سليمان رئيسة الجمعية المصرية لمرض الذاتوية.

## ب. متلازمة أسبرغر

تعدُّ هذه المتلازمة نوعًا خاصًا من الذاتويّة فيه لا ينعزلُ الطفل عن الآخرين بل يتحرّك نحوهم، غير أن الطفل يفتقرُ هنا إلى القدرة على التواصُل الوجداني والاجتماعي. ويظهرُ هذا في ضعفِ اهتمامه وقلّة احترامه لمشاعر الآخرين، وغياب اللغة الجسديّة، كما أن المصاب بها يتصرّفُ بعدم كياسة واندفاع ممّا يجعله يجد صعوبةً مثلًا في المهارات التي تحتاجُ إلى توافقٍ عضليّ عصبّي كقيادة الدراجات أو غيرها. بالنسبة إلى عدم الكياسة الاجتماعية، فيمكن للمصاب بهذه المتلازمة أن يندفع في حديثٍ فرديّ طويلٍ بأمرٍ يحبه ويهتمُّ به دون أن يدركَ عدم اهتمام المستمعين به وانصرافهم عنه. يتميَّز هؤلاء الأطفالُ بذكاءٍ حادٍّ يجعلهم على مستوى الحديث الفرديّ يعترفون بالقواعد الاجتماعية ويقدرونها، لكنهم، في الوقت نفسه، يفسّلون في التطبيق في حقل الحياة.

حالهم حالُ الذاتويّين، يمكنُ أن يُظهروا اهتمامات ضيقةً ببعض الأمور، فيجمعون كمًّا هائلًا من المعلومات حول موضوع واحد. في ما يتعلّق باللُّغة، فغالبًا ما لا تكون هناك مشكلاتٌ باستثناء بعض الاختلافات في النبرة والتّنعيم والتفسير الحرفي لبعض الكلمات والتعبيرات.

أما بالنسبة إلى السبب، فتتّشابهُ هذه المتلازمة بشكلٍ كبيرٍ مع مرض الذاتويّة من حيث السبب الوراثي المتعلّق بسرعة التوصيل في المخّ ونظام الخلايا العاكسة. وفي ما يخصّ العلاج، تلعب البرامج السلوكيّة دورًا مهمًّا في تدريب المصابين بها وتأهيلهم.

إنّ الهدف من وُضع هذا الفصل هو إعطاء فكرةٍ مبسّطةٍ وأوليّةٍ عن الاضطرابات التطوريّة حتّى يدرك الآباء والأمّهات هذا المفهوم ويدركوا مبكرًا إذا ما ظهرت مثل هذه الاضطرابات على أحد أطفالهم، ليتعاملوا مع الموقف مبكرًا؛ حيث إنّ التعامل المبكر يزيد من فرص تحقيق نجاحٍ أكبرٍ لبرامج العلاج.



## نصائح ختامية

- لا أحد يستطيع أن ينكر أن إصابة أحد الأبناء بواحد من هذه الاضطرابات يُعدُّ صدمةً يمرُّ بها الوالدان، لكنَّ يجب ألاَّ يلومَ الوالدان أنفسهما أو بعضهما بعضاً على ذلك؛ لأنَّ لا علاقة لهذا الأمر بسلوكِ الأمِّ في أثناء الحمل، أو بالتربية وقدر الاهتمام أو الإهمال من جانب الأب أو الأم.
- يُعدُّ وصولُ الوالدين إلى مرحلة القبول وتجاوزِ الشعورِ بالصَّدمة والحزن، أهمُّ ما يساعدُ الطفل؛ لأنَّه يحوُّلُ الطاقةَ النفسيَّةَ لوالديه من لومِ أنفسهما أو بعضهما بعضاً أو لومِ الأحوالِ أو الحياةِ أو الله، ليوجِّها هذه الطاقةَ نحو تدريب طفلها ومساعدته.
- إنَّ التَّشخيصَ المبكِّر، ووضْع الأطفالِ في الأماكنِ السليمة، وتقديمِ التعليمِ والتدريبِ المناسبينِ لحالتهم - تُمكنُ كلُّها الطفلَ من اكتسابِ قدرٍ أكبرَ من المهاراتِ الاجتماعيَّة. بالتأكيد لن يكونَ الأطفالُ مثل أقرانهم الطبيعيين (غير المصابين)، لكنَّ يمكنُ أن يكتسبوا ما يتيحُ لهم حياةً أفضل.
- صارَ أطباءُ الأطفالِ وأطبَّاءُ نفسِ الأطفالِ الآن أكثرَ قدرةً على الاكتشافِ المبكِّر لهذه الحالات، وصارتَ هناكِ جمعياتٌ متخصصةٌ يمكنُ أن تقدِّمَ إلى الأطبَّاءِ والوالدين والمعلِّمينِ النصائحَ المناسبةَةَ للتَّعاملِ مع الأطفالِ المصابين بهذه الاضطراباتِ التطوُّريَّة.

## دعاء

أعطني يا رب الصبرَ والسَّكِينَةَ لِأَتَقَبَّلَ مَا حَدَثَ لطفلي .  
أخْرِجْني من دائرة الإنكارِ والصدمةِ والرفضِ .  
أنا أشعرُ أحياناً بالغضبِ وأفقدُ الصبرَ ،  
وأشعرُ أحياناً أخرى بالحُزنِ والكآبةِ واليأسِ .  
ألهمني يا ربَّ القوَّةَ والشجاعةَ لِأَقِفَ بجانب طفلي  
حتَّى يعيشَ بأفضلِ صورةٍ ممكنةٍ على الرُّغمِ ممَّا حدثَ له .  
أمين



## الفصل الثالث عشر

# الاضطرابات السلوكية

جاءني زوجان تجاوزا منتصف الأربعينيات، وتجاوزا مستواهما الاقتصادي والاجتماعي الطبقة الوسطى العليا. كلاهما طبيبان ناجحان يتمتعان بعلاقة زوجية تبدو ناجحة. جاءا يشكوان من ضعف تركيز ابنهما البالغ من العمر نحو السابعة عشرة وعدم قدرته على المثابرة في الدراسة. وقد أصرا بشدة على أنه مصاب بنقص الانتباه، ورغبنا بشدة في أن أصف له دواءً. عندما استكشفت نمط العلاقات في الأسرة وجلست مع الشاب ومع أبيه (كل على حدا)، لم أجد سوى مراهقٍ تعرّض طوال طفولته إلى تجاهل أبيه، وعرفت بعد ذلك أن الأب أيضاً قد تعرّض للأمر نفسه من أبيه. لقد كان جلياً جداً أن المراهق البائس يحاول بتمردّه أن يلفت انتباه أبيه واهتمامه. ربّما كانت هناك درجة من نقص الانتباه تكاد تكون طبيعية وموجودة في أغلب البشر، غير أن الحل الحقيقي لهذه الأزمة الأسرية لم يكن حلاً كيميائياً كما كانا يتمنّيان، بل كان حلاً مرتبطاً بالعلاقات!

نحتاجُ إلى الانضباط في تشخيص هذا المرض. فبين التشخيص المبالغ فيه والإنكار المبالغ فيه يفقد الكثير من الأطفال فرصة النمو الطبيعي.

تعكس هذه القصة الميل الموجود في المجتمع الغربي وفي مجتمع الصّفوة لدينا للمبالغة في تشخيص مرض نقص الانتباه/الحركة الزائدة (ADHD)، واستخدامه لتبرير مشكلاتٍ أُسرِيّةٍ ومشكلاتٍ مرتبطةٍ بالعلاقات أحياناً، ولخُنق ذكورة الأولاد الذين يميلون بطبيعتهم إلى الحركة. يَصِفُ

ليونيل تايجر (Lionel Tiger) في كتابه "تراجُع الذكور"<sup>٢</sup>، أن الأولاد الذين يُشخّصون بهذا المرض قد لا يكونون مرضى، بل هم مجرد "أولاد" يريدون فقط أن يستمتعوا بعضلاتهم القويّة، وذكورتهم التي تدفعهم نحو اللّعب العنيف والاقترحام والمبادرة بطريقةٍ قد لا تناسب "نظام" المدارس الحديثة. كما يقول أيضاً إنّ التشخيص المبالغ فيه والاستخدام المبالغ فيه للأدوية النفسيّة للسيطرة على هؤلاء الأولاد يعكسان عدم فهم السلطات المدرسيّة للفروق ما بين الجنسين. ويضيف أن المرض الوحيد الذي قد يكون لدى هؤلاء الأولاد هو أنّهم ذكور.<sup>٣</sup> هذا لا ينفي أن هذا المرض موجود بالفعل ويجب عندما يجري تشخيصه أن يُعالج بالطرق السليمة التي قد تتضمن استخدام الأدوية التي ينبغي ألا نخاف منها أكثر من اللازم. لهذا السبب من المهم أن نفهم طبيعة هذا المرض وكيف يمكن تشخيصه وعلاجه حتّى لا نفع في فخ الإفراط في التشخيص أو في فخ تجاهله.

يُعدُّ هذا المرض من أكثر الأمراض النفسيّة تشخيصاً بين الأطفال، حيث يُصيب ما بين ٣ و٥٪ من الأطفال على مستوى العالم، ويُشخّص في الأولاد ٤ مرّات أكثر من البنات.

يُقسّم المرض ثلاثة أنواع: الأوّل يغلب عليه الحركة الزائدة، والثاني عدم الانتباه، والثالث هو خليط ما بين الاثنين السابقين.

وقبل أن يُقال إنَّ الطفل مصابٌ بهذا المرض، يجب توافُر بضعة شروط:

١. أن يظَهَر هذا السلوك قبيل سنّ السابعة.

2 Lionel Tiger, *The Decline of Males*, (N.Y.: Golden books, 1999) p. 181.

3 John Eldredge, *Wild at Heart, Discovering the Secret of Man's Soul*, (Nashville: Thomas Nelson, 2001) p. 81.

٢. أن يستمر لمدة لا تقل عن ستة شهور.

٣. أن يؤدي إلى إعاقة في اثنين على الأقل من المجالات التالية: المدرسة، أو الملعب، أو المنزل، أو المجتمع، أو خلال المواقف الاجتماعية. فإذا كان الطفل كثير الحركة في الملعب فقط أو في المدرسة فقط، فإن شروط المرض لا تكون وافية للتشخيص.

يجب أيضاً أن نلاحظ أن بعض الأحوال يمكن أن تخلق في الأطفال سلوكيات شبيهة بهذا الاضطراب، مثل حدوث وفاة أو طلاق، أو فقدان الأب وظيفته، أو أي تغيير مفاجئ في الأسرة، أو التهاب في الأذن يؤدي إلى ضعف مؤقت في السمع، أو مشكلات في المدرسة ناتجة عن اضطراب في التعلم، أو قلق، أو اكتئاب، أو مشكلة في مدة النوم أو عمقه، أو نتيجة الإساءة إلى الأطفال أو إهمالهم (ربما تكون هذه هي الحال بالنسبة إلى صديقنا المراهق الذي رَوينا قصته في بداية هذا الفصل).

بالنسبة إلى سبب هذا المرض، فهناك عدة نظريات هي: النظرية الوراثية، والنظرية التطورية والبيئية والاجتماعية، ونظرية أنواع الأكل، وغيرها من النظريات ليس هذا الكتاب هو مجال تناولها. أما بالنسبة إلى العلاج، فالعلاج الرئيس هو العلاج الدوائي بالأدوية المنبّهة التي من الضروري أن تُعطى تحت إشراف طبيب، كما أن هناك أيضاً بعض البرامج السلوكية.

## السلوك المعارض المتحدّي (Oppositional Defiant Disorder)

واختصاره (ODD):

هو سلوك مستمر من العصيان والعنف والتمرد تُجاه رموز السلطة بطريقة تتجاوز التصرفات الطفولية العادية. يظهر هذا الاضطراب على شكل سلوكيات متطرفة مثل التخريب والسرقه والتنثر (Bullying)، إضافة إلى نوبات الغضب والعناد الشديد. يكون هؤلاء الأطفال دائماً متمردين ولا يقبلون المعارضة البتة، ويُضايقون الآخرين بشكل مقصود، وهم أنفسهم يتضايقون بسرعة بسبب أتعفه الأشياء. يستدعي هذا الاضطراب تدخلاً علاجياً بأنواع كثيرة من العلاج النفسي الفردي والعائلي، والبرامج السلوكية لتدريب الأطفال

على التحكم في مشاعرهم، والآباء والأمهات على التعامل مع هؤلاء الأطفال .

منذ أن كانَ باسمُ طفلاً، كان طفلاً حسَّاساً يبكي ويغضبُ بسبب كلماتٍ بسيطةٍ لا يحسبها أغلبُ الأطفالِ إهانةً، أما هو فكان شديدَ الحسَّاسيةِ للإهانة. وبمرور الوقت صار باسمُ شديد الحسَّاسيةِ ليس فقط للإهانة، بل للسلطةِ أيضاً. كان يحبُّ معلِّميه ووالديه، لكنَّ عندما يُمارَسُ معلِّموه أو والداه أيُّ تدخُّلٍ ”سلطويٍّ“ مهما كان بسيطاً، كان باسمُ يشعرُ بالإهانة على نحوٍ مبالغ فيه. كان لدى باسمٍ أيضاً إحساسٌ مرتفعٌ بالمساواة، وكان هذا الإحساس المتطرفُ بالمساواة يجعله لا يقبلُ حقيقةً أن تكونَ لشخصٍ آخرَ سلطةٌ عليه مهما كان، كما كان شخصاً لا يحتملُ أن يجبره أحدٌ على القيام بأيِّ أمرٍ. قبل أن يفهمَ والدها باسمٍ حقيقةَ إصابته بهذا الاضطراب، كانا يدخلان معه في صراعٍ قويٍّ حادٍّ يؤدي إماً إلى تنازلهما أمامه في بعض المرات، وإماً إلى عقابِ باسمٍ بطريقةٍ مهينةٍ ومسيئةٍ في مرَّاتٍ أخرى. وهكذا تأسَّست بين ”الجانين“ دائرةٌ مُفرَّغةٌ زادت من ابتعاد باسمٍ عن والديه. عندما لجأ والدها باسمٍ إلى طلبِ المساعدة النفسية، أدركا شخصيةَ باسمٍ. وأدركا أيضاً أنَّ الحسَّاسيةَ تُجاهِ السُّلطة هي أمرٌ، إلى حدٍّ ما، موروثٌ إذ إنَّهما يمتلكان هذا الإحساسَ الثوريَّ والنفورَ الفطريَّ ذاته من السلطة. غير أنَّهما استطاعا ترويضه بينما لا يزالُ باسمٍ يجدُ صعوبةً في ذلك لصغر سنِّه. عندما أدركَ والدها باسمٍ هذه الحقيقة بدأ في تدريب نفسيهما على التعامل مع باسمٍ بطريقةٍ مختلفةٍ، من خلال الشرح والحوار، ثمَّ وُضِعَ القوانين المتدرِّجة في الشدَّة، ومَرَّجَ الثواب والعقاب بالتشجيع والمدح. ومنذ ذلك الحين بدأت العلاقةُ باسمٍ تتحسنُ، وراح باسمٍ يتجاوزُ بالتدريج هذا الاضطراب التطوُّري.

## اضطرابُ السلوك (Conduct Disorder)

نحو ٥٢٪ من الأطفال الذين يَظهَرُ عليهم السلوكُ المعارِضُ المتحدِّي، يتحوَّلون إلى اضطراب السلوك. وهو نمطٌ متكرِّرٌ من التعدِّي على حقوق الآخرين على شكلٍ عنفٍ وتخريبٍ وكذبٍ وهروبٍ من المدرسة. وإذا استمرَّ هذا السلوكُ إلى ما بعد المراهقة، فإننا نطلقُ عليه ”اضطرابُ الشخصيةِ المعادية للمجتمع“ (Antisocial Personality Disorder). إحدى النظريات المهمة لتفسير هذه الاضطرابات هي ضعفُ - أو ربَّما عدم - قدرة هؤلاء الأطفال على التعاطفِ أو



الاشتراف في الوجدان (Empathy)، وهكذا لا يستطيعون الشعور بالآخرين بتأنا، لذا فإنهم لا يجدون صعوبة في إيذاء الآخرين والتعدي عليهم.

لعل من المناسب في هذا المجال أن نتحدث بشأن الطفل المعرض للإدمان. فكل الاضطرابات السابقة، تزيد من فرص الإصابة بالأدمان. فمثلاً، أشارت بعض الدراسات إلى أن نحو ٤٠-٥٠٪ من مدمني الكحول والمخدرات مصابون أيضاً بنقص الانتباه/الحركة الزائدة، إذ يمكن أن يستخدم المصابون بهذا الاضطراب الخمر والمخدرات، وربما الجنس والإنترنت أو أي من موضوعات الإدمان لمعالجة أنفسهم من التوتر والاندفاع وعدم القدرة على الهدوء، وهي كلها تميّز اضطراب نقص الانتباه.

## الشخصية الإدمانية:

هناك جدل كبير بين علماء النفس حول هذا المفهوم. هل توجد بالفعل شخصية إدمانية تعرض صاحبها للإدمان أكثر من غيره؟ هل الإدمان مرض وراثي في المخ يدفع صاحبه إلى تعاطي المخدر، أم أن التعاطي هو الذي يغيّر الشخصية ويؤدي إلى نمو هذه الصفات المشتركة بين المدمنين؟ لم يحسم هذا الجدل حتى الآن. لكن من بين من يؤمنون بحقيقة ما يُسمى بالشخصية الإدمانية د. آلان لانغ (Alan Lang) أستاذ علم النفس بجامعة فلوريدا. وفي دراسة نشرت في صحيفة نيويورك تايمز، لخص د. لانغ السمات التالية للشخصية الإدمانية:

١. الميل إلى السلوك الاندفاعي وعدم التفكير أو التروي قبل القيام بالأمر.
٢. صعوبة تأجيل الإشباع (Difficulty in Delaying Gratification). فعندما يشعر المرء بالرغبة في أمر كالأكل أو الراحة أو الشعور بالذلة أو السعادة عبر أية ممارسة، فإنه لا يستطيع تأجيل القيام بذلك.

٣. الشخصية المعادية للمجتمع. وهي تتميز بعدم احترام حقوق الآخرين وتخطي حدودهم للحصول على المتعة أو المنفعة الشخصية، كما أنها قلماً تشعر بالذنب.

٤. الميل إلى البحث عن الإثارة (Sensation seeking). ثمة ميل في تاريخ شريحة كبيرة من المدمنين منذ الطفولة إلى المخاطرة وسبر أغوار المجهول، والقيام بالأمر غير التقليدي التي يخاف أغلب الأطفال القيام بها.

٥. تضع الشخصية الإدمانية قيمةً عليا للاختلاف (Non-conformity). إذ لا يُحبُّ صاحب هذه الشخصية أن يكون فرداً "عاديًا" أو "طبيعيًا" كالآخرين، إنما يرغب في أن يكون مختلفاً وغير تقليدي، كما لا يرغب في أن يلزم نفسه بالإنجازات والأهداف والقيم التي يضعها المجتمع من حوله مثل التعليم والعمل وخلافه.

٦. إحساس عام بالاعتراب عن المجتمع (Sense of Social Alienation). فهو يشعر بالراحة والنشوة لدى مخالفته قيم المجتمع الذي يشعر بأنه غريب عنه.

٧. الإحساس الكبير بالضغط والتوتر. وهذا قد يفسر أن عمر المراهقة، والذي يتميز بالضغط الشديد، هو العمر الذي غالباً ما يبدأ فيه المدمن تعاطي الكحول أو المخدرات.

إن هذا لا يعني أن كل طفل أو مراهق تظهر عليه هذه السمات سيكون مدمناً بالضرورة. إلا أن مثل هؤلاء سيكونون أكثر عرضة للإدمان إن تعاطوا المخدرات أو إن تعرّضوا لإثارة جنسية في مرحلتهم الطفولة أو المراهقة، ولو على سبيل التجربة. أيًا كان الرأي العلمي، فمن المهم للآباء والأمهات، بل لكل من يتعامل مع الأطفال والمراهقين، أن يبذلوا جهوداً مُضاعفة في الاهتمام بمثل أولئك الأطفال والمراهقين وتوعيتهم وحمايتهم من الإدمان بكل صوره.

٥ أوسم وصفي، أحتاج إلى المساعدة. إدمان العلاقات والجنس والمخدرات. سلسلة ١٨٠ درجة (عمّان: أوفير، ٢٠٠٩م) ص ١٧-١٩.

## الوقاية من الإدمان

إنَّ أغلبَ البحوث التي تتناولُ الطفلَ المعرضَ للإدمان وبرامجِ الوقاية من الإدمان تركُّزُ على حقيقة أنَّ الحماية من الإدمان لا تأتي بالإشراف والمراقبة أو بالكلام والمحاضرات والتوعية، وإنما من خلال طرق التربية التي تنمِّي المتانة الشخصية (Resilience)، وهي قدرةُ الأطفال على العودة إلى الحالة الطبيعية بعد تعرُّضهم للضغوط. تُقسَم المتانة النفسية ثلاثة عناصر أساسية:

١. عنصرُ الدَّعم الخارجي (أنا عندي).

٢. عنصرُ الإحساس الإيجابي بالنفس (أنا...).

٣. عنصر القدرة الذاتية (أنا أستطيع...).

عمومًا، يستطيعُ الطفلُ أو المراهقُ الذي يتمتَّعُ بكامل المتانة النفسية أن يقولَ:

• أنا عندي (I have).

أنا عندي ناس أتق بهم! (أشعرُ بالأمان والثقة في قبول من حولي).

أنا عندي نظامٌ في حياتي! (أعيشُ في بيئة لها نظامٌ ثابتٌ مُستقر).

أنا عندي ناسٌ أحبُّ أن أكون مثلهم! (حولي أمثلةٌ صالحةٌ من الشخصيات).

أنا عندي ناسٌ يُعطونني فرصة! (الكبارُ يُعطونني فرصةً أن أفعلَ أشياءً بنفسي وأكون مسؤولاً).

أنا عندي ناسٌ يهتمون باحتياجاتي! (أعيشُ في بيتٍ آمن، وأحصلُ على أكلٍ صحيٍّ ورعايةٍ جيِّدة).

• أنا... (I am).

أنا... شخصٌ محبوب! (أشعرُ من خلال علاقاتي بمن حولي بأنني مقبولٌ ولستُ مرفوضاً).

أنا... أحب الناس وأشعرُ بهم، وأحبُّ أن أساعدَ غيري! (لستُ أناثيًا أفكرُ في نفسي فقط).

أنا... فخورٌ بنفسي! (أشعرُ بقيمتي وأهميَّة وجودي).

• أنا أستطيع (I can).

أنا أستطيع أن أتكلَّم بما أفكرُ فيه وأشعرُ به! (أستطيعُ أن أعبرَ عن مشاعري وأفكاري).

أنا أستطيع أن أتحكَّم في مشاعري! (عندما أخاف أو أغضب، أستطيعُ أن أتحكَّم في نفسي).

أنا أستطيعُ أن أقيمَ علاقاتٍ جيِّدة! (أستطيعُ أن أقيمَ صداقاتٍ وأحافظَ عليها).

أنا أستطيعُ أن أحلَّ مشكلاتي! (أنا المسؤولُ عن حلِّ مشكلاتي، وأنا الذي أقرُّرُ أن أطلبَ المساعدةَ ممن أريده أن يُساعدني).

هكذا فإنَّ التربيَّة السليمةَ والمحبةَ والانتماءَ والتورُّطَ الإيجابيَّ مع الأولاد هو الذي يحميهم

ويزيدُ من مناعتهم ضدَّ الإدمان.



## نصائح ختامية

- ينبغي ألا نُبَالِغَ في تبسيط المسألة ونحسب أن هذه الاضطرابات السلوكية هي مجرد "قلة أدب". ففي كثير من الأحيان تكون هذه الأمور صعوبات نفسية حقيقية يعاني من جرّائها أبناؤنا ويحتاجون بذلك إلى المساعدة.
- يُعدُّ اتزان شخصية الوالدين بين الحزم والحنان والتشجيع والمسؤولية أمراً مهماً جداً لمساعدة أبنائهما في هذه الأمور.
- بالنسبة إلى مريض نقص الانتباه، يجب ألا نُغفَلَ حقيقة هذا الاضطراب وشيوعه، وفي الوقت نفسه ينبغي لنا ألا نُبَالِغَ في التّشخيص ونحسب أن أيّ مِيلٍ إلى النشاط الذي لا نُقبَلُهُ، نحن الوالدين، هو اضطرابٌ زيادةً نشاط. يجب أن يشخّصَ الحالة شخصٌ متخصصٌ في علم نفس الأطفال.
- يجب أن يكون العلاج الدوائي هو آخرَ خطوطِ العلاج، وفي الوقت نفسه يجب ألا نخافَ أكثرَ من اللازم من استخدام الأدوية المعالجة لهذا الاضطراب، فقد تكون مُنقِذَةً لأطفالنا من الوقوع في براثن الإدمان، إذ يمكن أن يستخدم المراهقون المخدّرات لتكون نوعاً من "التداوي الذاتي" من هذه الاضطرابات.
- لا تكون الحماية من الإدمان بالتوعية والكلام بقدر ما تكون بالتربية السليمة التي تتزّن ما بين الحماية والحنان والتشجيع من جهة، والمسؤولية والإشراف اللصيق من جهة أخرى. إن هذه التربية التي تُهدَفُ إلى تكوين شخصيات مرنة ومتمينة نفسياً هي أهمُّ خطوطِ الدفاع في مواجهة الإدمان.

## دعاء

يارب، ساعدني كي أدرك خطورة أسلوب تربيّتي

على مستقبل أبنائي وحياتهم.

ساعدني أن أتغيّر وأتعامل معهم بأفضل طريقة لا تعرّضهم للخطر.

سهّل عليّ أمر رعايتهم يارب.

أمين



## الفصل الرابع عشر

# الأسرة المضطربة

”الأسرة هي الجذر الذي يصلنا بالماضي، والجسر الذي يأخذنا إلى المستقبل“.

أليكس هيلي<sup>١</sup>

الأسرة المضطربة تجسّد حالة من استقرارٍ عدم الاستقرار، كالبحر الهائج دائماً.

الأسرة المضطربة (Dysfunctional Family) هي الأسرة التي تعيش حالة من فقر الحب، والصراع المستمر، وعادةً ما تحدث فيها إساءات وانتهاكات من كافة الأنواع: نفسيةً وجسديةً وربما جنسيةً.

تحدث هذه الإساءات على نحوٍ مستمرٍّ ومتكرّرٍ حتّى إنّها تجعل شخصيات أفرادها، لا سيّما الأطفال، تتشكّل لتتواءم مع الحياة في هذه الأسرة، حيث صار الإيذاء معتاداً، والإهمال هو القاعدة والصراع أسلوب حياة. الأسرة المضطربة هي النتيجة الطبيعية للارتباط بين أشخاص

١ أديب أميركي (١٩٢١-١٩٩٢م) حاز جائزة بوليتزر عام ١٩٧٧م عن رواية ”الجذور“ (Roots) التي تصف معاناة السود الأميركيين.

اعتماديين<sup>٢</sup> (Co-dependants)، كما أنها تنتج أيضاً بفعل المرض النفسي أو عدم النصح الوجداني لأحد الوالدين أو كليهما، وفي تلك الحالات يتحوّل الأبناء إلى آباء وأمّهات لوالديهم، يحاولون علاجهم أو رعايتهم أو تغطية أخطائهم، وهو ما أشرنا إليه سابقاً عندما تحدّثنا بشأن "قلب الأدوار" أو "فقدان الطفولة".

من ضمن المفاهيم الخاطئة بشأن الأسرة المضطربة أنّها دائماً على حافة التفكك والانفصال، غير أنّ هذا في الواقع يحدث في حالات قليلة عندما تزداد الإساءة إلى درجة لا يستطيع أحدهما أو كلاهما أن يتحمّلها. الواقع هو أنّ في هذه الأسر، تكون رابطة الزواج قويّة حيث إنّ عيوب الزوجين وأخطاءهما تكتمل بعضهما بعضاً. وبسبب اعتمادهما الشديد على بعضهما بعضاً، فإنّهما يتشاجران ويتصارعان حتّى يُحيل إليك أنّهما ليس فقط سينفصلان، بل ربّما يقتل أحدهما الآخر. لكن بعد أيام قليلة تجدهما يعودان إلى بعضهما بعضاً في حبّ شديد ورومانسيّة حاملة! غير أنّ هذا لا يعني أنّ حالة الأسرة مستقرّة، فيمكننا أن نقول إنّ الأسرة المضطربة تجسّد حالة من استقرار عدم الاستقرار، كالبحر الهائج دائماً. تؤثّر هذه البيئة الهائجة بشكل مستمرّ في شخصيّة الطفل ونموّه؛ لأنّ الطفل في هذه الحالة يُنفق أغلب طاقته لا لينمو، بل لينجو من الإساءات المختلفة، أو ليتعاش معها.

حتّى وقت قريب، لم يكن المهنيون العاملون في مجال الرعاية، مثل المعالجين والاختصاصيين النفسيين أو المشيرين أو المعلمين أو القادة الدينيين، يهتمون بهذه القضية، لا سيّما بين الطبقات المتوسطة أو العليا. وقد كان أيّ تدخل يُعدّ انتهاكاً لقدسيّة الزواج وحرمة البيوت. وكان على الأبناء دائماً أن يطيعوا والديهم، لا سيّما الأب، كما كان على الزوجات أن يُطعن أزواجهنّ. تظلّ هذه الحال هي السائدة في ثقافتنا الشرقيّة العربيّة. ولا تزال هذه الثقافة متأثرة بالفكر البدوي القبليّ الذي يجب على كلّ أسرة أو قبيلة فيه أن تحلّ مشكلاتها داخلها ولا تعرض غسيلها أمام الآخرين مهما كانوا. يتغيّر هذا الأمر بالتدرّج مع تنامي الثقافة الحضريّة التي تشجّع على التواصل والكشف والمواجهة والعلاج.

٢ الاعتماديّة هي أن يعتمد الإنسان في أثره النفسي على علاقته بشخص آخر، لذا تتميز هذه العلاقات بالتورط المبالغ فيه في حياة الآخر، والسيطرة المتبادلة، وغياب الحدود، والإيذاء. وتعدّ الاعتماديّة نوعاً من إدمان البشر.



## الصحة النفسية للأسرة

يمكن للأسرة أن تؤثر عدم  
النضج للأسرة التي تنشأ منها،  
وهكذا تتناقل الأجيال بالوراثة  
إمّا المرض وإمّا الصحة  
الأسرية من جيل إلى آخر.

إنّ للأسرة، حالها حال الفرد تمامًا، مستوى من  
النضج والصحة النفسية يمكن أن يزيد أو ينقص.  
فمن الممكن، تحت الأحوال المواتية والمساعدة  
الخارجية، أن تتقدّم الأسرة على صعيد نضجها  
وصحتها، كما يمكن تحت الضغوط أن يتراجع  
مستوى صحتها ونضجها. والأخطر هو أنّه يمكن  
للأسرة أن تؤثر عدم النضج للأسرة التي تنشأ منها،  
وهكذا تتناقل الأجيال بالوراثة إمّا المرض  
وإمّا الصحة الأسرية من جيل إلى آخر.

لذا فإنّ الإنسان عندما ينضج ويشفى فإنه يُقيم أسرةً أنضج وأكثر شفاءً من الأسرة التي  
عاش فيها، وهلمّ جراً. هناك ثلاثة مستوياتٍ من النضج للأسرة:

١. الأسرة شديدة الاضطراب.
٢. الأسرة متوسطة الاضطراب.
٣. الأسرة الصحيحة (الصحيّة أو السليمة).

أمّا الأسرة شديدة الاضطراب فهي الأسرة التي تعيش صراعاً مستمراً لثلاً تتفكك. وهي  
النوعية التي تُنتج مُدمنين ومرضى نفسيين وربما أشخاصاً خارجين عن القانون. أمّا الأسرة  
متوسطة الاضطراب، فهي الأسرة القادرة على البقاء دون تفكك، لكنّها لا تعيش بسعادةٍ  
وفاعليّة. وتنتج هذه الأسرة عادةً أشخاصاً عاديين، لكنهم مُعرّضون تحت الضغوط للإصابة  
بالأمراض والانحرافات، وهي تشكّل الغالبية العظمى. في النهاية، الأسرة الصحيحة، وهي  
الأسرة التي تعيش حياةً مستقرّةً ومنتجة. إذا قلنا إنّها أسرةٌ "سعيدة"، فنحن لا نبالغ. وعلى  
الرغم من أنّها قد تمرّ بضيقاتٍ وصعوبات، فإنّها تمتلك آليات التحمّل والخروج من الأوضاع  
الصعبة بنتائجٍ إيجابية. بسبب الضغوط الشديدة المتنوعة التي في العالم نجد أنّ الأسر الصحيحة  
ضئيلة، وكذلك هي الحال بالنسبة إلى الأسر شديدة الاضطراب، كما أنّها غالباً ما تتفكك ولا

ينطبق عليها تعريف الأسرة، وإنما ينتج عنها آباءٌ وأمّهاتٌ منفصلون وأبناءٌ مُشرّدون. أغلب الأُسَر تقع في منطقة الاضطراب المتوسط، وهي قابلةٌ للتحرُّك إمَّا إلى الخلف نحو الاضطراب الشديد، وإمَّا إلى الأمام نحو الصّحة إن تلقّت مساعدةً مُناسبة.

في السطور التالية سنقدّم قراءةً في إحدى دراساتِ الصّحة الأُسريّة<sup>3</sup>، وهي تتناولُ مستوياتِ نُصحِ الأسرة وصحّتها في ما يتعلّق بستّة محاورٍ أساسيّةٍ للتّقييم هي:

١. تركيبةُ السّلطة.
٢. تمايزُ الشخصيّاتِ والحدودُ.
٣. التّواصلُ.
٤. العلاقاتُ.
٥. الإحساسُ بالواقع والتّعاملُ معه.
٦. التّعاملُ مع المشاعر.

### أولاً: تركيبةُ السّلطة (Power Structure)

الأسرةُ الصّحيحة	الأسرةُ متوسّطة الاضطراب	الأسرةُ شديدة الاضطراب
تركيبةٌ منظمّةٌ مرنة	تركيبةٌ منظمّةٌ لكن جامدة	تركيبةٌ فوضويّة
١. هناك سلطّة واضحة وترتيب واضحٌ ومحترمٌ للسّلطة. ٢. هناك قوانينُ أُسريّةٌ واضحةٌ تُطبّقُ على الجميعِ سواسيةً.	١. هناك سلطّة واضحة. ٢. توجدُ قوانينُ أُسريّةٌ واضحة، لكنّها لا تنطبقُ على الجميعِ سواسيةً. الأكبرُ والأكثرُ سلطّةً، يستطيعُ خرْقُ القوانينِ.	١. لا توجدُ سلطّةٌ واضحة. ٢. لا توجدُ قوانينُ أُسريّةٌ واضحة. الموقفُ يحدّدُ القوانينَ "ما تغلبُ به، العبّ به".

3 Lewis, et al, *Psychodynamic approach to Family Health*, 1970.

<p>٣. توجد مرونة في تطبيق القوانين ومساحة للاعتراض والمناقشة.</p> <p>٤. هناك تحالف ما بين الوالدين بحيث يُساند كل منهما الآخر حتى وإن اختلفا.</p>	<p>٣. يوجد تناقض ما بين الوالدين على السلطة، أو توجد سلطة واحدة قاهرة غالبًا ما تكون سلطة الأب (سي السيد في العامية المصرية).</p>	<p>٣. يوجد تواطؤ بين أحد الوالدين - غالبًا ما يكون الأم - مع الابن الأكبر أو الوحيد لتهيئ دور الأب. ويتسبب هذا التواطؤ بمشكلات كبيرة في شخصية ذاك الابن قد تعرّضه للإدمان أو المرض النفسي أو اضطراب الشخصية. وقد يظهر هذا التواطؤ في تشجيع الأم له في التسلط على إخوته الآخرين، والتغاضي عن سلوكياته الخاطئة، أو ربما التغطية عليه.</p>
---	---	---

تحت الضغوط، قد تتغير طريقة الأسرة وتحوّل إلى طريقة أقلّ نضجًا مؤقتًا. وإذا تكرر هذا تصير الأسرة أقلّ نضجًا بصفة مستمرة. مثلًا، عندما ينفذ صبر الأب بعد الحوار مع الابن المراهق، قد يلجأ إلى الطريقة السلطوية دون شرح أو فهم، وإذا تكرر هذا تصير الأسرة مع الوقت سلطوية جامدة. صحيح أنّ من حقّ الأب والأم فرض القوانين الأسرية حتى لو لم يوافق الأبناء عليها، غير أنّ هذا يجب أن يحدث بعد شرح وجهة النظر ومحاولة الإقناع. لكنّ تحت الضغوط، قد يلجأ الوالدان إلى فرض الرأي ويتخلّيان عن إيمانهما بالحوار أصلاً. إنّ الزوج الذي يشعر بالغيرة من زوجته أو ربّما الخوف عليها، يلجأ إلى المنع والتسلط لحمايتها، أو ربّما لحماية نفسه من القلق، ويكفر بالحريّة والحوار. عندئذٍ قد يستغلّ نقاط قوته، كالمال أو القوّة العضلية أو قوّة الإقناع، ليخضع زوجته لسلطته بهدف تجنّب الضغوط. وقد تفعلّ الزوجة أيضًا الأمر ذاته باستخدام ما لديها من قوّة ووسائل ضغط. ويمكن أيضًا للأسرة التي تكون في مستوى متوسط الاضطراب أن تتدهور إلى المستوى شديد الاضطراب بسبب انشغال الأب غير الطبيعي بالعمل، فيهمل الأسرة تمامًا ولا يتابع ما يجري. عندئذٍ تتحوّل الأسرة إلى حالة فوضوية، ويفعل كل واحد ما يحسن في عينيه. وغالبًا ما يحدث هذا المستوى شديد الاضطراب في الأسر شديدة الفقر، أو شديدة الغنى. إنّ الفقر الشديد والغنى الشديد أيضًا هما ضغوط اجتماعية قويّة على الأسرة؛ إذ يجعل الفقر الشديد عائلًا الأسرة يلهثان خلف الرزق لتسديد الاحتياجات الأساسية، فيما

يجعلُ الغنى الشديد الوالدين مُنشغلين في إدارة ثروتهما ومشاريعهما، وأحياناً متجاوبين مع متطلبات الطبقة الاجتماعية العليا.

## ثانياً: تمايز الشخصيات والحدود (Differentiation and Boundaries)

الأُسرةُ شديدةُ الاضطراب	الأُسرةُ متوسطةُ الاضطراب	الأُسرةُ الصحيحة
أدوارٌ مقلوبة	أدوارٌ غمطيةٌ جامدة	أدوارٌ محدّدة لكن مرنة
<p>١. قد يلعبُ الأطفال أدوارَ الكبار، حتّى إنهم قد يرفعون الكبارَ أيضاً. هذا نوعٌ من أنواع الإساءة إلى الأطفال. قد يحدثُ ذلك من خلال إدخالهم في صراعاتِ الكبار أو مطالبتهم بأداء مهام الكبار، وهكذا تصبغُ طفولتهم.</p> <p>٢. عدمُ وجودِ حدودٍ واضحةٍ في الخصوصيّةِ والمسؤوليّةِ (إلقاء اللوم)، أو غيرها من الحدود.</p>	<p>١. أدوارٌ غمطيةٌ لا تتغيّر. مثلاً، لا يعزُّو الرجال عن مشاعرهم، وليس هناك رأيٌ للنساء في أمورٍ معيّنة. لا يكونُ الأطفالُ حاضرين مع الكبار، وليس لهم حقُّ الاعتراض على الكبار... إلخ.</p> <p>٢. توجدُ حدودٌ واضحة، غير أن هناك تباعداً بسببِ الأدوار النمطيةِ الجامدة.</p>	<p>١. الشخصياتُ محدّدةٌ والأدوارُ معروفة، ولكن تُوجدُ مرونةٌ في التطبيق، كما في كرة القدم؛ حيث إنّ لكلّ لاعبٍ مركزه الأساسي، لكنّه يستطيعُ - بل يجب - أن يؤدّي مهامَ المراكز الأخرى وفقاً لخطّةِ اللعب.</p> <p>٢. توجدُ حدود، لكنّها حدودٌ مفتوحةٌ تحوي قنواتٍ للاتصال.</p>

إنّ الضغوطَ تجعلُ الأسرةَ تتراجعُ من مستوى إلى المستوى الذي دونه. إنّ الخوفَ على البنت المراهقة قد يدفعُ أمّها لأن تفتشَ حقيبتها وتتنبّصت على مكالماتها، على الرغم من أنّها كانت تؤمنُ بالخصوصيّة. غير أنّ الحقيقةَ هي أنّ بناءَ الثقة والعلاقة هو أمرٌ أصعبُ ويأخذُ وقتاً أطول. كما أنّ الحوارَ والمواجهَةَ قد يكونان عبئاً على الآباء، ممّا يُضطرّهم إلى اللجوءِ إلى التجسّس والقهر. وغيرُةُ الزوجة على زوجها أيضاً قد تدفعها إلى مُراجعةِ الرسائل الواردة في جهاز الموبايل، وذلك من باب الاطمئنان عليه!

إنّ العديد من الضغوط قد تَقَعُ على كاهل الوالدين، ممّا يؤدّي إلى انقطاع قنوات الاتصال

بأولادهما، لا سيّما في سنّ المراهقة؛ لأنّ المراهقين في هذه السنّ يصيرون مقاومين لوالديهم. كما أنّ الأهل في هذه السنّ يمكن بسهولة أن ينسوا الأولاد وينشغلوا عنهم منغمسين في عملهم.

### ثالثاً: التواصل (Communication)

الأسرة شديدة الاضطراب	الأسرة متوسطة الاضطراب	الأسرة الصحيحة
غموض وإبهام وتعارض	وضوح بلا حوار	وضوح وحوار
<p>١. قد يكون التواصل مبهماً، والتعبير بالأفعال وليس بالكلام، وقد يكون بالصمت أو بالخصام أو بالعنف ضدّ الشخص نفسه أو ضدّ أشخاص آخرين ليس لهم شأن في الأمر.</p> <p>٢. وجود رسائل متعارضة كأن يقول الإنسان أمراً ويفعل عكسه.</p>	<p>١. تواصل واضح، لكنّه غمطيّ وجامدٌ وغير منفتح على أفكار جديدة، كما أنّه غير قابل للتغيير.</p> <p>٢. التواصل من جانب واحد فقط، مثل الأوامر والتوجيهات والنصائح.</p>	<p>١. الكلام واضح وصریح بحيث لا توجد افتراضات وكلام ما بين السطور.</p> <p>٢. التواصل تلقائي ولا ينتظر السؤال. يمكن لمن يشعر بأمر ما أن يعبر عنه مباشرة دون أن ينتظر أن يسأله أحد: "ما الأمر؟".</p> <p>٣. متبادل؛ حيث إن كل طرف يستطيع أن يتكلم ويستطيع أن يصغي دون أن تطفئ أي من المهارتين (التعبير والإصغاء) على الأخرى.</p> <p>٤. منفتح على الأفكار الجديدة مع وجود استعداد لتغيير الرأي لو ثبت فشله.</p>

يمكن أن يحدث تدهور في التواصل في الأسرة من مستوى إلى مستوى أقل. ومن الممكن أن يجعل نفاذ الصبر هذين الوالدين المؤمنين بالحوار يفقدان هذا الإيمان ويتبعان أسلوب إصدار الأوامر. كما أنه في الأسرة التي تعتاد التعبير بالكلام، قد يختبر أحد الأفراد مشكلة كبرى أو جرحاً بالغاً من فرد آخر حتى إنه قد يفقد قدرته على التعبير، ويلجأ إلى الصمت.

## رابعاً: العلاقات (Relationships)

الأُسرةُ شديدةُ الاضطراب	الأُسرةُ متوسطةُ الاضطراب	الأُسرةُ الصحيحة
علاقاتٌ تضادٌ تفتقرُ إلى الثقة	ثقةٌ أكثر، لكنّها تعتمدُ على الرقابة والسيطرة	علاقاتٌ انتماءٍ وثقةٌ دونَ رقابة
<p>١. توفُّعُ الشرِّ. ويحدثُ الشرُّ في هذه الأسر كثيرًا، لذا فإنَّ توفُّعه منطقيٌّ.</p> <p>٢. يحاولُ كلُّ فردٍ أن يحمي نفسه من الإساءات البدنيَّة والنفسية والجنسيَّة، والتي هي أمورٌ شائعةٌ جدًا في مثل هذا النوع من الأسر.</p> <p>٣. عدمُ احترام الوالدين لبعضهما بعضًا أمام الأَوْلاد يؤديُّ إلى الإحساس الشديد بعدم الأمان.</p>	<p>١. توفُّعُ الشرِّ والإيمانُ بأنَّ الطبيعةَ البشريَّةَ سيئةٌ بطبعها وتحتاجُ إلى سيطرة جامدة.</p> <p>٢. يُطلقُ على هذه الأسر اسمَ "المجتمع المزيَّف" (Pseudo-community) وهو الذي يبدو من الخارج ملأنا بالثقة والحبِّ والاحترام، غير أنَّ ذلك هو مجردُ قشرةٍ تنهارُ عندما يحدثُ اختلاف.</p> <p>٣. الاحترامُ نابعٌ من الخوف.</p>	<p>١. توفُّعُ الخيرِ والولاءِ وليس الشرِّ والخيانة.</p> <p>٢. المتهمُّ بريءٌ حتَّى تُثبتَ إدانته، وليس العكس.</p> <p>٣. احترامٌ حقيقيٌّ تعبَّرُ عنه الكلمات والأفعال، ويظهُرُ عمقُه وحقيقتهُ في وقتِ الصُّعابِ وارتكابِ الأخطاء.</p>

عندما يرتكبُ أحدُ أفرادِ الأسرة خطأً بالغاً، قد تندهورُ الأسرةُ في مستوى ثقتها بأفرادها وتفقدُ إيمانها بأنَّ المتهمُّ بريءٌ حتَّى تُثبتَ إدانته، وتبدأ في ممارسة الشكِّ في هذا الشخص أو في الجميع. فمثلاً، إذا اكتشَفَ الأبوان أنَّ ابنتهما الشابَّة على علاقةٍ غير سويَّة بأحد الشباب، فإنَّ الثقة تُسحبُ منها تماماً على أساس أنَّها مُدنيةٌ على طول الخطِّ، وهذا يقطعُ علاقةَ الانتماء ما بين تلك الشابَّة وأسرتهَا، وهو ما قد يُدخلُها في دائرةٍ مُفرغةٍ من هذه العلاقات بسبب فقدانها حبِّ أهلها وثقتهم. هناك فرقٌ جوهريٌّ بين الرعاية والإشراف والمراقبة والتجسس. وهناك فرقٌ كبيرٌ ما بين المسؤوليَّة والمحاسبة من جهة، وبين الشكِّ وعدم الثقة من جهةٍ أخرى.

## خامساً: الإحساسُ بالواقع والتَّعاملُ معه (Reality sense)

الإحساسُ بالواقع والتَّعاملُ معه هو صِمامُ الأمان للأسرة. إنَّه قدرةُ الأسرة على فَحصِ نفسها

واكتشاف العيوب التي فيها وتحديد التدهور الذي حدث في مستوى نضجها لكي تستعيد صحتها مرة أخرى.

الأسرة شديدة الاضطراب	الأسرة متوسطة الاضطراب	الأسرة الصحية
إنكار تام للواقع	رؤية مشوهة للواقع	رؤية صادقة للواقع
<p>١. الميل المستمر إلى إنكار الحقائق المؤلمة واعتبارها غير موجودة، ولا سيما مرض أحد أفراد الأسرة أو انحرافه (وقد يصيب هذا جميع الأفراد).</p> <p>٢. الهروب إلى الخيال وأحلام اليقظة.</p>	<p>١. علاقة أفضل بالواقع، لكن بوجود بعض التشوهات و"الخرافات" الأسرية (أفضل أسرة/ أفضل تربية/ لا توجد مشكلات/ لا توجد احتياجات غير مسددة... الخ).</p>	<p>١. صورة الذات وصورة الأسرة قريبة من الواقع.</p> <p>٢. رؤية متوازنة إلى السلبي والإيجابي.</p>

### سادساً: التعامل مع المشاعر (Dealing with Emotions)

سبقَ وتحدثنا بشأن الذكاء الوجداني والتربية الوجدانية. وكما أن هناك مستويات للذكاء الوجداني للفرد، فهناك مستويات للأسرة أيضاً.

الأسرة شديدة الاضطراب	الأسرة متوسطة الاضطراب	الأسرة الصحية
لا تعبر عن أية مشاعر	هناك مشاعر مقبولة وأخرى غير مقبولة.	كل المشاعر مقبولة، غير أن هناك طرق تعبير مقبولة، وأخرى غير مقبولة.
<p>١. الأم والأب أنموذجان لعدم التعبير عن المشاعر، سواء أسلبية كانت أم إيجابية.</p> <p>٢. التعبير عن المشاعر يكون غالباً بالأفعال المنهورة كشق الملابس أو اللطم وغيرها.</p>	<p>١. يمكن التعبير عن المشاعر، ولكن ضمن حدود. مثلاً، قد يُعد التعبير عن الحب ضعفاً، والتعبير عن الغضب سوء تربية.</p>	<p>١. كل أنواع المشاعر مقبولة. لا يوجد تصنيف سلبي وإيجابي للمشاعر، غير أن طريقة التعبير عن المشاعر هي التي تخضع للقبول والرفض.</p>

## الأدوار في دراما الأسرة

سواء أَعَلَّمْنَا بالأمر أم لم نَعَلَمْ، هناك نصوصٌ كُتِبَتْ لنا كان علينا أن نُؤدِّبَهَا في الأسر المضطربة التي نشأنا فيها، مهما كانت مشاعرنا أو ما نمرُّ به من أحوال. وتبقى هذه الأدوار تَفْرِضُ علينا أن نتصرَّفَ بطرقٍ معيَّنة حتَّى بعد أن نترك الأسرة التي نشأنا فيها؛ لأنَّ هذه ”النصوص“ صارت مكتوبةً في وعينا تتحكَّمُ فينا من الداخل دون أن نتوقَّفَ لحظةً لنفحصها ونرى إن كنا نريدُ أن نستمرَّ في لعب هذه الأدوار نفسها أم لا. من أشهر هذه الأدوار القهرية دورُ البطل. وهو غالبًا ما يكون الشخص الذي تحسبه الأسرة فخرها، أو التعويض الذي ”خرجت به من الدنيا“. قد يكون البطل هو الابن الذي يحمل المسؤولية أو الذي يُنفق على الأسرة، أو الفتاة الذكيَّة المتفوقة في المدرسة التي تحرزُ دائمًا أعلى العلامات النهائية وتُسعد الجميع. وقد يكون الشاب المتدين الذي يشكِّل ”ضمير الأسرة“. في العادة يحصلُ البطل على الكثير من المديح حتَّى إنَّه قد ”يُدمِن“ هذا المديح ويصيرُ مدمنًا على العمل والإنجاز، ولا يقبلُ من نفسه أيَّ شيءٍ أقلَّ من النجاح الباهر في كلِّ أمر. ولأنَّه كان البطل، لم يكن مقبولًا منه الضعف أو الفشل بتاتًا، فصار هو أيضًا لا يقبلُ أن يعترفَ حتَّى بينه وبين نفسه بأيِّ ضعفٍ أو احتياج.

قد يشعرُ البطلُ في أحيانٍ كثيرة بالفخر والفرح، لكنَّه في أعماقه يُعاني الخوف الشديد من الفشل. فبالنسبة إلى من يلعب دورَ البطل بصورةٍ قهرية، ليس الفشلُ حادثًا عارضًا طبيعيًا لا بدَّ أن يأتي في الحياة، بل هو أشبه ما يكون بالموت والنهاية. لذا قد ينتابُه الخوفُ من الفشل حتَّى وهو في قمة احتفاله بالنجاح، فيفسد عليه سعادته. ولا يجرؤُ البطلُ أيضًا أن يقفَ لِيستريح قليلًا ويحتفلَ بإنجازِهِ، بل هو يشعرُ على الدوام بإلحاح قهريٍّ أن يبحَثَ بسرعةٍ عن نجاح جديدٍ يُبقيه دائمًا في بؤرة الاهتمام، حيث لا يمكنُ أن يحصلُ على أيِّ اهتمامٍ إلَّا إذا كان بطلًا!

أمَّا في العائلات الأكثر صحَّة، فيجري لعبُ الأدوار بمرونة. فالكلُّ يمكنُ أن يلعبَ دورَ البطل في أوقات، ويتركه في أوقاتٍ أخرى. جميعُ أفراد الأسرة يُقبَلُ منهم النجاح والفشل، أو القوَّة والضعف، أو العطاء والاحتياج في كلِّ الأوقات، وذلك بحسب الأحوال المتغيرة للحياة، ومع ذلك فَلهُم نصيبُهُم من الحبِّ والاهتمام مهما كان الدور الذي يلعبونه.



وهناك أيضاً دورٌ كبشِ الفداء. وهو الشخص الذي اعتادَ أن يُلامَ دائماً على كلِّ مشكلات الأسرة، وأن يكونَ فشلهُ أو مرَّضه مصدرَ عارها، وفي بعض الأحيان محورَ اهتمامها. من يلعبُ هذا الدور يحصلُ على ما يمكن أن يُسمَّى ”الاهتمام السلبي“. ربَّما لم يستطع أن يحصلَ على الاهتمام الإيجابي كما يفعلُ البطل، لكنَّه اكتشَفَ - وربَّما على نحوٍ غير واعي - أنَّ فشلهُ ومشكلاته هي أمورٌ تجلبُ إليه بعضَ الاهتمام. هذا يعكسُ الاحتياجَ الشديدَ لدى الأطفال، والبشر عموماً، إلى الحصول على الاهتمام. فتحَّتْ إن كان الضربُ والتعنيفُ هو الأسلوبُ الوحيدَ الذي يُعبرُّ به عن الاهتمام، فهذا على الأقلُّ أفضلُ من التَّجاهل! لذا فإنَّ بعضَ الدراساتِ النفسيَّة تشيرُ إلى أنَّ هذا الاحتياجَ إلى الاهتمام السلبي قد يودِّي إلى ”الماسوكيَّة“ (Masochism)، أي التَّلذُّذُ بالألم والإهانة بوصفها الطريقةَ الوحيدةَ التي يمكنُ أن يحصلَ بها الطفلُ على الاهتمام.

وتتواطأ الأسرةُ أيضاً مع هذا العضو، وتستخدمه ليكونَ كبشَ فداءٍ للتَّغطية على مشكلات باقي أفراد الأسرة (ومن هنا جاءتِ التَّسميَّة)؛ حيث إنَّ كبشَ الفداء هو الذي يحملُ كلَّ الأخطاء والخطايا ليصيرَ الجميعُ مبرَّرين بالمقارنة به. والشابُّ المدمنُ مثلاً يُعطِي عبر إدمانه على حقيقة أنَّ لدى والده علاقاتٍ خارجَ الزواج مثلاً. فانشغالُ الأمِّ مثلاً بابنها المدمن يجعلها لا تفتنُ لخيانة زَوْجها. وليس ذلك فقط، فالأبُ الخائنُ قد يبرِّزُ لنفسه خيانتَه بسبب ما يُعانيه في البيت من جرَّاء ابنِ مدمنٍ وزوجة حزينة، لذا فهو لا يشعرُ بأيِّ ذنب. هكذا يلعبُ الابنُ المدمنُ دورَ كبشِ الفداء بالنسبة إلى أبيه. وهذا قد يجعلُ لدى الأب رغبةً لا واعيةً في أن يستمرَّ ابنه في إدمانه لينجو هو بفعلته. في مواقفٍ أُسرِيَّة كثيرة مثل هذه، حينما يبدأ ذلك الابنُ المدمنُ يتعافى ويتوقَّف عن تعاطي المخدَّرات، نَفاجاً بأبيه يُعطيه، بشكلٍ لاواعٍ وغير مقصود مبلغاً مادياً كبيراً على عكسِ توصياتِ المعالجين، فيعاودُ التَّعاطي ويظلُّ يلعبُ دوره بصفته كبشِ فداءٍ للأسرة؛ إذ ليس مقبولاً منه أن ”يخرَجَ عن النصِّ!“

يستمرُّ كبشُ الفداء أيضاً على نحوٍ قهريٍّ يمارسُ الفشلَ؛ لأنَّه لا يؤمن بنفسه في دورِ الناجح حتَّى إنَّه يشعرُ بالغربة والاعتراب عن نفسه إذا نَجَح. فنَجده يُهدرُ فرصَ النجاح واحدةً تلو أخرى. لذلك فهو لا يمكنُ أن يخرَجَ من الفشل إلى النجاح، ومن المرض إلى الصَّحَّة إلا إذا تجرَّأ أولاً أن يخرَجَ عن النصِّ المكتوب له!

أما المهرج فهو الذي تعلم أن يستخدم الفكاهة والضحك ليكون وسيلة للتعامل مع الألم والمشكلات. ويكون هذا كمن يتلعبها بجرعة ماء أو بالأحرى بجرعة ضحك. إنه يستخدم بذلك موهبته الخاصة في الدعابة والهزج للترويح عن نفسه وعن الأسرة، فيهرب بنفسه، وبهم أحياناً، من الآلام. يحصل مهرج الأسرة على الاهتمام بأن يقتنص ذلك الاهتمام بنفسه. لهذا السبب نرى أناساً يمزحون بطريقة قهرية دون أن يشعروا بالسعادة من الداخل. والإنسان الواعي يستطيع أن يرى الدموع من وراء ضحكاتهم. ولعل السبب في هذا الهزج القهري هو أن فيهم اقتناعاً داخلياً مترسباً من الطفولة يقول لهم إنهم إن لم يمارسوا الدعابة والهزج لن يستطيعوا احتمال ما يترتب على حياتهم من ألم، كما أنهم لن يكونوا مقبولين في الأسرة. تماماً مثل المهرج المحترف، فهو يعرف أنه على الرغم من دموعه وأحزانه، فإن عليه أن يطي وجهه بالألوان، ويضع الكرة الحمراء على أنفه ليضحك الجميع، فهذه هي وظيفته ومن دونها لن يكون له مكان في "السيرك"!

لذلك فإن الأسرة المضطربة لا تسمح للمهرج بأن يعاني ويعبر عن معاناته، كما أنها أيضاً لا تسمح له بأن يكون جاداً أو مسؤولاً وكأنه الطفل الذي عليه أن يظل طفلاً إلى الأبد، خفيف الظل كثير الهزج، وهذا بالتأكيد يؤثر في نضج الكثيرين الذين كان عليهم أن يلعبوا هذا الدور في الأسرة. هؤلاء "المهرجون" عندما يخرجون من إطار الأسرة نجدهم لا يزالون يلعبون هذا الدور نفسه ويتعجبون من أن الجمهور خارج الأسرة لا يصفق لهمهم المستمر، والذي كثيراً ما يكون مبالغاً فيه وفي مواقف ينبغي ألا يكون فيها هزج ومزاح. وهذا يؤثر على نحو سلبي في الكثير من علاقاتهم في العمل أو الصداقات أو غيرها كونهم كباراً.

هناك أيضاً دور يمكن أن نسّميه "دور الطفل المنسي". وهو الطفل الذي لا يسبب أية مشكلات وليس لديه أي مطلب. ولأن لدى الأسرة المضطربة ما يكفيها من الآلام والاحتياجات، فإن من لا يسبب المشكلات ينسى تماماً، بل تصير النقطة الإيجابية الوحيدة التي فيه هي أن لا أحد يشعر به! لذلك فإنه عندما يعاني من جراء مشكلة أو احتياج ما، يميل إلى حلها بنفسه أو تجاهلها ليظل مُحافظاً على دور من لا يسبب المشكلات. غالباً ما يكون مثل هذا الطفل قادراً على تسليته نفسه بنفسه دون الاحتياج إلى أحد، وعادة ما يغرق هذا الطفل في سلوكيات قهرية خاصة مثل أحلام اليقظة أو الشفقة على الذات أو ربما العادة السرية التي يستخدم

فيها الشخصُ نفسه بنفسه للحصول على اللذة والهروب من الألم. أحياناً يستخدم البعض سلوكيات لها جانبٌ بناءً مثل الحاسوب أو الدراسة. وقد تجعلُ هذه السلوكيات الأشخاص ينتقلون أحياناً إلى لعبِ دور البطولة. على أية حال، إن لم يحصلوا على دور البطولة فهم على الأقل يحصلون على النجاة من مواجهة الفوضى التي في البيت.

عندما يكبرُ مثل هذا الطفل، فإنه يجدُ صعوبةً في أن يكونَ وسطَ الناس أو أن يقبلَ الحبَّ أو الاهتمام؛ فهو ينزعجُ إذا سُلطَ عليه أيُّ نوعٍ من الأضواء لأنه لم يعتدَّ أن يكونَ محلَّ اهتمام. ولأنه شخصٌ عاشَ كلَّ عمره في كهفٍ مُظلم، فهو يتوتَّرُ جدًّا عندما يعيشُ وسطَ الناس. كما أنه لا يثقُ بأنَّ أحداً يمكنُ أن يحبه أو يهتمَّ به؛ لأنه يؤمنُ بأنه المنسيُّ الذي يجب أن يعيشَ على هامش الحياة، وأفضل أمرٍ يفعله هو أن ”يتعدَّ عن الطريق“ من أمام الجميع لئلا يسبَّبَ أية مشكلات.



## نصائح ختامية

- الأسر التي نشأنا فيها تؤثر علينا، غير أن هذه التأثيرات ليست قدرًا لا يمكن الهروب منه، بل يمكن أن نعي كيف أثرت هذه الأسر علينا وكيف نعدّل من هذه التأثيرات.
- في كثير من الأحيان، تظهر عيوبنا بأوضح صورة في نطاق الأسرة؛ لأننا لا نتحفّظ كثيرًا في الأسرة ولأنّ هذه العيوب ناتجة عن معتقدات خاطئة نشأت في إطار الأسرة.
- في كثير من الأحيان، تحتاج الأسرة لكي تقيم مستوى صحتها وتتقدّم نحو الأمام لأن تستعين بمشير أو معالج أسريّ يستطيع أن ينظر نظرة خارجية موضوعية تقيم مدى الصحة والاضطراب الموجود في الأسرة؛ حيث إنه يصعب على أفراد الأسرة أنفسهم أن يدركوا هذه الأنماط، لا سيّما إذا كانت متوارثة من الأسر التي نشأوا فيها ومرتبطة بمعتقدات محورية راسخة لم يعتادوا مناقشتها وفحصها.

## دعاء

يا إلهي الذي وضعتني في أسرة نشأت فيها،  
وائتمنتني على أسرة جديدة،  
اشفِ جذوري المغروسة في الماضي،  
واجعلُ أسرتي جسراً يصلُ بأبنائي وبناتي  
إلى مستقبلٍ أفضل.  
أمين





الفصل الخامس عشر

## الوقاية من الاعتداء الجنسي والجنسية المثلية

- حد زميلي اعتدى عليّ.. في الكلاس.

(زميل لي في الصفّ اعتدى عليّ).

- بس هو مش مفهوم اعتداء قوي... لأنه كان حد قدي في أولى ابتدائي.

(هو ليس اعتداءً بالمعنى المفهوم؛ لأنه كان في عمري ذاته في الصفّ

الأوّل الابتدائي).

- ف... مش اعتداء مفهوم يعني... فأنا إللي اتضربت!

(لم يكن اعتداءً مفهومًا. نعم أنا الذي تعرّض للضرب!)

- روّحت لبابا... لما روّحت البيت ضربي.

(عندما عدتُ إلى المنزل وحكيتُ لأبي ما جرى، قام وضربي).

- قعد يزعق... وضربي.. بحاجة جلد... حزام كده يعني...

(ظلّ يصرخ ثمّ ضربني بحزامه).

- قعدت أقوللو.. طب ليه بتضربي؟ طب إيه الللي عملته غلط؟ هو أنا

إيه الللي عملته؟

(ظلمتُ أقول له: لماذا تضربني؟ ما الخطأ الذي ارتكبته؟ ماذا فعلت؟)

- وفي الموقف ده أنا ما كنتش عملت حاجة!

(ولم أكن قد فعلتُ أمرًا خاطئًا!)

- زائد إن ابن عمتي ... تقريبًا في نفس الفترة دي .

(بالإضافة إلى ذلك كان ابن عمتي في تلك الفترة نفسها أيضًا).

- اعتدى عليّ ... بس كان بطريقة ... هو كان أكبر منّي!

(اعتدى عليّ، لكنّ بطريقة ما ... لقد كان يكبرني عمراً).

- اعتدى عليّ بطريقة .. لطيفة جدًا ... وشكلها محترم جدًا ... قاللي إن

ده ... ده لعب.

(اعتدى عليّ بطريقة لطيفة وحنونة وتبدو محترمة، وقال لي إنه يلعب معي).

- أوكي .. ده لعب. مافيش مشكلة! ... لأن ما كانش عندي أي حد

يلعب معايا ولا أي حد يكلمني ولا حد يبص لي .

(حسنًا هذا لعب، ولا بأس في ذلك! إذ لم يكن أحد يلعب معي أو

يكلمني أو حتى ينظر إليّ).

- هو وصللي بيه إن هو بيحبني ... في الوقت إللي أنا فيه ما حدش

بيتكلم معايا.

(من خلال هذا "اللعب" وصلتني رسالة أنه يُحبني في وقت لا يتكلم

فيه أحد معي).

- كان آخر النهار بابا يبجي يقوللي: أوكي. أنا بحبك .. وبيوسني ...

طبعا الساعة اتناشر أنا نايم بقالي ساعتين .

(لم أكن أحصل على حب من أبي . في آخر اليوم كان يأتي أبي ليُقبّلني

ويقول لي إنه يحبني . كان هذا يحدث في منتصف الليل الساعة الثانية



عشرة بعد أن أكون قد نمت بنحو ساعتين ... يقول أحبك ويقبلني).

- هو كأنه بيبوس في مخدة نائمة... أنا باروح المدرسة... لا بيوديني... ولا بيحيني ولا بيشفوني... ولا بيعرف حتى أنا... غالبًا ما كانش يعرف أنا في سنة كام<sup>١</sup>.

(كان كمن يقبل الوسادة. أنا أذهب إلى المدرسة بمفردتي، لا يوصلني إلى المدرسة ولا يأخذني منها، ولا يأتي ليراني فيها، ولم يكن يعرف تقريبًا في أي صف كنت).

هذه القصة الواقعية تلمس قضيتين مهمتين سنحاول أن نتناولهما في هذا الفصل: قضية الاعتداء الجنسي على الأطفال، وكيف نقي الأطفال منه، وكيف نتعامل مع الطفل المعتدى عليه، والقضية الثانية هي قضية الجنسية المثلية وتوضح القصة كيف أن الأمرين مرتبطان إلى حد كبير.

## مِنِ الْمُعْتَدُونَ؟

من أخطر الممارسات في مجتمعاتنا، عقاب المتعرض للاعتداء الجنسي، ولا سيما إن كانت امرأة أو طفلًا!

قد يكون من المفيد ونحن نتحدث بشأن الوقاية أن نسأل هذا السؤال: "مِنِ الْمُعْتَدُونَ؟"، فمن الصعب تعرف المعتدين جنسيًا؛ لأنه لا يبدو عليهم في أغلب الأحيان أي شيء غريب من الظاهر. قد يكون الشخص المعتدي شخصًا سويًا في جوانب

عديدة من حياته وعلاقاته وعمله، وربما يشغل منصبًا مرموقًا، أو قد يكون في وظيفة يفترض فيها تقديم الرعاية للأطفال، وفي الوقت نفسه يعاني اضطرابًا نفسيًا أو جنسيًا خاصًا يدفعه لمثل هذا

١ قصة حقيقية من فيلم "مثلني أنا" رؤية وإخراج ماغي مرجان ٢٠٠٧م. الشاب صاحب القصة سُفِي من المثلية، وهو الآن متزوج ويعيش حياة جنسية طبيعية مع زوجته، وكذا جميع أبطال الفيلم.

السلوك. حاولت إحدى الدراسات النفسية تصنيف الرجال الذين يمارسون الاعتداء الجنسي على أطفالهم في المجموعات التالية:<sup>2</sup>

- النوع الأول هو الشخص المهووس بالجنس. حسب هذه الدراسة فإن ٢٦٪ من الآباء كان لديهم اهتمام جنسي ببناتهم منذ ولادتهن، وفي بعضهم كان هذا الاهتمام الجنسي مسيطراً تماماً على تفكيرهم. قال لي أحد عملائي من مدمني الجنس إنه يشتهي كل أنثى يراها حتى لو كانت طفلة. وهو يدعو الله كل يوم أن لا تنجب زوجته طفلةً لئلا يشتهيها.

- أما النوع الثاني فهو الشخص الذي يعاني نكوصاً إلى مرحلة المراهقة. فحسب الدراسة نفسها، ظهر في ٣٦٪ من الآباء أن رغبتهم الجنسية تجاه بناتهم بدأت بعد وصول الابنة إلى مرحلة البلوغ. في ذلك الوقت، بدأ الآباء يركزون على التغيرات الجسدية لبناتهم. قال أحدهم: "كان الأب الناضج الذي في ينطفئ فجأةً لأصير مراهقاً مهووساً بالجنس، وكأن في داخلي شخصيتين".

- النوع الثالث هو من يستخدمون الضحية لتكون أداة للإشباع. في هذه الدراسة ٢٠٪ من المعتدين يقولون إنهم كانوا يتخيلون نساءً أخريات في أثناء اعتدائهم على الأطفال، مثل الزوجة أو الابنة الكبرى. وهكذا يستخدمون الأطفال ليكونوا أداة أو لعبة جنسية.

- النوع الرابع يشمل المعتدين عاطفياً. ويشكل هؤلاء أكثر قليلاً من ١٠٪ من المعتدين، وهم أشخاص كانوا مكتئبين ويعانون احتياجاً عاطفياً، فحاولوا الحصول على راحةٍ وتغذيةٍ نفسيةٍ من خلال أطفالهم. لذا كان تركيزهم على احتياجهم العاطفي أكثر من تركيزهم على الصفات الجسدية أو الجنسية الحقيقية أو التخيلية لأطفالهم.

- النوع الخامس هم المنتقمون الغاضبون. ويشكل هؤلاء نحو ١٠٪ من الرجال في هذه الدراسة. وقد كان لدى أولئك تاريخ إجرامي في الاعتداء والاعتصاب،

2 David Finkelhor and Linda Meyer Williams in *Incest-A Chilling Report* by Heidi Vanderbilt, (N.Y.: Lear, 1992).

وهكذا فإنهم يمارسون الاعتداء بدافع الانتقام الغاضب لأن الزوجة أو الحبيبة لم تُعطيهم الاهتمام الكافي.

### ملاحظات على هذه الدراسة

- هذا لا يحدث بين ليلة وضحاها؛ إذ تكوّن هذا الاهتمام الجنسي بالتدريج لدى أكثر من ٥٠٪ من المعتدين.
- الاعتراف والمواجهة أفضل من الإنكار والتجاهل. ومن الملاحظ أن التوعية عن الجنسانية (الطبيعة الجنسية للبشر) وعدم إنكارها، قد تكسّر دائرة الانتهاك. أي أنه عندما يعترف الإنسان لنفسه بحقيقة رغباته الجنسية - حتى لو كانت موجّهة تجاه أشخاص محرّمين بالنسبة إليه - ويبدأ في التعامل مع هذه الرغبات بيقظة ووعي، فإن هذا يعدّ أحد صمات الأمان ضدّ حدوث الانتهاكات والمشكلات الجنسية بصفة عامّة.
- المعتدى عليهم يعتدون هم أيضاً؛ فنحو ٥٠٪ من الرجال المعتدين تعرّضوا هم أيضاً للانتهاك من آبائهم و٤٤٪ من أمهاتهم.

هذا عن المعتدين من الرجال، فماذا عن النساء؟ في الماضي لم يكن أحد يتصوّر أن النساء قد يعتدين جنسياً على الأطفال، غير أن هذا الأمر صار واضحاً مؤخراً حيث بدأ بعضهنّ في طلب المساعدة. عموماً هناك أربعة أنواع من النساء المعتديات:<sup>٣</sup>

١. النوع الأول هو المعلمة المحبّة. وغالباً ما تكون سيّدةً أكبر سنّاً تمارس الجنس مع مرهقٍ (ذكرًا أو أنثى).

٢. أمّا النوع الثاني فهو المستغلّة الراغبة في التجربة. وهنّ عادةً بناتٍ أسرٍ متشدّدة راغبات في استكشاف الجنس يصاحبهنّ في الوقت نفسه رعبٌ شديدٌ منه. مثل هؤلاء قد

3 Ruth Mathews of St. Paul. Based on the study of 100 Female abusers, 65 adults and 35 adolescent.

مبني على دراسةٍ للاختصاصيّة النفسيّة روث ماثيوز جرّت على ١٠٠ من المعتديات الجنسيات، ٦٥ منهنّ راشدات، و٣٥ من المراهقات.

يبدأن مثلاً بمداعباتٍ جنسيّةٍ للأطفال الذين يجالسونهنّ.

٣. النوع الثالث هو مَنْ تعرّضَ للاعتداء. يكون لدى هؤلاء ماضٍ من الانتهاك الجنسيّ، فتقولُ إحداهنّ مثلاً: "عندما كنتُ طفلةً، عوملتُ كالحيوانات، لذا لم أدرك أنّ الأطفال هم بشرٌ!".

٤. أخيراً، النوعُ الرابع هو المرأة التي أجبرها الرجال. وهنّ من أُجبرنَ قسراً على الانتهاك من قِبَل الرجال.

ما الأسرُ المعرّضة لحدوث الاعتداءات الجنسيّة وزنا المحارم؟

- الأسرُ التي تعرّضَ فيها الآباءُ والأمّهاتُ أنفسهم للاعتداء الجنسيّ.
- الأسرُ التي يعاني أفرادها جوعاً عاطفياً وجنسياً.
- الأسرُ التي فيها قدرٌ كبيرٌ من القهر وعدم القدرة على التعبير عن المشاعر بصورةٍ طبيعيّة. قد يدفع هذا البعضَ لمحاولة الشعور بالقوّة والتفوّق والسيطرة من خلال الاعتداء على مَنْ هم أضعف.
- الأسرُ التي فيها تعاطٍ للخمر والمخدّرات، أو التي تعاني الفقر أو البطالة.
- الأسرُ المعزولة اجتماعياً، والتي لا تتعرّضُ لنماذجٍ مختلفةٍ أكثر صحّةً، ولا تحصلُ على محاسبةٍ من سلّطة أعلى سواءً كانت الأسرة الممتدّة أم سلّطاتٍ مجتمعيّة أو دينيّة.
- حالة الأمّ (الاكتئاب، أو العنف، أو الإهمال، أو الشخصيّة السلبيّة الاعتماديّة، وربّما الماسوكيّة<sup>٤</sup>)؛ وذلك لأنّ الأمّ هي عنصرٌ أساسيٌّ في حماية الأبناء والبنات من الإساءات.

٤ الشخصية التي لديها تحمّلٌ غير طبيعيٍّ للإهانات والإساءات دون الاعتراض أو الشعور بالغضب.

## المواد الإباحية وانتهاك الأطفال<sup>٥</sup>

في دراسة مسحية أُجريت في السويد عن الشباب الذين يشاهدون المواد الجنسية الإباحية، جرت دراسة حالة ٤٩٦ مراهقًا شاهدوا موادًا جنسيةً منحرفة، (سواءً كانت ممارساتٍ عنيفةً أم جنسًا مع حيواناتٍ أو أطفال). وكان من ضمن النتائج أن ٩٧٪ من الأولاد، و٧٦٪ من البنات شاهدوا هذه الموادَ عدّة مرّات، و١٠٪ من الأولاد شاهدوها يوميًا. عندما وُجّه إليهم السؤال "ما تأثير هذه المشاهدات في حياتك؟"، قال ٥٩٪ من الأولاد و٣٠٪ من البنات إنهم فكّروا في تجربة ما قد شاهدوه. بينما قال ٤٨٪ من الأولاد و٢٥٪ من البنات إنهم مارسوا بالفعل ما قد شاهدوه! وفي دراسةٍ أخرى من الولايات المتّحدة، ألقي القبض على ١٠٨٢ شخصًا بسبب حيازتهم لصور جنسيةٍ لأطفال، ووُجِد أنّ ٣٩٠ منهم قد اعتدوا بالفعل على الأطفال!

### هل يُعدُّ ختان البنات إساءةً جنسيةً؟

إنّ هذا السؤال يفرض نفسه في إطارنا المجتمعيّ، ولا سيّما في مصر ودول حوض النيل. ونحن نرى أنّ ختان البنات يُعدُّ بالتأكيد إساءةً جنسيةً؛ لأنّه يتضمّن كشف الأعضاء الجنسية للأطفال ولمسّها من قبل أناسٍ أغرب، بالإضافة إلى أنّه عملٌ يؤثّر في علاقة الطفلة بجسدها وبالجنس عمومًا بعد ذلك. في بعض الأحيان يولّد الختان لدى الفتاة إحساسًا بالخزي والعار من جسدها وجنسها وطبيعتها الجنسية. قد لا يوجد، في حالة الختان، عنصرُ الاستخدام من جانب شخصٍ آخر للحصول على لذة جنسية، لكنّه يؤدّي في كثير من الحالات إلى النتائج ذاتها على المستويين النفسي والجنسيّ.

### كيف نتعامل مع الطفل الذي تعرّض لتوّه للانتهاك الجنسيّ؟

٩٧٪ من كلّ حالات الادّعاء أمام القضاء لا تؤدّي إلى إدانةٍ حقيقيةٍ، وذلك لغيب الأدلّة في أغلب الحالات. لهذا السبب ليس من المفيد اللّجوء إلى القضاء، غير أنّ من المفيد أن يشعر

٥ من حلقةٍ دراسيةٍ عن الموضوع بقيادة المعالج الهولنديّ المتخصّص في علاج آثار الإساءة الجنسية د. تيوفان ويل (Dr. Teo Van Weele).

٦ المصدر السابق نفسه.

الطفل الذي اعتدي عليه بأن أحداً قد دافع عنه و”أخذ حقه“ بشكلٍ من الأشكال، حتى لو من خلال مواجهة المعتدي وتعنيفه وفضحه أمام الآخرين. إن هذا يُعطي الطفل - ذكرًا كان أم أنثى - إحساسًا بالأمان والحماية والتّمكين ممّا يساعده في التعافي من آثار الاعتداء. أما بالنسبة إلى التدخّل النفسيّ مع الأطفال الذين تعرّضوا للاعتداء، فهذا يتطلّب دراسةً خاصّةً، لكنّ يمكننا هنا تقديم بعض المبادئ التي يجب أن يراعيها الآباء والأمّهات ومقدّمو الرعاية.<sup>7</sup>

- استخدام طرقٍ خاصّة لجعل الطفل يتعرّف الألم الذي يشعر به ويستكشفه ليستطيع أن يتصوّر خبرة الإيذاء، حيث إنّ الأطفال لا يمتلكون بعد القدرة على التعبير عن ألمهم. قد يكون هذا من خلال اللّعب أو الرّسم، إذ يمكن أن نطلب من الطفل أن يرسم الشخص الذي ”صايقه“، أو أن يرسم ما حدث.
- ينبغي استخدام العلاج على مراحل بدلاً من استخدام علاج واحد لفترة طويلة، وذلك للتجاوب مع مراحل النمو المختلفة. (علاج باللعب - علاج بالرّسم - علاج معرفي - علاج جمعي)؛ فخبرة الإيذاء تُحدث ضرراً في عمليّة النمو والتطور النفسي للطفل في مراحلها المختلفة، لذلك يجب أن تمرّ العمليّة العلاجيّة أيضاً بمراحل تطوريّة تواكب المراحل التطوريّة للطفل، حيث إنّ استيعابه للخبرة المؤذية سيغيّر بحسب مراحل التطور التي يمرّ بها. ومفهوم أنّ الخبرة التي كانت مخيفة في مراحل مبكّرة، وباعثة على الارتباك والتوتر في مراحل تالية، تكون باعثة على الحزي والعار في مرحلةٍ ثالثة، ثمّ في مرحلةٍ متقدّمة، تكون باعثة على الغضب والرغبة في الانتقام. كما أنّ من الممكن في بعض حالات الإيذاء الجنسي أن يشعر الطفل أولاً ببعض اللذة أو الاستمتاع، أو ربّما ببعض الفخر لأنّه يشارك سرّاً مع أحد الكبار! هذه اللذة نفسها يمكن أن تُسبّب له شعوراً بالذنب فيما بعد لأنّه استمتع بها، أو لأنّه قد ”قبض“ ثمن ما حدث، أو لأنّه لم يقاوم. من الممكن أن تشعر طفلة بالذنب لأنّها تسببت في مشكلة بين أبيها وأمّها، ويمكن أن تشعر الطفلة

7 Beverly James, *Treating Traumatized Children. New Insights and Creative Interventions*, (Lexington: Lexington books, 1989) p. 39-48.

بأن فيها أمراً ما جعلَ هذا يحدثُ لها، أو قد تشعرُ بأنّها مجردُ أداةٍ جنسيّة، وأنَّ أيَّ اهتمام بها لن يكونَ إلاّ لأسبابٍ جنسيّة. من الممكن أن تنتابَ الطفلَ فيما بعدُ مخاوفَ أو شكوكاً في أنّه ”شاذٌ جنسياً“، أو مخاوفَ من كونه سيُفعلُ الأمرُ نفسه مع أطفالٍ آخرين فيما بعد. لذلك فإنَّ المعالجَ الذي يتعاملُ اليومَ مع أعراض، يجبُ أن يضعَ للمستقبلَ حُطّةً علاجيةً أخرى للتّعاملُ مع أعراضٍ أخرى قد تنشأ لاحقاً. هذا يعني أنَّ المعالجَ الذي يتدخّلُ مع طفلٍ يجبُ أن يضعَ في حسابه أنّه سيُحافظُ على علاقةٍ مستمرّةٍ مع هذا الطفلَ لفترةٍ طويلةٍ تصلُ إلى بلوغه سنَّ العشرين على الأقلّ، أو ربّما طوال العمر. أو إن لم يكنْ هذا مُتاحاً، فيمكنه أن يضعَ مسودّةً للخطوات المتّبعة لاحقاً.

• ينبغي إشراكَ مقدّمي الرعاية الطبيعيين للطفل، كالأهل أو مسؤولي الحضانة أو المدرسة، في الحُطّة العلاجيّة، والسببُ هو أنّ:

١. ساعةً أو ساعتين في الأسبوع مع المعالج هي غيرُ كافية.
٢. إشراكَ الآخرين يقللُ من الشعورِ بالسريّة، ومن ثمّ الخزي.
٣. قبوله لآخرين وتعبيره عن مشاعره بشأن الإيذاء هما أمران يزيدان من قبوله لنفسه.

### خرافاتٌ بشأن الانتهاك الجنسي<sup>٨</sup>

- الانتهاكُ الجنسيُّ للأطفال ليس منتشرًا كما يقولون. الحقيقة هي أنّه قد يكونُ منتشرًا أكثرَ ممّا تُشير الإحصائياتُ؛ لأنَّ الإحصائياتُ تُسجّلُ من استطاعوا الكلامَ ومن يُدركون ما حدثَ لهم. غير أنّ الخوفَ والشعورَ بالخزي والإنكار غير الواعي يجعلُ كثيرين لا يتكلّمون، وهذا بالتأكيد يؤثّرُ في الإحصائيات.

٨ من حلقةٍ دراسيّةٍ عن الموضوع بقيادة المعالج الهولندي المتخصّص في علاج آثار الإساءة الجنسيّة د. تيو فان ويل.

- البنات فقط هن اللاتي يتعرّضن للانتهاك الجنسي، والبعض يعتقدون العكس. غير أنّ الحقيقة أنّ الذين يتعرّضون للانتهاك الجنسي هم أفراد من كلا الجنسين.
- يحدث انتهاك الأطفال جنسيًا فقط في بعض المجتمعات أو الثقافات أو الطبقات الاجتماعية. والحقيقة هي أنّ الاعتداء الجنسي يحدث في كلّ الطبقات الاجتماعية مهما كانت الحالة الاقتصادية أو مستويات التعليم والثقافة.
- يحدث انتهاك الأطفال جنسيًا فقط في الأسرة المضطربة (غير السليمة). بالتأكيد يحدث الانتهاك أكثر في الأسر المضطربة، لكن قد يكون الاعتداء على الأطفال هو الاضطراب الوحيد الذي تُعاني من جرّائه الأسرة.
- طفلي ليس معرّضًا لخطر الانتهاك الجنسي. هذا بكلّ تأكيد نوع من الإنكار. لا يمكن منع حدوث- أو محاولة حدوث- الاعتداء الجنسي، لكننا يجب أن نعلم أطفالنا كيف يتصرّفون عندما يحدث ذلك.
- الانتهاك الجنسي للأطفال في تزايد. هذا ليس حقيقيًا، وإنما الوعي به وبمواجهته هو الذي ازداد.
- الأعراب هم من ينتهكون الأطفال جنسيًا. الحقيقة هي أنّ نحو ٨٠٪ من الاعتداءات تحدث داخل البيت من قبل شخص يعرفه الأطفال ويطمئنون إليه.
- منتهكو الأطفال وحوش وأشخاص غير طبيعيين. ليس بالضرورة. ففي كثير من الأحيان يكون المعتدي شخصًا سويًا في كلّ نواحي حياته، فيما عدا هذه الناحية المريضة.
- يمكن بسهولة التعرف إلى منتهكي الأطفال. لا يمكن ذلك، لذا فإنّ صمام الأمان هو في يد الأطفال أن يتقنوا جنسيًا ويتعلّموا حماية أنفسهم عندما يحاول أحد الإساءة إليهم.
- من ينتهك الأطفال جنسيًا هو إمّا مجنون، وإمّا شرير أو مكتئب. ليس بالضرورة. فهناك أيضًا الاعتمادي والمحبط أو مدمن الجنس، أو المصاب بشذوذ جنسي، وغير ذلك.



- كلُّ منتهكي الأطفال قد تعرّضوا هم أنفسهم للانتهاك في طفولتهم. ليس بالضرورة.
- الرّجال المثليون هم فقط الذين ينتهكون الأطفال. ليس صحيحًا. فهذا الأمر لا علاقة ثابتة له بالجنسية المثلية.
- النساء لا ينتهكن الأطفال جنسيًا. غير صحيح. فعلى الرّغم من أنّ غالبية المنتهكين هي من الرجال، فإنّ هناك نسبةً من النساء ينتهكن الأطفال جنسيًا (خذُ مثلًا الخادّات وجليسات الأطفال ومعلّماتِ الحضانة).
- تسجيلُ مرتكبي الجرائم الجنسيّة لدى الشرطة هو أمرٌ يكفي لحماية المجتمع. سبقُ وأشرنا إلى أنّ أغلب الاعتداءات تحدّثُ في البيت.
- التعرّف إلى منتهكي الأطفال جنسيًا وتعريضهم للخزي والعار يكفي لحماية أطفالنا. ليس بالضرورة. فإنّ كان المعتدي مدمنًا على هذا السلوك، فلن يتوقّف عنه إلا إذا خضع لعلاجٍ طويل المدى.
- يشتملُ الانتهاكُ الجنسيّ دائمًا على عنفٍ جسديّ. ليس صحيحًا. فنسبةٌ غير قليلةٍ من الانتهاك الجنسيّ تتمُّ بلطفٍ وفي إطارٍ من الحنان والرعاية. غير أنّها على كلّ الأحوال مؤذيةٌ للطفل من كافة الأوجه.
- الانتهاكُ الجنسيّ لا يسبّبُ لذّةً عند الطفل. في بعض الأحيان يؤدّي الانتهاكُ إلى بعض اللذّة، لا سيّما إن لم يكن قد تمّ بعنف. وهذا يزيدُ من شعور الطفل بالخزي والعار؛ لأنّه يحسبُ نفسه مسؤولاً عمّا حدث.
- إذا كان الطفلُ موافقًا، فإنّ هذا لا يعدُّ انتهاكًا. عندما يجري أيُّ تفاعلٍ جنسيٍّ بين طفلٍ وبالغ، حتّى إن كان الطفلُ موافقًا، وإن كان الطفلُ هو البادئ، فإنّ من واجبِ البالغ أن يرفضَ ويمنعَ الطفلَ من ممارسة هذا السلوك. لذا فمجردُ رضا البالغ يُعدُّ اعتداءً من جانبه على الطفل.

- مشاهدة صور الأطفال الجنسيّة هي مثل مشاهدة صور الكبار، وهي لا تُعدُّ ضارّةً. هناك دراساتٌ كثيرةٌ تشيرُ إلى خطورة مشاهدة المواد الجنسيّة على الإنترنت وعلاقة ذلك بتزايدِ نسب حدوث الاعتداء الجنسيّ.
- الأطفال قبل سنّ الحضانة غيرُ معرّضين للانتهاك الجنسيّ. سجّلت حالات اعتداءٍ على الأطفال حتّى في سنّ تصلُ إلى ثلاثة أشهر!
- الأطفال جنسيّون ويثيرون الاهتمام الجنسيّ. هذا ليس صحيحًا. فالأطفال لا يحبّون الجنس ولا يفهمونه، بل إنهم يخافونه.
- لدى لأطفال خيالٌ خصبٌ، وهم ويتخيّلون أمورًا لم تحدث، ومن ضمنها قصص الانتهاك الجنسيّ. صحيحٌ أنّ لدى الأطفال خيالًا خصبًا، ولكن لا يوجد ما يفسّرُ جنوح خيالهم إلى هذا الموضوع تحديدًا، إلاّ لأنّه حدث بالفعل.
- الأطفال يكذبون ويدّعون أنّه قد اعتدِيَ عليهم. الأطفال أو أيّ إنسانٍ لا يكذبُ إلاّ إذا كان سيحصلُ على نفعٍ من وراء كذبه.
- الانتهاك الجنسيّ لا يسبّبُ ضررًا، أو ربّما يسبّبُ ضررًا طفيفًا للأطفال. غير صحيح. فأضرارُ الانتهاك الجنسيّ النفسيّة والجسديّة والسلوكيّة والروحيّة عديدةٌ وشديدة.
- الأطفال الذين يتعرّضون للانتهاك الجنسيّ يعلّمون أنّ هذا خطأ، ويستطيعون أن يُبلّغوا عنه. في كثيرٍ من الأحيان يختلط الأمر على الأطفال، لا سيّما في حالات الانتهاك غير المصاحبة بعنف. وفي مرّاتٍ أخرى يكونون خاضعين لتهديد المعتدين وتخويفهم.
- يجب أن يكون الوالدان أو الكبارُ عموماً قادرين على تمييز حدوث الانتهاك الجنسيّ للأطفال. في كثيرٍ من الأحيان لا يمكن تمييز حدوث ذلك. لذا فإنّ الوقاية دائماً هي خيرٌ من العلاج.
- الولع الجنسيّ بالأطفال هو داءٌ لا يمكن شفاؤه. هو داءٌ شفاؤه صعب، ولكنّه ليس مستحيلًا.

- من حق الرجال أن يحصلوا على إشباع لرغباتهم الجنسية بالطريقة التي يختارونها. هذه فكرة خاطئة تمامًا تروّجها المجتمعات الذكورية التي تميل إلى قهر النساء.
- العاملون في مجال حماية الأطفال يشجعون الأطفال على اختراع قصص وهمية عن الانتهاك الجنسي. بكل تأكيد يجب على المشيرين أو العاملين في مجال حماية الأطفال ألا يضغطوا على الأطفال ليتذكروا ما لا يتذكرونه، ولكن في الأغلبية الساحقة، لا تكون القصص وهمية. غالبًا ما يستخدم المحامون المدافعون عن المعتدين هذه الخرافة لحماية موكلهم.
- يجب أن نتجنب أن نتكلم مع الأطفال بشأن الانتهاك الجنسي لئلا نخيفهم. على العكس، فالكلام مع الأطفال بطريقة سليمة ومتزنة، يعد أفضل الطرق للوقاية من الانتهاك الجنسي.
- تجعل وسائل الإعلان وتجارة الموضة الأطفال مادة للإثارة الجنسية، وهذا يجعلهم معرضين للانتهاك. هذا أيضًا نوع من التبرير لجريمة الاعتداء الجنسي.

## الوقاية من الاعتداء الجنسي

حتى نوجز مبادئ الوقاية، فإننا نضعها في الخطوات الثلاثة التالية:

1. أولاً، الوقاية الأولية (Primary Prevention)، أي منع حدوث الانتهاك الجنسي وذلك من خلال:

- العلاقة الأسرية الجيدة والزواج الصحي كخط الدفاع الأول في مواجهة الانتهاك الجنسي للأطفال.
- إن العلاقة الجيدة ما بين الوالدين وأطفالهم، وسهولة الحوار والثقة بينهم يُشكّلان الإطار الأساسي الذي تجري فيه هذه التوعية. كثير من الأطفال لا يبلغون والديهم بشأن تعرضهم للإساءة الجنسية بسبب الخوف منهم.

- التربية الجنسية الجيدة للأطفال، ومقاومة الآباء والأمهات لخلجهم وتجنّبهم الحديث بهذه الأمور.
- كَسْرُ الإنكارِ والتخلّي عن الافتراض أنّ هذه الأمور لن تحدث. فالحقيقة هي أنّها تحدثُ بنسبةٍ كبيرة.
- تعليمُ الأطفال الحدودَ الجسديّةَ وأهمّيّتها بشكلٍ جيّد، واحترامُ الوالدين للحدود الجسديّة لأطفالهم، فمثلاً أن يعتمدَ الأطفالُ على أنفسهم في الحَمَام منذ سنّ الرابعة أو الخامسة بأن لا يفتح الوالدان بابَ الحَمَام منذ ذلك الوقت، ولا يشاهد أحدُ أجسادهم إلا في أحوالٍ استثنائية، مثل الطبيب في العيادة في حالة الإصابة بمرضٍ ما.
- التعبيرُ للأطفال بكلامٍ واضحٍ صريحٍ أن يحاولوا مُقاومة أيّ اعتداء عليهم قدر استطاعتهم بالركض أو الصراخ، إضافةً إلى إفهام الأطفال بوضوح أنّهم إذا شكوا للوالدين، فإنّهم سيحمونهم ويُعاقبون مَنْ فعلَ ذلك بهم. هنا ينبغي أن نعرفَ أنّ الأطفال في الأحوال الطبيعيّة لا يحبّون الجنس ويتقرّزون من هذه الأفعال. وإذا سمحَ بعضُ الأطفال بذلك طواعيةً، فهذا يكونُ لأنّ الأطفال جاعون إلى الحبِّ والاهتمام والتّلامس، وهذا أيضاً ليس ذنبهم.
- التأكيدُ على أنّ الاعتداء هو أمرٌ قد يحدثُ لهم، وليس أمراً يفعلونه. وهذا يودّي إلى تخفيفِ الشعور بالعار، ومن ثمّ سهولة التبليغ عن هذه الحالات.
- التأكيدُ على سرّيّة التعامل مع هذه الأمور بما يشجّع المعتدى عليهم على الإبلاغ. ففي كثيرٍ من الأحيان يخشون الإبلاغَ لثلاً يُفتضح أمرهم في المدرسة أو الشارع مثلاً.
- رَفْعُ مستوى صورة المراهقات عن ذواتهنّ، ومستوى مفهوم العلاقات الصحيّة، ولا سيّما أولئك الفتيات اللاتي ينتمين إلى طبقاتٍ فقيرةٍ اقتصادياً واجتماعياً حيث لا تؤدّي أسرهنّ الدورَ التربويّ المطلوب.

٢. أما الوقاية الثانوية (Secondary Prevention)، فهي الاكتشاف المبكر للحالات التي يحدث لها انتهاك مستمر في الوقت الحالي وحمايتها لئلا يستمر الانتهاك، ومن ثمّ تزداد آثاره. من مظاهر تعرّض الطفل للاعتداء الجنسي المظاهر النفسية حيث يبدو على الطفل بعض الاكتئاب والانعزال وتناقص رغبته في اللعب والنشاط. ربّما يبدو عليه الخوف من الناس عموماً أو بعض منهم، كما أنّه يرفض الذهاب إلى أماكن معيّنة (ربّما تكون هي الأماكن التي تعرّض فيها للاعتداء)، وقد يُصاب الطفل أيضاً باضطراب النوم والأكل نتيجة لذلك. وربّما تُصيب الطفل نوبات من "السرحان" وفقدان التركيز، ممّا قد يؤدي إلى بعض التدهور الدراسي. أحياناً تظهر نوبات من الغضب غير المبرر، والعصبية الزائدة وسهولة الاستثارة. وهناك أيضاً أطفال يرسمون مناظر ومواقف تعبّر عن الاعتداء والعنف وذلك بوصفه طريقة للتنفيس عن مشاعره. من الناحية الجسدية، قد يظهر بعض الاحمرار في المناطق الداخلية من الجسم، وأحياناً بعض الجروح السطحية.

٣. وأخيراً الوقاية الثالثية (Tertiary Prevention) وهي العلاج النفسي والسلوكي لمن تعرّض من الأطفال للاعتداء في طفولته، ولم يجر التعامل مع تلك الأمور، فأدّت إلى مشكلات نفسية وعلاقاتية مُزمنة، لا سيّما أن الأمّ التي تعرّضت للانتهاك وتأثرت نفسياً بذلك نادراً ما ستحمي أطفالها، لأنّها سوف تتجنّب الكلام بالأمر، أو ربّما تحميهم بصورة مرصّية. أمّا الأبّ الذي تعرّض للانتهاك ولم يُعالج، فقد يتحوّل إلى مُدمن على الجنس، وربّما يعتدي هو أيضاً على الأطفال كما سبق وأشرنا.

## الجنسية المثلية

### الوقاية من الجنسية المثلية

تحتاج هذه القضية إلى أكثر من كتاب، لكننا هنا نريد أن نلقّي بعض الضوء على الطفل المعرّض للجنسية المثلية. بالنسبة إلى أسباب الجنسية المثلية، فإنّها تتعدّد ولا يمكن لسبب واحد أن يكون

وحده المسؤول عن ظهور هذه الميول.<sup>٩</sup> ومن هذه الأسباب:

- النظام الأسري الذي يولد فيه الطفل حيث يكون دور الأب هامشيًا ودور الأم رئيسيًا. إضافةً إلى درجة واضحة أو خبيثة من الاضطراب الأسري.
- الجروح من الوالد من الجنس نفسه (الأب في حالة الولد). وهذا الجرح يمكن أن يكون بالإيذاء أو بالإهمال أو من خلال ضعف شخصية الوالد وغيابه.
- الجروح من الوالد من الجنس الآخر (الأم في حالة الولد). ويكون ذلك في صورة السيطرة المبالغ فيها أو الحماية الزائدة، وربما إفساد علاقة الولد بأبيه. وفي حالة الجنسية المثلية لدى البنات، قد يكون هذا الجرح رفض أنوثة البنت، أو ربما الاعتداء عليها أو على الأم.
- الجروح من الإخوة والأقران التي تصعب من دخول الولد إلى جماعة الذكور والبنت إلى جماعة الإناث.
- الاعتداء الجنسي (غالبًا في حالة الذكور). وهذا هو ما يُكرس رِبَطَ الحب لدى الذكور بممارسة الجنس معهم.
- العلاقة بالجسد. في بعض الأحيان تكون العلاقة السيئة بالجسد نتيجة للاعتداء الجنسي. وفي أحيان أخرى تكون بسبب بعض الصفات الجسدية المتطرفة كالطول أو القصر المفرطين، أو النحافة أو البدانة الزائدتين. قد تؤثر هذه الصفات عند الطفل الحساس في صورته عن ذاته، وقد تؤدي أحيانًا إلى بعض الجروح والإهانات من الأقران. دون شك، هناك إساءات أخرى اجتماعية وثقافية تؤدي إما إلى رفض النفس بسبب المثلية وإما إلى قبول المثلية كونها أسلوب حياة، وذلك بحسب المجتمع إذا كان متشددًا أو متحررًا.

٩ للمزيد عن الأسباب والديناميكيات وطرق التعافي والنمو، يمكن الرجوع إلى كتب أخرى للمؤلف مثل "شفاء الحب"، وكتاب "صديقي مثلي" من سلسلة ١٨٠ درجة (عمّان: أوفير ٢٠١١م).

هنا سنركز بصورة خاصة على شخصية الطفل الحساس المعرض للمثلية، فهي العنصر الأساسي حيث إنَّ الطفل هو القاسم المشترك الأعظم لكلِّ هذه العوامل، وهو الذي يستقبلها ويتأثر بها.

تزيد الحساسية في الشخصية من تأثير الجروح التي يتعرض لها الطفل، لذا فهي تساعد على سهولة انفصاله عن الوالد والأقران من الجنس نفسه.

يتميزُ الطفلُ المعرضُ لنُمو الميول الجنسيَّة المثليَّة بالحساسيَّة الشديدة، كما يتميزُ أيضًا بالطاعة الشديدة وعدم القدرة على التمرد أو حتَّى التعبير عن الحقوق وتوكيدها. يحتاجُ الطفلُ الحساس إلى مزيدٍ من التلامس والحبِّ والطمأنينة والحماية. وإذا لم يُسدِّد هذا الاحتياج كما ينبغي، فستتكوَّن صورة سلبية عن الذات لدى الطفل، وهذا يشجِّع أكثر فأكثر انفصاله عن نفسه وعن الآخرين.

### عدم التآقلم مع النوع الاجتماعي (Gender Non-conformity)

أغلبُ البالغين من أصحاب الميول المثليَّة عانوا درجةً من التخبط في الهويَّة الجنسيَّة في فترةٍ ما قبل البلوغ. ولكي تعرفَ إنَّ كان الولدُ مُعرَّضًا لأنَّ يكونَ مثليًا، فإنَّك تحتاجُ لأنَّ تسألَ الأسئلة التالية:

- هل يلعبُ مع الأولاد أم مع البنات؟ هل يفضلُ ألعابَ الأولاد (كرة القدم، الحرب، المصارعة... إلخ) أم ألعابَ البنات (البيت، العرائس... إلخ)؟ كثيرٌ من الأولاد المعرضين للمثليَّة يميلون إلى اللُّعب مع البنات أكثرَ من الأولاد، ويميلون أيضًا إلى ألعاب البنات الهادئة، في بعض الأحيان يكونُ هذا اضطرارًا لعدم وجودِ أصدقاء كثيرين من الذكور، أو بسبب رَفْضِ الطفل لطريقة لَعْبِ الأولاد التي تتميزُ ببعض العنف. لذا يجبُ على الآباء والأمهات أن يبذلوا الجهدَ لإدخال مثل هذا الولد الحساس ضمنَ مجموعة أولادٍ ويبحثوا بِجِدِّ عن أولادٍ تقتربُ أطباعهم من أطباع ابنهم الرقيق.
- هل يتخيَّلُ نفسه بطلًا أو نجْمًا رياضيًا أم لا؟ هل يقرأُ مجلَّاتٍ وكتبَ مغامراتٍ أو مجلَّاتٍ رياضيَّة ويهتمُّ بأخبار الرياضة أم لا؟ بعضُ الأولاد لا يحبُّون هذه الأمور،

وهذا لا يجعلهم بالضرورة مثليين، لكن يجب أن يلفت هذا انتباهنا، لا سيما إذا صاحب ذلك انعزال عن الأولاد.

• هل قيل له من قبل أصدقائه إنه ”بنوته“؟ هل يتلقى أي نوع من السخرية في هذا الإطار؟ هذا أيضا يجب أن يقرع جرس إنذار ينبهنا بقوة.

• هل يقبل أن يخاطب مثل بنت؟ هل يرتدي ملابس أنثوية؟ هل يرقص بأسلوب الرقص الشرقي في الأفراح والمناسبات؟ هذا يجب أن يقرع جرس إنذار بدرجة مرتفعة جدا، ويجب أن يجعلنا نتنبه، لكن دون دُعرٍ، ودون التعامل بعنف.

• هل يخجل من الرجال؟ هل يخجل من النساء؟ اكتشفت أكثر من مرة بعض الأطفال والمراهقين المعرضين بشدة للمثلية، أو الذين بدأوا طريقها، من خلال ملاحظة عدم خجلهم الواضح من النساء. من أعجب الأمور التي صادفتها، كان رؤيتي لشاب يبلغ نحو ١٦ عامًا في بلد عربي محافظ، إذ راح يمشط شعر إحدى السيدات الشابّات بحنان أمام زوجها دون أدنى خجل، والأعجب أنني لم ألاحظ على الزوج أي انزعاج. وربما لو كان شاب آخر هو من فعل ذلك، لبدا الانزعاج على الزوج. لكننا عادة لا نلاحظ هذا، وإذا لاحظنا، فإنتنا لا نتحدّث بهذه الأمور!

إن نسبة كبيرة (تصل إلى ٧٥٪ في بعض البحوث) من الأولاد التي انطبقت عليهم هذه الصفات صاروا من أصحاب الميول المثلية. ولعل غياب السلوك الذكوري هو مؤشر يُنبئ بالميول المثلية أهم من وجود السلوك الأنثوي لدى الولد.

في كتابه ”تربية الأولاد“<sup>١٠</sup>، اقتبس جيمس دوبسون الصفحات التالية من كتاب جوزيف نيكولوسي ”الوقاية من الجنسية المثلية: دليل الوالدين“<sup>١١</sup>، ويقول نيكولوسي: ”إن هناك علاقة كبرى ما بين السلوك الأنثوي في فترة طفولة الأولاد وظهور الجنسية المثلية فيهم عند البلوغ.

10 J. Dobson, *Bringing Up Boys*, (Carol Stream: Tyndale), 2001, p. 118-122.

11 J. Nicolosi and Linda A. Nicolosi, *A Parent's Guide to Preventing Homosexuality* (I.L.I.V.P books, 2002).



إذ إن الأولاد يشعرون في سن مبكرة بنوع من عدم الراحة مع أقرانهم من الأولاد، وبإحساس دفين بأنهم مختلفون، أو ربما أنهم أقل شأنًا من أقرانهم من الجنس نفسه. غير أن الآباء والأمهات غالبًا ما لا يدركون هذه العلامات وينتظرون إلى ما بعد فوات الأوان ليسعوا في طلب المساعدة من أجل أولادهم وبناتهم. أحد أهم أسباب ذلك هو أن أحدًا لم يقل لهؤلاء الآباء والأمهات الحقيقة بشأن حالات التشويش في الهوية الجنسية التي قد تُصيب بعض الأطفال، كما لم يقل لهم أحد ماذا عليهم أن يفعلوا في مثل هذه الحالات<sup>١١</sup>.

”ماما، هل أنا غاي؟“ (Mom, Am I gay?)

يكمل نيكولوسي موجّهًا حديثه إلى الآباء والأمهات: ”ربما تشعر بالقلق إزاء ابنك أو ابنتك والتطور الجنسي الخاص بهما. قد يأتي إليك أحد أبنائك قائلًا: «ماما، هل أنا غاي؟» أو «بابا، أنا غالبًا ثنائيي الجنسية». قد تجد صورًا إباحية مثلية في دولايب ابنك أو ابنتك، أو تكتشف أنهم دخلوا مواقع مثلية على الإنترنت. ربما تجد مذكرات أو خواطر كتبوا فيها مشاعرهم العاطفية تجاه شخص من الجنس نفسه. أهم ما أريد أن أقوله لمثل هؤلاء الآباء والأمهات إنه لا يوجد شيء اسمه «طفل مثلي» أو «مراهق مثلي»، لكن إذا تركت مثل هذه الحالات دون علاج، فإن نحو ٧٥٪ منها ستتحول إلى الجنسية المثلية أو الجنسية المزدوجة<sup>١٢</sup>.

ويتابع جوزيف نيكولوسي، وهو أحد أهم المعالجين للجنسية المثلية في العالم، قائلًا: ”إن أغلب عملائي من المثليين لم تظهر عليهم علامات أنثوية واضحة في أثناء طفولتهم، لكن ظهرت على أغلبهم علامات «غياب الذكورة»- أي أنهم كانوا مُفصلين عن أقرانهم من الأولاد، وكانوا يشعرون بألم الرّفص من قبل أولئك الأقران. وقد كان يظهر هذا الانفصال عن الأولاد في صور متعددة مثل عدم الاهتمام بالرياضة، أو السلبية والتراجع وعدم الإقدام، وعدم الرغبة في ممارسة الألعاب التي تحوي عنفًا أو التحامًا مع غيرهم من الأولاد<sup>١٣</sup>. وقد كانت لدى بعض منهم صفات

١٢ في بعض الأحيان، لا يكون هذا الانفصال من البداية، بل يحدث بعض الانفصال بالآب والأولاد الذكور ثم بعد ذلك، بسبب أحوال عملية مثل الانتقال من بلد إلى بلد، أو بسبب حدوث جروح نفسية، يبدأ الطفل في الانعزال بالتدريج.

شخصيةٌ حُسِبَتْ غالبًا محببةً، مثل الذكاء، والحسّاسيّة، والميول الفنّية، والهدوء، وعدم الاندفاع الذي يتميِّزُ به الذُّكور في هذه السنِّ. وقد ساهمت هذه الصفاتُ أيضًا في ابتعادهم عن أقرانهم من الجنس نفسه، ومن ثمَّ في تشويهِ نموِّ الهويَّة الذكريَّة لديهم أو تأخُّره.

”ولأنَّه لم تظَهَّرْ على مثل هؤلاء الأولاد علاماتٌ أنثويَّةٌ مثل ارتداء ملابس النساء، أو المشي أو الحديث بطريقةٍ فيها تشبُّهٌ بالنساء، فإنَّ أهلهم لم يدركوا أنَّ هناك مشكلة، لذا لم يبذلوا أيَّ مجهود في العلاج. لكنَّ يجب ألا نخلطُ الأمور- والكلام ما زال لنيكولوسي- فمن الممكن أن يكون الولد حسَّاسًا وطيبًا واجتماعيًا، أو فنَّانًا ورفيقًا، ويظلُّ أيضًا غيريًّا. فليس هناك أيُّ مبررٍ لمنع الأولاد من أن يكونوا هكذا خوفًا من المثليَّة.

”الأمرُ في رأيي، وفي رأي عددٍ متزايدٍ من الباحثين، أنَّ الأب يلعبُ دورًا رئيسًا في تنمية صفاتِ الذكورة لدى ابنه. والأبُّ أهمُّ من الأمِّ في هذا الأمر؛ فالأمَّهاتُ يصنِّعنَ أولادًا، أمَّا الآباءُ فيصنِّعون رجالًا. في سنِّ مبكرةٍ جدًّا (من سنِّه ونصف إلى ثلاثِ سنوات)، يقرُّ الولدُ داخليًّا أن يكونَ كيانًا منفصلًا ويختارُ إن كان يريدُ أن يكونَ مثل أمِّه أو مثل أبيه. وكما تدفَعُ الولدَ الجيناتُ والهormوناتُ لأن يكونَ ذكرًا «جسديًّا»، تدفَعُه علاقةُ التوحُّد مع الأب لأن يكونَ ذكرًا «نفسياً». وعندما يتعلَّقُ الأمرُ بالميل الجنسيِّ (سواءً إلى أفرادٍ من الجنس نفسه أم إلى الجنس الآخر)، تلعبُ العواملُ النفسيةُ الدورَ الأكبر.

”لذلك فإنَّ دورَ الأب هو أن يؤكِّدَ على ذكورةِ ابنه، ويساعده أن يقبلها من خلال قبوله للذكورة في أبيه والعلاقة الجيدة به. يحدثُ هذا عندما يلعبُ الأبُّ مع ابنه ألعابًا ذكوريَّةً عنيفةً مختلفةً عمَّا تلعبه النساء، أو أن يأخذَه معه ليستحمًّا معًا. في ذلك الوقت يدرك الطفلُ الصغيرُ أنَّ جسده شبيهٌ بجسدِ أبيه، وأنَّ عليه أن يختارَ «نفسياً» أن يكونَ مثل أبيه.

”كثيرٌ من الآباء يحبُّون أولادهم ولكنهم فشِلوا دونَ قصْدٍ في إقامة هذه العلاقة أو ذلك الارتباط بأولادهم. وربَّما كان الفشل بسبب الاختلاف في الشخصيات، أو لانشغال الآباء بالعمل، أو ربَّما لضَعْفِ الذكورة لدى الأبناء ممَّا جعلَ تنميةَ الذكورة فيهم أمرًا يحتاجُ إلى وقتٍ طويلٍ ومجهود شاقٍّ لم يستطع الآباءُ بذله.

”وتلعبُ الأمُّ أيضًا دورًا مهمًّا. ويتلخَّصُ دورُ الأمِّ في أن تتراجعَ قليلًا وتسمحَ للولد بأن «يذهب» مع أبيه إلى عالم الرجال. قد تكونُ الأمُّ في مرَّاتٍ كثيرةٍ مُسيطرَةً أو راغبةً في تملكِ الولد وجعله «ابنًا الصغير المدلَّل» (Mom’s little boy). وعندما يجتمعُ هذا مع سلبيةِ الأب أو انشغاله أو عدم التوافقِ في الشخصية بين الأب والأمِّ، يفشلُ الولدُ في إقامة هذه الرابطة بأبيه، ومن ثمَّ يفشلُ في تأكيد ذكوريته. وتميلُ بعضُ الأمهاتِ أيضًا إلى تأديبِ أبنائهنَّ أكثرَ من اللازم بحيثُ تجعلُ من كلِّ أمرٍ ممنوعًا: «لا ترفعِ صوتك!»، «لا تلعبُ بشكلٍ عنيف!»، «لا تعترض!»، «كن مُطيعًا»، فالذكورةُ متعلِّقةٌ بالشَّجاعة والإقدام التي قد يقتلها هذا التأديبُ المفرط.

”في بعض الأحيان تستخدمُ الأمهاتُ أبناءهنَّ الذكور للحصول على الحبِّ والاهتمام الذي لا يحصلنَّ عليه من أزواجهنَّ، أو على الأقلَّ يفشلنَّ في مساعدة أبنائهنَّ على الاستقلال النفسي، بل يستسلمنَّ لعلاقاتٍ اعتماديةٍ بأبنائهنَّ. وفي أحيانٍ أخرى أيضًا تمنعُ الأمهاتُ أولادهنَّ من الاختلاطِ بأبائهنَّ، لا سيَّما إذا كانتَ علاقةُ الأمِّ سيئةً بالأب. ويحدثُ هذا في عباراتٍ مثل: «لا تُشغلْ بابا»، أو «بابا مُتعب!»، أو «إذا أردتَ شيئًا فاطلبه مِنِّي أنا». وبكلِّ تأكيد الأمرُ أسهلُّ بالنسبة إلى كلِّ الأطفالِ من الأب؛ فالأمُّ هي نبعُ الحنان وأصلُ القبول غير المشروط بالنسبة إلى الأبناء والبنات.

”مرَّةً أخرى أقول - والكلام لنيكولوسي - إنه يحدثُ هذا مع كثيرٍ من الأولاد، ولكنهم لا يتأثرون بل يصيرون غيريين. لكنَّ بالنسبة إلى الأولاد الحساسين ضعيفي الذكورة - ومن ثمَّ يكونون مُعرَّضين للمثلية - فإنهم يتأثرون أكثرَ من غيرهم من اضطراب العلاقة بالأب“.

وختامًا لهذا الفصل أقولُ إنَّ العيونَ المفتوحة كثيرًا ما لا ترى الحقيقةَ سواءً من خلال تسييس العلم والإعلام والتعليم في الغرب، أم من خلال الجهل والتعمية والتعتيم والفصل الحادِّ بين الجنسين في الشرق. والحقيقة هي أنَّ الجنسية المثلية ليست خيارًا طبيعيًا للحياة، كما أنَّها ليست الإثم الذي لا يُعتَفَرُ، والعار الذي لا يُعبَّرُ عنه. هي اضطرابٌ في التطوُّر الجنسي لدى الأطفال يمكنُ تفاديه في الطفولة والمراهقة، ويمكنُ معالجته فيما بعد، ولكنَّ بصعوبةٍ بالغة.



## نصائح ختامية

- لا تظهر أية علامة خارجية على من يرتكب الاعتداء الجنسي، لذا يجب اتباع احتياطات مع كل الناس وفي كل المواقف، والأهم أن علينا توعية الأبناء والبنات.
- إن الاعتداء الجنسي يحدث بالفعل، فلا تفرّض أنه قد يحدث للجميع إلا ابني أو ابنتي، لذا اهتمّ بالوقاية منه.
- الحب والاهتمام والرعاية والحوار الحر المنفتح بين الآباء والأبناء هو الخطّ الأول للوقاية من الاعتداءات الجنسية والتقليل من أثارها إذا حدثت.
- ينبغي للآباء أن يهتموا باللعب والتلامس، وإقامة علاقة حميمة بأولادهم منذ سن مبكرة جداً، مثل سنة ونصف أو سنتين. والحال ذاتها تنطبق على الأمهات مع البنات.
- يجب أن يكون الأب قدوةً ومصدراً للفخر، ويجب أن تكف بعض الأمهات عن الحماية الزائدة للأولاد.
- ممنوع التمييز ما بين الذكور والإناث، وتفضيل الذكور وقهر الإناث؛ لأن هذا السبب هو السبب الأكبر في ثقافتنا لحدوث الميول المثلية بين البنات، إضافة إلى سبب مهم آخر هو الاعتداء الجنسي.

## دعاء

ياربّ!

هناك الكثيرُ من الشرِّ في هذا العالم .  
هناك جوعٌ إلى الحبِّ في هذا العالم ،  
وهذا الجوعُ يدفعنا لارتكاب الكثير  
من الشرور ضدَّ بعضنا بعضاً .  
أسألكَ الحمايةَ من أجل نفسي ،  
ومن أجل أولادي وكلِّ أطفال العالم .  
أمين

صدرَ من أوفير للطباعة والنشر أيضاً كتاب :

## خطوة لقدام

الجزء الثاني: سنوات المراهقة والرشد



بعدها استعرضَ الدكتور أوسم وصفي في الجزء الأول من السلسلة سنوات الطفولة، يستمرُّ في هذا الجزء في سردِ المراحل العمرية المتتابعة، بدءاً من المراهقة وانتهاءً بمرحلة الرشد المتأخّر (ما بعد الستين).

وإضافةً إلى شرحِ المراحل العمرية وخصائصها والتحديات المصاحبة لها، يتناولُ الجزء الثاني فصولاً تتعلّقُ بالعائلة مثل توازنات الزواج، والزواج الواعي، ومستويات التواصل وأنواع العلاقات العائلية.

أسّس الدكتور أوسم عددًا من الخدمات والبرامج، منها "خدمة الحياة" للمساندة النفسيّة والتوعية والتعافي، و"برنامج القلب الواعي" لتوعية المراهقين من الجنسين، كما أسّس في عام ٢٠٠٥م "برنامج شفاء الحب" للتعامل مع الميول المثليّة، والدكتور أوسم هو الممثل الإقليميّ لأكبر رابطة عالميّة في هذا المجال. وهو يقدّم من حين إلى آخر استشاراتٍ إلى "برنامج الإيدز في الدول العربيّة" التابع للبرنامج الإنمائيّ للأمم المتّحدة.

بدأ تأليف الكتب منذ عام ٢٠٠٤م، وصدر له عددٌ من الكتب هي: "صحّة العلاقات"، و"الروحانيّة والتعافي"، و"القلب الواعي"، و"مهارات المشورة"، و"مهارات الحياة".

وقد صدر له عن أوفير للطباعة والنشر سلسلة "١٨٠ درجة" للشباب، والتي صدر منها خمسة عشر كتابًا ما بين عامي ٢٠٠٨ و٢٠١٢م، إضافةً إلى كتاب "معرفة الله والنفس" بالاشتراك مع الدكتور ماهر صموئيل، وصدر عام ٢٠١٣م.

# خطوة لقدام

## الجزء 1 : سنوات الطفولة

في كل لحظة تمرُّ بنا في الحياة نأخذ خطوةً إلى الأمام في مسيرة العُمر من البداية إلى النهاية. قد تكون هذه الخطوة الزمنية مصحوبةً بخطوةٍ إلى الأمام في نُصُجنا الإنساني وقد لا تكون كذلك، وربما تكون بكلِّ أسفٍ مصحوبةً بردةٍ إلى الوراء. هناك أشخاصٌ أخذوا في حياتهم - وما يزالون يأخذون - خطواتٍ حقيقيةً إلى الأمام وذلك عندما عرفوا أنفسهم معرفةً شاملةً وعميقةً، وأخذوا يتطلَّعون إلى مزيدٍ من معرفة العالم من حولهم علمًا ووعيًا وتفاعلاً.

في خطوة لقدام سنتناول كلِّ مراحل الحياة الإنسانية من السنة الأولى للولادة وحتى مرحلة الرشد المتأخَّر (ما بعد السَّتين). ونظرًا إلى أهميَّة مراحل الطفولة، فقد كرَّسنا هذا الجزء لسنوات ما قبل المدرسة وسنَّ المدرسة، فيما يتناول الجزء الثاني سنوات المراهقة، وسنوات الرشد الممتدة من سنَّ العشرين إلى ما بعد السَّتين، علاوةً على فصولٍ خاصَّةٍ بالعائلة.

في كلِّ مرحلةٍ من هذه المراحل سنشرح علميًا سمات تلك المرحلة، كما سنتناول القضايا والتحدّيات المصاحبة.

نتمنى أن يكون هذا الكتاب أحد الأدوات التي تأخذنا في مسيرة نُصُجنا خطوة لقدام!

ISBN 978-90-5950-145-4



9 789059 1501454

www.ophir.com.jo

@ophirpub

ophirpub



ophir

الروماتى  
8890  
خطوة لقدام ج 1 سنوات الطفولة. اوسم وصغير  
كتب اطفال وتربية مسحية  
0040000187  
L.E. 55.00